

صور من الذاكرة

برتراند رسل

- ♦ المؤلف: بتراند رسل
- ♦ العنوان: صور من الذاكرة
- ♦ ترجمة: أحمد إبراهيم الشريف
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2020
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٩ / ١٥٧١٠

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 234 - 6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمع بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أى جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٢٧٨٧ ٠١١١١٦٠

برتراند رسل
صور من الذاكرة
العقل والمادة

ترجمة
أحمد إبراهيم الشريف

مراجعة
الدكتور زكي نجيب محمود

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

رسل، برتراند

صور من الذاكرة - برتراند رسل - ترجمة: أحمد إبراهيم الشريف

ط1 القاهرة - آفاق للنشر والتوزيع - 2020

336 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 15710 / 2019

الترقيم الدولي 6 - 234 - 765 - 977 - 978

1 - فلسفة

أ - العنوان

رسل، برتراند

هذا الكتاب

أولاً: المؤلف:

برتراند آرثر وليم رسل، المولود في الثامن عشر من مايو سنة ١٨٧٢، والمتوفى سنة ١٩٧٠، واحد من الكتاب الغربيين المعروفين جداً في بلادنا العربية عموماً والمصرية خصوصاً، بل لعله أظهر هؤلاء الكتاب وأشهرهم، لا يشاركه هذه الصفة غير صديقه برنارد شو.

بيد أن صورتَي الرجلين تختلفان في مخيلة المصري والعربي؛ إذ بينما صورة شو صورة واضحة المعالم والقسمات، كاملة الجوانب وبالحجم الطبيعي، لا نجد صورة رسل على هذا الوصف، بل نجدها غامضة الملامح في كثير من سماتها، جزئية تترك بعض جوانب هذه الشخصية في الظلام الدامس، وليست بالحجم الطبيعي ولا حتى بالحجم المصغر على نسبة واحدة، وإنما هناك من أجزائها ما هو أكبر من الحجم الطبيعي ومنها ما هو أصغر بغير تناسب.

يعرفه عامة الناس من أخباره، وأحاديثه الصحفية، فيتراءى لهم لوردًا من عظماء الإنجليز الذين كانوا يعهدونهم في مطلع هذا القرن، ولكنه على غير المعهود في

اللوردات المستعمرين يتظاهر ضد الاستعمار، ويقع في مخالفات متعمدة ضد القانون والنظام، ويُحكم عليه بالسجن أو الغرامة، ويعقد محاكمات لمجرمي الحروب التي وقعت ولمجرمي الحروب التي لم تقع بعد، وعلى غير المعهود في اللوردات كذلك، ولا حتى المعهود في الإنجليز عامة، يبدو للناس أميل إلى اليسار الأحمر منه إلى اليمين الأزرق.

ويعرفه من لهم إلمام ثقافي أوسع واطلاع على الفلسفة ومذاهب الإصلاح أكبر، فيترأى لهم في صورة مصلح اجتماعي من نوع أولئك الفلاسفة الطوباويين الحالين الذين يقصرون فكرهم على الأحلام يحلمونها يرون فيها عالم البشر أقرب إلى جنة الخلد على أرض الفناء. ولهذا يعجبون بتفكيره المتحرر من كل قيد، سواء أكان قيد الدين وشعائره أم كان قيد الإيديولوجية ومراسمها، أم حتى كان قيد الوطنية وحب القوم والعصية. ولكنهم يقفون عند حدود الإعجاب بهذا التفكير، وعند حدود الإعجاب بهذا القرن العشرين، القرن الرومانتيكي العجيب، قرن النقائص والمفارقات، قرن العظمة والضعف، قرن النور والظلام، قرن الأمل المتفائل والقنوط المتشائم، القرن الذي يحتمل مفكرًا حرًا يتحرر من قيود الدين والإلحاد وقيود القومية والعصية، ثم يضيق ذرعًا بعالم يصف ما يراه في معمله؛ لأن الذي يراه مخالف لرأي حاكم أو حزب أو نحو ذلك.

يقفون عند هذا الإعجاب بأفكاره الاجتماعية ولا يتعدون الإعجاب إلى الاقتناع والاعتقاد والتنفيذ، لأن هذه الآراء لا تناسب مجتمعًا واحدًا من مجتمعات الإنسان في القرن العشرين، فمن لم تمنعه شعائره، منعه منها إيديولوجيته أو قوميته أو مجرد خوفه من مواجهة الجماهير التي تتبوأ مكان الحاكمين بالحق الإلهي المقدس في سالف العصر والأوان. وكأنني برسل يلقي الموافقة الإجماعية من الناس، لا على آرائه ولكن على نقده وهدمه للآخرين، فالشيوعيون يحبون عيبه على الديموقراطيات

الغربية، والديموقراطيات الغربية تحب حملته على التخلف والتعصب، والمسلمون يحبون حملته على الأديان ورجال الدين في الغرب، والملحدون يحبون هدمه للأديان وإن لم يوافقوه على رأيه الخاص في الإلحاد، وما ذلك إلا لأنه حين يهدم يهدم ببراعة منقطعة النظر، ولكنه حين ينبغي لا ينتمي لفئة من البنائين تؤيده فهو في البناء طائر غريب.

ثم يعرفه بعد ذلك عارفوه.

يعرفه عارفوه فيلسوفاً رياضياً تقول عنه دائرة المعارف البريطانية: «إن لب لباب فلسفة رسل هو منطقهم». ويعرفه مع دائرة المعارف البريطانية فيلسوف مصري كبير هو الدكتور زكي نجيب محمود فيقول عنه: «وإنه لمما يلفت النظر أن فيلسوفنا لم يعرفه الناس بأهم إنتاجه، فالكتب التي سيخلد بها في تاريخ الفلسفة مثل «أصول الرياضة» و«أسس الرياضة» و«علمنا بالعالم الخارجي» و«تحليل المادة» ليست هي الكتب التي أذاعت اسمه وأشاعت شهرته، بل الذي فعل ذلك هو ما كتبه في الاجتماع والسياسة والتربية...»^(١).

وهكذا تتراءى صورة هذا الرجل المشهور غامضة ناقصة جزئية، على الرغم من استفادة شهرته في كل مكان استفادة كانت لها روافد عدة، من شهرة الاسم وشهرة الأسرة وشهرة الرجل في حياته وأعماله.

ومع هذا، وبعد كل هذا، يبقى في صورة هذا الرجل جانب مجهول، بل لعلها جوانب مجهولة لا جانب واحد وحسب، ذلك هو الذي قصدت أن أظهره بترجمة هذا الكتاب وهو «رسل الأديب».

رسل الأديب هذا بين الكُتَّاب الإنجليز ذو أسلوب لا ينافسه ولا يقترب من

(١) زكي نجيب محمود: برتراند رسل - العدد الثاني من سلسلة نوايغ الغرب - دار المعارف ص ١١.

طلاوته أحد، حتى من المتفرغين للأسلوب وبلاغة التعبير. تقرأ من تقرأ من الكتاب والشعراء والقصاصين، فلا تجد واحدًا يبلغ من الأسلوب ما يبلغه رسل غير المتفرغ للبلاغة والأسلوب.

ولقد حاولت أن أستكنه السبب في روعة هذا الأسلوب، وظننت البحث فيه يستحق عناء؛ لأنه لا شك موصلني إلى معرفة الصنعة التي يسميها النقاد «بالسهل الممتنع». وتراءى لي أن السبب في جمال أسلوبه هو عمق المأتى مع سهولة الأداء، فما من موضوع تعرض له إلا كان فيه على أعماق ما يمكن العمق وأكمل ما تكون الإحاطة، حتى إذا أخذ في الكتابة كان استيعابه للموضوع استيعاب الهضم والتمثيل الكامل، ولعل ما ذكره في فصل «كيف أكتب» من هذا الكتاب أن يحمل إلينا أبلغ توضيح لهذا السبب في الأسلوب المشرق.

ولا يعني هذا أن ذلك وحده كافٍ لإشراق الأسلوب، بل هناك أسباب أخرى، منها سجية النفس التي جبلت على الصراحة، ومنها قوة العقل وحب الآخرين والكرم وعدم الشح، ذلك أن هذه السجاياء تجعل الكاتب جوادًا وعكسها يجعله ضنينًا، ومن ضنَّ بما له، خليق أن يظن بعلمه، ومن صعبت نفسه وتوعرت سجيته، كان خليقًا أن تصعب عبارته. أما رسل فقد تكاملت فيه الطبيعة الواضحة والعلم الواضح، فجاء أسلوبه واضحًا مشرقًا لا تعقيد فيه.

وأدب رسل ليس في الأسلوب وحده، بل في مشاركته في فنون الآداب المختلفة. فقد كتب الشعر والقصة، كما كتب البادرة والنادرة والفكاهة، وقائمة مؤلفاته تحتوي على «شيطان الضواحي» و«الكوابيس»^(١) ونحوهما. إلا أنه في هذا الكتاب ناقد ومقوم شخصيات أدبية، فلا أعرف فيمن قرأت لهم من فصول النقد الشامل

(١) قمت بترجمة الكوابيس من نحو عشرين سنة مضت ولم أجد لها ناشرًا حتى اليوم فظلت حبيسة الإغلاق.

لشخصيات الأدب - وكثير ما هم - من يتفوق عليه تفوقاً واضحاً، وأن في مقالاته عن أدباء عصره وعلمائهم لبلاغاً ودليلاً. وما أحب أن أمضي في التحليل فأنقص جمال ما كتب، ولكن بحسبي أن أقول إن من عرف برنارد شو معرفة القراءة والاطلاع على كل ما كتب وما كتب عنه ليستفيد جديداً من هذا الفصل الصغير الذي كتبه رسل عنه، فإن له أستاذية الرسام الذي يرسم الشخص المفرغة (السلويت Silhouette) خط هنا وآخر هناك، فإذا الملامح كاملة تتحدث أجلى حديث، وإن لم تكن هناك تفصيلات الصور الكاملة، الصامتة على كمالها عن كل كلام. وهو بهذا يضع نفسه قرين «بلوتارك» وإن كان بأسلوب آخر جديد.

ووجه ثالث لهذا الأديب هو سعة الاطلاع، ولا أقصد بالسعة الإحاطة، فهذا واجب مفروغ منه، بل أقصد اتساع ميادين الاطلاع وتنوع الموضوعات، وفي هذا الكتاب شاهد على اطلاع رسل اطلع المتخصصين في علوم الطبيعة والفلك والرياضة وفي علوم التاريخ والأدب والنقد، وفي علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع، وفي علوم اللاهوت والأديان.

على أن هذا الاتساع العريض لا يعد ثقافة بحق لمجرد عناية العالم به، فإني أعلم عن رجل واسع الاطلاع مثل هذه السعة، ولكنه كأرفف مكتبة واسعة عامرة بالكتب والمجلدات، متى تركت رف العلوم الطبيعية إلى رف النقد والأدب، فقد تركته، ولن تتداخل الثقافات والقراءات، ولن تتكامل فيما بينها مكونة ثقافة رجل متكامل.

ولكن رسل لم يكن كذلك، بل كان يقرأ فيستفيد من الشعر في الرياضة، ومن الفلك في تقويم الأشخاص والشخصيات.

ولقد مكنه الله من كل هذا بما مد في عمره المديد الذي عاشه حياً طويلاً وعرضاً وعمقاً، ولا نعرف أنه مرض في أثنائه مرضاً مقعداً، كما حفظ له الله نعمة البصر ونشاط

البدن فتمكن مما لا يتمكن منه إلا الأقلون. غير أن ميزة من مميزاته لا بد من النص عليها، يبدو أنها سبب متاعبه جميعاً وإن كانت من مميزاته الكبرى، هي أنه «مفكر سابق لأوانه». فكان سابقاً لأوانه حين عارض في سياسة الوفاق لأنها ستؤدي إلى الحرب العالمية، فأغضب ببعد نظره طائفة ولم يكسب صداقة معارضيهم؛ فلما انتهت الحرب أغضب اليساريين برأيه المتوازن في الشيوعيين، وهكذا أغضب الاستعماريين والوطنيين واليساريين في وقت واحد، على الرغم من أن كل فرقة أغضبها يوماً ما قد عادت فأمنت برأيه بعد ذلك، وهكذا استفادوا من حسن رأيه وظلموه، لا شيء إلا لأنه كان بصيراً وكانوا عمياً. وما أبلغ ما صور به هذه العزلة؛ إذ يقول: «وجاءت نهاية الحرب سريعة ومسرحية... وفي ظرف دقيقتين اثنتين كان كل الناس قد بارحوا دكاكينهم ومكاتبهم إلى الطريق وراحوا يوجهون الحافلات إلى حيث يهوون. وقد رأيت رجلاً وامرأة غربيين أحدهما عن الآخر تمامًا يتلاقيان في وسط الطريق ويقبل أحدهما الآخر وهما يعبران الطريق. لقد فرح الجمهور، وفرحت أنا أيضاً، غير أنني كنت لا أزال معزولاً عن الجميع». وسبب عزلته أنه وعظ الناس منذ البداية بألا يحاربوا فجفوه، فلما عضتهم الحرب ابتهجوا بانتهاؤها كما ابتهج، ولكنهم لا يزالون جافيه.

هذا مثل لسبقه لأوانه، وفي الكتاب أمثلة أخرى ستتكشف للقارئ، وعسى أن يأتي يوم يعرفه فيه الناس ويتبعونه، أو يعرفونه، ولو لم يتبعوه، فبحسبنا ما كتبنا عنه أديباً وناقداً، ولمن شاء المزيد أن يلتمسه حيث يوجد المزيد.



ثانيًا: الكتاب:

تعرفت على هذا الكتاب أول ما تعرفت في الخرطوم في سنة ١٩٥٧، واقتنيته لمعرفتي بالمؤلف لا بالموضوع. فلما احتقت الكتاب إلى منزلي استغرقتني قراءته حتى كأني ثمل لا أفيق. وأظن مرجع هذا الاستغراق الأستاذية الرائعة التي كتب بها، ولن أعيد القول فيها، ولكن بحسبي أن أقول كلمة في موضوعات الكتاب:

أجرى رسل كتابه على تلخيص بعض السير ومنها سيرته الذاتية وسيرة جده الذي كفله. وأظن أن اختياره لمن كتب عنهم كان لرابطة شخصية أو أخرى، فلم يكتب عن مل إلا لأنه صديق جده وأبيه، ومن هنا لم يكتب عن دارون وهكسلي وكارليل.

فلما انتهى من السير ألم بشيء من الفلسفة، ولا سيما الفلسفة في المسائل الشعبية العامة التي تهتم غير المتخصصين، ثم انطلق منها ينفذ نصيحته للآخرين «كيف يشيخون»، وراح يهتم بالمسائل العامة إلى أن يلقي نهر حياته صحراء أو مصبه في محيط الحياة الكبير.

ولربما اختلف الواحد منا مع المؤلف في بعض معتقده، ولكن الذي لا خلاف عليه هو إخلاصه التام، فما من كلمة قالها إلا وهو مؤمن بها، ولربما اختلف الواحد منا معه أيضًا على كيفية تحقيق الأهداف التي نوافقه عليها، كخطواته نحو السلام، ولكننا لا شك خليقون أن نستفيد منها الاتجاه، ولربما استفدنا بعض الخطوات على الطريق.

أما عن فلسفته في العقل والمادة فهي على عمقها واضحة، وهي على طبيعتها الوعرة قد خضعت لقوة التبسيط لهذا الكاتب القدير، وأراني على درجة كبيرة من الاتفاق معه في هذا الرأي؛ إذ يقتصر الخلاف بيننا على النتائج الأخيرة دون المقدمات، حيث أؤمن بديني ولا يؤمن هو بأي دين^(١).

(١) بسطت رأيي في عدم لزوم الثنائية بين العقل والمادة، ولا الثنائية بين الحق والواجب، ولا الثنائية بين التدين والإقبال على الحياة في كتاب «الحتم والحرية في القانون العلمي» وفي بضع مقالات نشرت سنة ١٩٥٦.

على كل حال إن جو التشاؤم القائم الذي يرين على القرن العشرين بظلماته، لترك لنا بصيصًا من الضوء، ينطلق من جانب الفلسفة والطبيعات، أو قل من جانب علم الروحانيات وعلم الماديات، فقد تقارب العلمان والعلمان بعد تدابر وقطيعه، حتى صار الإيمان رفيق العلم بعد أن كان الإلحاد صديقه، وحتى تقاربت المادة والروح تقاربًا جعل المادة حسية روحانية، وقضى على ذلك التناقض القديم، فعسى أن تكون الغلبة في الجولة القادمة لأورمزد -روح النور- على أهرمان روح الشر والظلام، وللإنسانية الملائكية على إنسانية الشيطان وحزب الشيطان، وللسلم والسلام على الفتك والتدمير، وعسى أن يتذكر الإنسان حين يحل به هذا النعيم، رجلًا ضئيلاً في جسمه، كبيراً فيما عدا الجسم، كان صوتاً من أول الأصوات الصارخة في البرية لمن كانت له أذنان، يدعوهم إلى سلم الحياة، خير لهم من سلم الممات.

* * *

ثالثاً: الترجمة:

بدت لي ترجمة هذا الكتاب حين علمت أنه لم يرد لمصر؛ نظراً لصدوره في سنة ١٩٥٧ بعد العدوان على مدن القنال. وشرعت في الترجمة فوراً، ولكن داهمني المرض حتى جعلني أسابقه بالترجمة لا أدري أسبقه أم يسبقني؟ فجاءت عزيزة على نفسي لأسباب متعددة.

ولكم سرني أن أسمع المدح المستطاب عليها من رجال رأيهم لا يقوم بثنى، يكفي أن أذكر منهم الأستاذ عباس محمود العقاد، والدكتور زكي نجيب محمود، والدكتور محمد عوض محمد، والأستاذ عبد الرحمن صدقي، والأستاذ محمود شاكر، والأستاذ علي أدهم الذي كتب مقالاً رائعاً مدح فيه الكتاب والترجمة عند ظهورها.

لهذا كنت على أمل كبير أن تظهر الترجمة بالكيفية التي تناسب هذا المديح.

لولا...

لولا أنني اضطررت لبقائي بأسوان بسبب المرض -أن أعهد لأحد تلاميذي أن يشرف على كتابة النص المترجم على آلة الكتابة، ولولا أنني تركت أمر تصحيح «تجارب» المطبعة لمن تكلفه بهذا التصحيح.

فلما ظهرت الترجمة في طبعتها الأولى، فاجأتني مفاجأة من يُولد له ابنه البكر مشوهاً؛ لما حفلت به من الأخطاء. فقد جمعت كل ما في الدنيا من الأخطاء: أخطاء كاتب الآلة الكاتبة، وأخطاء المطبعة، وأخطاء المصحح... إلى جانب أخطائي التي لا أبرئ نفسي منها على كل حال.

فمن أخطائي استعمال كاف التشبيه ترجمة لكلمة «as»، واستعمال كلمة «طالما» في مكان «ما دام». ولكنها أخطاء لا تقارن بالطوام الكبرى التي أسوق مثلاً عليها ما يلي:

١ - يقول رسل: «للناس أن يكونوا أحرارًا فيما يعينهم وحدهم، ولكن ليس لهم أن يكونوا أحرارًا فيما قد يعن لهم من الفتنة على الآخرين».

وتقول الطبعة الأولى على لسانه: «للناس أن يكونوا أحرارًا في الفتنة على الآخرين».

٢ - أعجب العجب لم يكن في إسقاط نصوص بأكملها، بل في إسقاط فصل بأكمله وضمه إلى الفصل السابق عليه، وأعني به فصل «الخطر على الإنسان».

وهذا هو السبب الذي من أجله رُضيت مقهورًا بآلا أقدم بترجمتي لنيل أي جائزة من جوائز الترجمة، وهي التي حظيت في مخطوطتها بأطيب الثناء من أحق من يملك الثناء.

وعسى أن تكون هذه الطبعة الثانية كفارة عن الإثم الذي ظهر في الطبعة الأولى.

أحمد إبراهيم الشريف

٤ / ٤ / ١٣٩٥ هـ - ١٦ / ٤ / ١٩٧٥ م

خلاصة حياتي

من الصعب على الذين هم أصغر من أن يتذكروا العالم كما كان قبل سنة ١٩١٤، أن يتصوروا الفارق الواسع الذي يحسه رجل في مثل سني بين ذكريات الطفولة ووقائع الحاضر. فإنني أحاول الآن أن أعود نفسي - بنجاح غير متحمس - على عالم من الإمبراطوريات المتداعية، ومن الشيوعية، ومن القنابل الذرية، ومن تقرير الذات الآسيوي، ومن سقوط العلية (الأرستقراطية). ففي عالم غير مطمئن كهذا العالم حيث لا يضمن الإنسان بقاءه حيًّا في غده، وحيث تتلاشى الدول العريقة كما يتلاشى ضباب الصباح، لا يكون من السهل على أولئك الذين ألفوا في شبابهم صلابة الماضي أن يصدقوا أن ما يمرون به الآن هو الواقع الحق وليس كابوسًا إلى زوال؛ إذ ما أقل ما بقي من المواضعات وطرق الحياة التي كانت تحسب في أيام طفولتي في مثل صلابة الجرانيت.

لقد نشأت في بيئة مثقلة بالتقاليد؛ مات والداي قبل أن يعلقا بذاكرتي، فنشأت في رعاية جدي وجدتي. فأما جدي فقد وُلد في باكورة أيام الثورة الفرنسية ودخل البرلمان ونابليون لم يزل إمبراطورًا. ولما كان من حزب الهويج (الأحرار) من أتباع فوكس^(١)، فقد نظر إلى عداوة الإنجليز للثورة الفرنسية ولنابليون كأنها متطرفة، وقد زار الإمبراطور المنفي في ألبا^(٢). وهو الذي قدم «قانون الإصلاح» في سنة ١٨٣٢،

(١) تشارلز جيمس فوكس (١٧٤٩ - ١٨٠٦): شريك بيرك في معارضة الملك والسياسة البريطانية التي أدت إلى استقلال الولايات المتحدة.

(٢) ألبا: جزيرة صغيرة تجاه ساحل إيطاليا الغربي، نُفي إليها نابليون بعد أول هزيمة له، ثم عاد منها إلى فرنسا مرة أخرى، وحكم حكومة المائة اليوم إلى هزيمته في ووترلو ونفيه إلى سانتا هيلينا سنة ١٨١٥.

ذلك القانون الذي دفع إنجلترا في طريق الديمقراطية. وتولى الوزارة في أثناء الحرب المكسيكية وفي أثناء ثورات سنة ١٨٤٧، وكان كسائر أسرة رسل قد ورث تلك السمة العجيبة من الأرستقراطية المتحررة التي اتسمت بها ثورة ١٦٨٨ والتي لعب فيها جده دوراً مهماً.

وقد لقت نوعاً من النزعة الجمهورية النظرية التي تقبل أن تحتل «ملكاً»، ما دام يرى هذا الملك نفسه خادماً للشعب وخاضعاً للفصل من منصبه إذا لم يكن مرضياً عنه عند سيده. ولكم شرح جدي، بما عهد فيه من عدم احترام للأشخاص، هذه النظرة للملكة فيكتوريا التي لم تكن تعطف كثيراً على هذا الرأي بطبيعة الحال، إلا أنها على الرغم من ذلك أهدت إليه منزله في ريتشموند بارك، الذي قضيت فيه أيام شبابي، وتشربت مبادئ وآمالاً سياسية معينة، ولقد احتفظت بالمبادئ في جملتها وإن اضطرت إلى التخلي عن الآمال اضطراراً، فقد كان من المأمول أن يحدث تقدم منتظم في العالم أجمع، يمنع حدوث الثورات ويتدرج في وقف الحروب، ويتوسع في إحلال الحكومة النيابية في كل المناطق التي لم تحظ حتى ذلك الحين بهذا النوع من الحكم. وكثيراً ما كانت تضحك جدتي لمحادثة جرت بينها وبين السفير الروسي؛ إذ قالت له: «لا يبعد أن يأتي اليوم الذي ينشأ فيه برلمان في روسيا» فرد عليها السفير: «لا قدر الله يا عزيزتي اللادي جون». وليس بعيداً أن يصدر مثل هذا عن السفير الروسي الحاضر إذا استبدلنا بلفظ الجلالة كلمة غيرها. إن آمال تلك الحقبة تبدو اليوم ساذجة مستحيلة، فقد كان مقدراً أن تكون هناك ديموقراطية، ولكن كان المفروض أن الناس سيكونون دائماً على استعداد لاتباع نصيحة العلية الحكيمة المجربة. وكان مقدراً أيضاً أن يختفي الاستعمار ولكن الأجناس الخاضعة له في آسيا وأفريقيا، ممن ستطوع إنجلترا بالكف عن حكمهم، سيكونون قد تعلموا فوائد الهيئة التشريعية ذات المجلسين التي تتكون من الهويجز (الأحرار) والتوري (المحافظين) على أعداد متقاربة، فيعيدون في تلك

المناطق تمثيل المبارزات البرلمانية بين دزرائيلي^(١) وجلادستون^(٢) التي كانت في أوج لمعانها في تلك الفترة التي تشربت فيها ميولي السياسية الرئيسة. ولم يطرأ على بال أي إنسان أن ثمة خطراً على قوة بريطانيا، فقد كانت بريطانيا سيدة البحار وهذا كل ما هناك. نعم كان هناك بسمارك^(٣) الذي لقنت أن أنظر إليه في صورة الوغد، ولكن المظنون أن تأثير جوته^(٤) وشيللر^(٥) الحضاري سيعصم الألمان من الانقياد إلى الأبد في طريق خاطئ وراء هذا الفلاح الهمجي. كذلك لا نكران لحدوث العنف في الماضي غير البعيد، فقد ارتكب الفرنسيون في ثورتهم سخافات لا يملك الإنسان إلا أن يأسف لها، ولكن لا يصح أن ننسى أن الرجعيين من جانبهم قد بالغوا في تضخيمها، وأنها ما كانت لتحدث قط لولا عدااء أوروبا السماح للآراء التقدمية في فرنسا. بل ربما أمكننا أن نعترف بأن كرومويل^(٦) قد جاوز حده حين قطع رأس الملك، غير أن أي شيء على العموم يوجه ضد الملك يستحق التأييد - إلا أن يكون فاعله من رجال الدين مثل بيكيت^(٧)، فعندئذ ننحاز إلى صف الملك.

وكان الجو العام في المنزل جواً من التقوى والتقشف المتمزمت (البيوريتاني).

(١) دزرائيلي هو بنيامين دزرائيلي إيرل أوف بيكونزفيلد (١٨٠٤ - ١٨٨١): رئيس حزب المحافظين ورئيس الوزارة البريطانية أكثر من مرة، وُلد يهودياً واعتنق المسيحية واشترى أسهم الخديو إسماعيل في قناة السويس بمساعدة بنك روتشيلد اليهودي أيضاً.

(٢) وليم إيوارت جلادستون (١٨٠٩ - ١٨٩٨): غريم دزرائيلي ورئيس الوزارة البريطانية وحزب الأحرار، وهو الذي احتلت جيوشه مصر ١٨٨٢.

(٣) البرنس أوتو فون بسمارك (١٨١٥ - ١٨٩٨): رئيس وزراء بروسيا الذي حقق الوحدة الألمانية بعد الحرب السبعينية المشهورة ضد فرنسا.

(٤) جوهان ولفجانج فون جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢): أكبر شعراء الألمان ومؤلف فاوست.

(٥) جوهان كريستوف فردريك فون شيللر (١٧٥٩ - ١٨٠٥): من أكبر الشعراء الألمان.

(٦) أوليفر كرومويل (١٥٩٩ - ١٦٥٨): قائد جيش البرلمان ضد الملك شارل الأول في الحرب الأهلية التي انتهت بهزيمة الملك وقطع رأسه بالفأس وبداية حكم البرلمان.

(٧) توماس بيكيت (١١١٩ - ١١٧٠): رئيس أساقفة كتربري، ومستشار إنجلترا في عهد الملك هنري الثاني، وقد اشتهر بعدائه للملك في صالح الكنيسة.

فكانت تعقد الصلاة العائلية كل يوم في الساعة الثامنة صباحًا، وكان الطعام في بساطة الطعام الإسبرطي على الرغم من وجود ثمانية من الخدم في المنزل، وحتى هذا البسيط القليل كان إذا حسن شيئًا ما يستكثر على الصبية، فمثلاً لم يكن يسمح لي، إذا كان على المائدة فطيرة من التفاح وفالودج من الأرز، أن أجمع بينهما، بل يجب أن أكتفي بفالودج الأرز. وكان الحمام البارد على مدار السنة موضع إصرارهم، كما كان عليّ أن أتدرب على عزف البيانو من السابعة والنصف حتى الثامنة كل صباح مع أن المدافئ لم تكن تشعل عندئذ. ولم تكن جدتي تسمح لنفسها بالجلوس في كرسي مريح (فوتيه) حتى المساء. وكان ينظر إلى الكحول والتبغ بغير ارتياح وإن كانت التقاليد الصارمة تحتم عليهم أن يقدموا بعض النبيذ لضيوفهم، فلا قيمة إلا للفضيلة وحدها على حساب العقل والصحة والسعادة وكل خير دنيوي.

ولقد ثرت على هذا الجو أول ما ثرت باسم العقل. لقد كنت وحيداً خجولاً نافرًا فلم أجرب متع الطفولة الاجتماعية، ولم أفتقدها، ولكني كنت أعشق الرياضيات، بينما هي عندهم متهمة لأنها غير ذات مضمون أخلاقي. ثم أخذت في معارضة الآراء اللاهوتية التي تعتنقها أسرتي، فلما شبت أخذت أزداد شغفًا بالفلسفة التي كانوا يلوون عنها كشحًا، وكانوا لا يسأمون كلما أثير موضوعها أن يرددوا قولهم «ما العقل؟ لا عبرة. ما المادة؟ لا تبال»^(١) لا جرم أنني لم أعد أسرُّ لهذه الجملة بعد تكرارها خمسين أو ستين مرة على مسمعي.

فلما التحقت بجامعة كمبريدج في سن الثامنة عشرة، وجدت نفسي فجأة وبشكل مثير بين قوم يتكلمون نوعًا من اللغة طبيعيًا في مسمعي، فكانوا إذا قلت شيئًا أعتقد

(١) جمال هذا التعبير بالإنجليزية: What is mind? No matter; What is matter? Never mind

مما لا يمكن نقله إلى العربية؛ لما فيه من صنعة لفظية وبديع بلاغي خاص باللغة الإنجليزية.

حقاً لا يحملقون فيّ كأني مجنون ولا ينصرفون عني كأني مجرم. لقد قسرت على العيش في جو مريض شاعت فيه مبادئ أخلاقية غير سليمة شيعاً يشل الذكاء؛ فلما وجدت نفسي في عالم يقدر الذكاء ويظن بالتفكير الواضح ظناً حسناً شعرت بنشوة السرور. لقد قيل إن من لم يتعلم تعليماً نظامياً يجد صعوبة في التكيف مع العالم، أما أنا فلم أجرب هذا؛ إذ قد ناسبتني بيئة كمبريدج كمناصفة القفاز للكف، وكونت في أول فصل دراسي أصدقاء الحياة ولم أعد أضطر لاحتمال الوحشة التي لا تكاد تحتل والتي احتملتها في أيام المراهقة. وقد خصصت السنوات الثلاث الأولى من دراستي بالجامعة للرياضيات، وخصصت السنة الرابعة للفلسفة. نعم أصبحت الآن لا أحسن الظن بما درست من الفلسفة حيثُذ، ولكن دراستها كانت متعة فتحت عيني على مشكلات جديدة مغرية أملت في أن أقدر على حلّها، وكان أشد ما جذبني من المشكلات تلك التي تتعلق بأسس الرياضيات، فقد كنت أحب أن أعتقد أن بعض المعرفة يقيني، وظننت أن الأمل الأكبر في العثور على معرفة يقينية يكمن في الرياضيات. ولكن كان من الواضح عندي أن براهين القضايا الرياضية التي علمنيها أساتذتي خاطئة، وأملت في العثور على براهين أحسن منها، وقد بينت دراستي بعد ذلك أن جزءاً من آمالي كان له ما يبرره، ولكن الأمر احتاج إلى ما يقرب من عشرين عاماً لكي أجد التبرير الكامل لتلك الآمال، وحتى هذا التبرير قد وقف دون آمال الشباب بشوط بعيد.

فلما انتهيت من دراستي في كمبريدج، كان عليّ أن أقرر هل أهب حياتي للفلسفة أو أهبها للسياسة، فأما السياسة فقد كانت مشغلة أسرتني منذ القرن السادس عشر، ولهذا كان التفكير في أي شيء غيرها يتراءى في ثوب الخيانة لأجدادي، وكان قد بذل كل ما من شأنه أن يريني سهولة الطريق أمامي إن أنا اخترت السياسة، فعرض

عليّ جون مورلي^(١) الذي كان وزيرًا للشؤون الإيرلندية، منصبًا عنده، كما أسند إليّ اللورد دوفرين^(٢) السفير البريطاني في باريس حينذاك، عملاً في سفارتنا هناك، واستعملت أسرتي كل أنواع الضغط التي تملكها عليّ، ولقد ترددت حيناً، ولكنني وجدت آخر الأمر أن إغراء الفلسفة لا يقاوم. فكان هذا أول موافقي في الصراع، وقد وجدته مؤلماً. ومنذ ذلك الحين وأنا أدخل من صراع في صراع حتى ظن البعض أن هذا يحلولي، إلا أنني كنت أود أن أعيش في سلام مع الجميع، ولكن معتقداتي العميقة قد ظلت تفرض عليّ الفرقة والخلاف المرة تلو المرة، حتى حينما لا أشعر نحوها بأي ميل. وعلى كل حال، جرى كل شيء بعد أن استقر عزمي على الفلسفة سهلاً ناعماً فترة طويلة، فعشت على الأعم الأغلب في جو جامعي (أكاديمي) حيث لا يُنظر إلى الفلسفة كأنها سخافة حمقاء.

حتى كانت سنة ١٩١٤، ذلك أنه حينما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى آمنت أنها حماقة وجريمة تقع مسؤوليتها على كل الدول المشتركة فيها من كلا الجانبين، وتمنيت أن تظل إنجلترا على الحياد، فلمّا لم تفعل، أخذت في الاحتجاج فوجدت نفسي معزولاً عن غالبية أصدقائي القدامى، وكان أوقع من هذا على نفسي شعوري بالغربة والبعد عن مجرى الحياة الوطنية، فكان لزاماً عليّ أن أرتد إلى ينابيع من القوة ما أقل ما كنت أعهداها في نفسي، ولكن شيئاً ما، شيئاً لو كنت مؤمناً لسميته صوت الله، كان يستحثني على المضي. لم أكن أعتقد حينئذٍ ولا بعدئذٍ أن جميع الحروب شرور، ولكن تلك الحرب، وليست جميع الحروب هي التي استنكرتها. إن الحرب العالمية الثانية كانت في نظري ضرورية؛ لا لأني غيرت رأبي في الحرب، ولكن لأن

(١) الفيكونت جون مورلي (١٨٣٨ - ١٩٢٣): سياسي من حزب الأحرار تولى تحرير البول مول جازيت، وفي سنة ١٨٨٦ تولى وزارة الشؤون الإيرلندية حيث كان من أنصار الحكم الذاتي.

(٢) فردريك تمبل لورد دوفرين (١٨٢٦ - ١٩٠٢): دبلوماسي بريطاني تولى منصب المندوب السامي لدى الباب العالي، وانتدب إلى مصر سنة ١٨٨٢ لينظم الاحتلال البريطاني لها، كما تولى سفارة بريطانيا في بطرسبرج وروما وباريس.

الظروف والملابسات كانت مختلفة، فالحقيقة أن كل ما جعل الحرب العالمية الثانية ضرورية هو نتيجة للحرب الأولى، فإننا ندين للحرب الأولى وما تلاها بالشيوعية الروسية والفاشية الإيطالية والنازية الألمانية، وندين لها بخلقها عالمًا مظلمًا غير مستقر، يحمل في طياته كل ما يدعونا للخوف من أن الحرب العالمية الثانية قد لا تكون الأخيرة، عالمًا فيه الفزع الأكبر الناجم عن روسيا الشيوعية الذي يجب صرعه، عالمًا نزلت فيه ألمانيا وفرنسا وما كان يُسمَّى في الغابر بالإمبراطورية النمساوية الهنجرية إلى مستوى أدنى من المدنية، عالمًا فيه كل نذير بالفوضى والظلام في آسيا وأفريقيا، عالمًا فيه نذير الدمار الشامل يلقي في الروع الرعب والفزع كل ساعة وكل يوم. كل هذه الشرور قد نجمت من الحرب العالمية الأولى كما تتجم الأحداث في المأساة الإغريقية بغير محيص. فلننظر من وجهة نظر عكسية، ماذا كان يمكن أن يكون لو حافظت بريطانيا على الحياد في الحرب؟ لقد كانت تقصر مدة الحرب، ولقد كانت تنتصر فيها ألمانيا، ولما كانت شدت أمريكا إليها، ولظلت إنجلترا قوية وغنية، ولما وقعت ألمانيا فريسة النازية، ولربما ثارت روسيا ولكنها ما كانت لتكون ثورة شيوعية؛ إذ ما كانت فترة حرب قصيرة لتضعضها وتهبط بها إلى تلك الحالة من الفوضى الجائحة التي شملتها في سنة ١٩١٧. إن ألمانيا القيصرية وإن صوّرتها دعايتنا الحربية في صورة الافتئات والتعدي، لم تكن في الواقع إلا دولة تتفاخر بعسكريتها بشكل لا يخلو من السخف إلى حد ما، فلقد عشت في ألمانيا القيصرية وأعلم أن القوى المتحررة فيها كانت على جانب كبير من القوة وكان لهم كل الأمل في النجاح الأخير، بل إن الحرية في ألمانيا كانت آنئذٍ أكبر من الحرية في أي بلد غير إنجلترا والبلاد الإسكندنافية في الوقت الحاضر. كم كان يقال لنا في ذلك الحين إنها حرب في سبيل الحرية الديمقراطية وضد العسكرية والطغيان، ولكن نتيجة تلك الحرب كانت نقصان الحرية وازدياد الروح العسكرية، أما عن الديمقراطية فإن مستقبلها لا يزال موضع الشك. ولا أظن أن العالم كان سيصل إلى مثل حالته السيئة الحاضرة لو أن إنجلترا لزمت الحياد وأتاحت بذلك لألمانيا النصر السريع.

وبناءً على هذه الحجج، لم أعتقد أبداً أنني كنت مخطئاً فيما أخذت به نفسي في ذلك الحين. ولا أسفت على محاولتي طوال سني الحرب أن أقنع الناس أن الألمان أقل شراً مما تصورهم الدعاية الرسمية؛ لأن جانباً كبيراً من الشر قد نجم عن قسوة معاهدة فرساي، وهي القسوة التي ما كانت لتحدث لولا الفظاعة المعنوية التي صورت بها ألمانيا في عيون الناس.

أما الحرب العالمية الثانية فكانت شيئاً مختلفاً كل الاختلاف، فقد كانت نتيجة سخافاتنا إلى حد كبير أن أصبح لزاماً أن تصرع ألمانيا النازية إذا قدر للحياة الإنسانية أن تظل محتملة، وإنه لمما يُخشى حقاً أن تكون الحرب مع روسيا، إذا هي حاولت التسلط على العالم، ضرورة كتلك الحرب. إلا أن كل هذه السلسلة المرعبة هي حاصل أخطاء سنة ١٩١٥، وما كانت لتحدث لو أننا تجنبنا تلك الأخطاء.

لم تكن نهاية الحرب العالمية الأولى نهاية لعزليتي، بل لقد كانت على العكس بداية عزلة أتم وأشمل (إلا من قلة من الأصدقاء الحميمين) نجمت عن امتناعي عن الترحيب بالحكومة الثورية في روسيا. فحينما اندلعت الثورة رحبت بها كما رحب بها كل إنسان بما في ذلك السفارة البريطانية في بتروجراد^(١) (كما كانت تُسمى آنئذ). فقد كان من الصعب على البعد أن أتابع الأحداث المضطربة التي حدثت في سنة ١٩١٨ وسنة ١٩١٩، ولم أكن أعرف ماذا أظن بالبلشفيين. ولكنني زرت روسيا في سنة ١٩٢٠، وتحادثت طويلاً مع لينين^(٢) وبعض الرجال البارزين، ورأيت ما استطعت أن أرى من مجرى الأحداث، فانتهيت إلى أن كل ما عمل وكل ما يتتوي عمله كان نقيض ما يتمناه رجل ذو نظرة حرة إلى الحياة. وآمنت بأن العهد كان مكروهاً وأنه سيظل يزداد كراهية، واكتشفت أن مرد الشرور كلها إلى ازدياد الحرية

(١) هي لنتجراد اليوم.

(٢) فلاديمير إليتش أوليانوف لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤): مؤسس الدولة الشيوعية البلشفية في روسيا سنة ١٩١٧ وأول رئيس لها.

والديموقراطية نتيجة مباشرة للتعصب الأعمى. لقد كان الراديكاليون في تلك الأيام يقولون بوجوب مساندة الثورة الروسية مهما يكن فعلها؛ لأن الذين يعادونها هم الرجعيون وكل دعاية ضد الثورة عون للرجعية، ولقد شعرت بقوة هذه الحجة وشعرت بالشك بعض الوقت فيما يجب عليّ فعله، ولكنني عازمت في آخر الأمر أن أتخذ جانب الحق كما بدا لي، فأعلنت أنني أعتقد أن الحكم البلشفي ملعون، ولم يطرأ بعدها ما يدعوني لتغيير رأيي، وهكذا خالفت تقريباً جميع أصدقائي الذين صادقتهم منذ سنة ١٩١٤. لقد كرهتني غالبية الناس لأنني عارضت الحرب، أما الأقلية التي لم تكرهني لهذا السبب، فقد دابرني لعدم امتداحي للبلشفيين.

كانت زيارتي لروسيا في ١٩٢٠ نقطة تحول في حياتي، ففي أثناء إقامتي هناك شعرت بالفجعة تتفاقم وتزداد حتى أوشكت أن تكون حصرًا لا طاقة لي به، فقد تبدى لي البلد سجنًا كبيرًا، سجانوه شرذمة من المتعصبين القساة، فلما تبين لي أن أصدقائي يهللون لهؤلاء الرجال على زعم أنهم محررو بلادهم وينظرون إلى الحكم الذي أنشأوه كأنه الفردوس، عجبت في ثورة وحيرة أي الفريقين، أصدقائي أو أنا، هو المجنون، إلا أن عادة الأخذ برأيي دون آراء الآخرين كانت قد قويت جدًا في نفسي في خلال سني الحرب. وتبدّى لي بوضوح أن حركة التطور التاريخي تدفع كل حمية ثورية إلى التسلط^(١) كما حدث في الثورة الفرنسية، فلما استقر رأيي على إعلان ما أعتقده في شأن البلشفيين، نبذني أصدقائي السياسيون القدامى، وفي جملتهم أولئك الذين ارتدوا إلى رأيي بعد ذلك، على زعم أنني صنيعة «البرجوازية»، ومع ذلك لم يلتفت الرجعيون لما أعلنت، وظلوا يصفونني في كتاباتهم بأنني «خنزير بلشفي جبان»، وهكذا نجحت في الحصول على أسوأ ما عند الجانبيين.

(١) التسلط في مقابل كلمة imperialism التي تترجم عادة «بالاستعمار»، وهو خطأ واضح؛ لأن الكلمة مأخوذة من Imperative أي فعل الأمر، بينما الاستعمار تقابل كلمة Colonialism.

وكان يمكن أن يكون هذا أقسى على النفس لولا أن أتاحت لي الفرصة في ذلك الوقت كي أزور الصين حيث أمضيت سنة كاملة في سعادة كبيرة بعيداً عن غليان أوروبا ومنازعاتها وأصبح ما يعترضني من المنازعات والخصومات منذئذٍ قليلاً وعلى فترات متباعدة، وأصبح ظاهرياً وأقل إيلاماً من تلك الخصومات المتعلقة بالحرب والبلشفيين.

فلما عدت من الصين في سنة ١٩٢١ استغرقت بضع سنين في الأبوة وما ينشأ عنها من مشكلات التعليم، فلم أكن أرتاح لنظام التعليم المعهود، ولكنني من ناحية أخرى اعتقدت النقص فيما يُسمّى «بالتعليم التقدمي» في معظم مدارس في جانبه التعليمي (أو المعرفي). فلقد بدالي، ولا يزال، أن الإنسان في حضارة معقدة فنيّاً كحضارتنا لا يستطيع أن يقوم بدور مهم إلا إذا تيسر له في شبابه قدر كبير من المعلومات المحضة، فلما لم أجد في ذلك الحين مدرسة واحدة ترضيني حاولت أن أنشئ لنفسني مدرسة خاصة. بيد أن المدرسة مشروع إداري أيضاً، وأنا كما تبين لي، قليل الدراية بالإدارة ولهذا فشلت المدرسة، ولكن شاء الحظ الحسن أن أجد في ذلك الوقت بالذات مدرسة أخرى اكتسبت الامتياز منذ وقت قريب، وقد وضعت كتابين عن التعليم، كما قضيت وقتاً طويلاً في التفكير فيه، إلا أنني، كما هو متوقع طبعاً، كنت متكلماً أحسن مني منفذاً. ولست ممن يعتقدون في الحرية المطلقة للأطفال، بل إنني أؤمن أن الطفل يحتاج إلى نظام ثابت، وإن كان يحسن التحلل من هذا النظام في أيام معينة، وأعتقد أيضاً أن الطفل إذا كان لا بد أن يُهيأ للمعيشة الاجتماعية عندما يرشد، فلا بد أن يتعلم في صغره أنه ليس مركز الكون وليست رغباته دائماً من أهم شيء في كل موقف، وأظن كذلك أن تشجيع الأصالة مع نقص المهارة الفنية الذي تقوم به كثير من المدارس التقدمية خطأ. نعم إن هناك الكثير مما أحبه جداً في التعليم التقدمي وخاصة حرية القول وحرية استطلاع حقائق الحياة والابتعاد عن ذلك النوع السخيف

من الأخلاق الذي يجزع لكلمة نابية أكثر مما يجزع لعمل شنيع، ولكني أظن أن أولئك الذين ثاروا على النظام غير الحكيم قد تطرفوا في نسيانهم أن شيئاً من النظام ضرورة، وهذا يصدق بنوع خاص على تحصيل المعرفة.

لم يكن للسن والتجربة على آرائي ما كان يجب لهما من أثر، ولكني قد تحققت أن الحرية مبدأ له حدود في غاية الأهمية، حدود يصح أن تكون حدود التعليم نموذجاً لها، فإن ما يعمل به الناس تحت ظروف معينة إنما يتوقف إلى حد كبير على عاداتهم، وإن العادة لا تكتسب بغير النظام. إن غالبيتنا يقضون حياتهم دون أن يسرقوا، ولكن قروناً متعددة من النظام البوليسي قد سببت هذا الامتناع الذي يبدو الآن طبيعياً، فإذا لم يتعلم الأطفال شيئاً عن الآداب، فسيتخاطفون طعام بعضهم بعضاً، وبهذا يفوز كبارهم بأحسنه. أما في محيط الشؤون الدولية، فإن العالم لن يعود إلى حالة محتملة باستطالة عهد الفوضى بين الدول، بل بتحكيم القانون الدولي الذي لن تقوم له قائمة ما لم تسنده قوة دولية. وأما في حقل الاقتصاد فإن العقيدة الشائخة، عقيدة الحرية المطلقة - *laissez faire*، لم يعد لها من يعتنقها إلا قليل من الحالمين، وكلما ازداد العالم امتلاء، ازدادت ضرورة التنظيم والتوجيه، وهذا شيء يؤسف له ولا شك؛ لأن عالم الأوديسة جذاب إذ يبحر المرء من جزيرة إلى جزيرة، فيجد على الدوام سيدة جميلة ترحب به، ولكن تحديد الهجرة في الوقت الحاضر يتدخل في هذا النوع من الحياة. لقد كان ذلك حسناً لأوديسيوس، فهو واحد وحسب، ولكن لو أن مائة مليون صيني هبطوا إلى جزيرة كاليسو، فلا بد أن تكون الحياة صعبة شيئاً ما. إن القاعدة العامة بسيطة: للناس أن يكونوا أحراراً فيما يعينهم وحدهم، ولكن ليس لهم أن يكونوا أحراراً فيما قد يعن لهم من الافتئات على الآخرين. بيد أن القاعدة، وإن كانت بسيطة في عمومها، معقدة غاية التعقيد في تنفيذها بالتفصيل، وهكذا تبقى مشكلة تحديد القيود المناسبة على حرية الإنسان قائمة.

وعلى الرغم من اهتمامي بالعالم وأحداثه الكثيرة التي وقعت في حياتي، كنت دائماً أرى نفسي فيلسوفاً مجرداً. وقد حاولت أن أمد نطاق المنهج البرهاني المحكم المأخوذ به في الرياضة والعلوم حتى يشمل مجالات كانت بحكم العرف متروكة للتأمل الغامض؛ إذ إنني أحب الدقة وأوثر الفواصل القاطعة وأكره غموض الضباب. ولأمر ما، لا أدعي أنني أفهمه، اعتقد جانب كبير من الناس بسبب هذه الخاصة فيّ أنني شخص بارد مجرد من العاطفة، فربما كان المفروض عندهم أن من يشعر بعاطفة ما لا بد أن يكون ممن يستسيغون خداع أنفسهم وممن يؤثرون العيش في جنة الأبله. على زعم أنه لا يوجد نوع آخر من الجنان، وهذا رأي لا أستطيع أن أرتاح إليه؛ إذ كلما ازداد شغفي بأمر ما، ازدادت رغبتني في أن أعرفه على حقيقته مهما تكن غير مستساغة ولا مرضية. فلما شغفت أول الأمر بالفلسفة، تمنيت أن أجد فيها شيئاً من الإشباع لرغبتني المخدولة في عقيدة أعتنقها، ولقيت شيئاً من الراحة زمناً ما في مثل أفلاطون^(١) الأزلية، ولكنني تبينت في النهاية أنها كلام فارغ، وفقدت بفقدانها كل أمل في الفلسفة أن تشبع نزعتي إلى الاعتقاد الديني أي إشباع، وبهذا المعنى تكون الفلسفة مخيبة لآمالي، وهي على النقيض من هذا في مجال الجلاء والتوضيح. وما أكثر ما كان عندي من أمور مردها الذوق أو الرجم بالظن وأنا صغير، قد صارت فيما بعد محددة وعلمية، أفرح بها وأظن أن ما قمت به في سبيلها من عمل فلسفي يستحق عناءه.

ولكن في عالم كهذا -الذي كُتب علينا أن نعيش فيه- يصعب جداً أن يركز الإنسان همه على الأمور المجردة وحدها؛ لأن الحياة اليومية تضغط بوقرها على الفيلسوف حتى تحطم له برجه العاجي، وهكذا استغرقني التفكير في مستقبل الإنسانية. لقد

(١) أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م): تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو طاليس، وأعظم فلاسفة الإنسانية تأثيراً على الفلسفة والأخلاق. أهم نظرياته نظرية المثل في الوجود والجمهورية الفاضلة في السياسة والأخلاق، ويعد قطب الفلسفة المثالية.

نشأت في زمن المد العالي من التفاؤل في العصر الفيكتوري، ولئن أصبحت بهجة ذلك الزمن مستحيلة في هذا الزمن، إلا أن شيئاً من الأمل قد بقي لي، وإن لم يكن سهلاً على النفس لأنه يتطلب نوعاً من الصلابة وقدراً من القوة لكي تتخطى اللحظة الحاضرة بالنظر إلى مستقبل أبعد، على أنني ما زلت على يقين من أن الإنسانية، مهما ادلهم الزمن أمامنا، ستنهض من عثارها، وأن عادة التسامح التي يبدو أنها ضاعت وتلاشت ستعود، وأن حكم القوة الغاشمة لن يبقى إلى الأبد. إن على الإنسان أن يتعلم دروساً جديدة تنجم ضرورتها من زيادة المهارة دون زيادة في الحكمة، ولكن المطالب الأخلاقية والمطالب العقلية متداخلة لا تنفصم الواحدة منها عن الأخرى، والمشاعر الشريرة تحول بين الإنسان وبين رؤية الحقيقة، والمعتقدات الزائفة تهيج له المبررات للمشاعر الشريرة. فإن كان للعالم أن ينهض من عثرته، فلا بد من التفكير الواضح والشعور الطيب ولا يبعد ألا يتعلم الإنسان أيهما إلا بفعل الكارثة الكبرى، إلا أنني أرجو ألا يكون ذلك، وأرجو أن يتعلم الإنسان الحكمة بدرس أخف من ذلك إيلاًماً. ولكن كيفما كانت وعورة الطريق، فاعتقادي أن الحكمة الجديدة التي يتطلبها العالم الجديد سيتعلمها الإنسان عاجلاً أو آجلاً، وأن أحسن جانب من تاريخ الإنسان هو الذي سيطلع به مستقبله، وليس الذي طواه ماضيه.



ستة أحاديث عن حياتي

لماذا تعلقت بالفلسفة؟

تختلف الدوافع التي دفعت الناس للتفكير الفلسفي في نوعها، ولكن أجدرها بالاحترام هو الرغبة في فهم العالم، التي كانت الدافع الأول في مطلع الفكر، حينما كانت الفلسفة والعلم لا يتميزان بعضهما عن بعض. وثمة دافع آخر كان له شأن في ابتعاث الفكر في العصور الأولى، هو خداع الحواس وما يوحيه من أسئلة من قبيل: أين قوس قزح؟ وهل حقيقة الأشياء كما تبدو في ضوء الشمس أم في ضوء القمر؟ فإذا صغنا هذه المسائل صياغتها الحديثة قلنا: هل الأشياء في حقيقتها هي ما تبدو للعين المجردة أم هي ما تظهر تحت المجهر؟ مثل هذه المسائل المحيرة قد استوعبتها مسألة كبرى، فإن اليونان حينما بدأوا يشكون في آلهة الأوليمب، التمس بعضهم في الفلسفة بديلاً من المعتقدات التقليدية. ومن امتزاج هذين الدافعين نشأت حركة مزدوجة في الفلسفة. فمن جهة ظنوا أن الفلسفة تظهر أن كثيراً مما يقال له معرفة في الحياة اليومية ليس في حقيقته معرفة، ومن جهة أخرى اعتقدوا في وجود حقيقة فلسفية أعمق هي - على حسب اعتقاد معظم الفلاسفة - على وفاق أتم من معتقداتنا اليومية مع ما نتمنى للعالم أن يكون، فكان الشك في جميع الفلسفات تقريباً هو الحافز وكان اليقين هو المقصد، كان هناك شك في الحواس وشك في العلم وشك في اللاهوت، وقد يغلب أحد هذه الشكوك على بعض الفلاسفة، بينما يغلب غيره على البعض الآخر، ولم يكن هذا وحده وجه الخلاف بين الفلاسفة؛

إذ قد اختلفوا أيضًا إلى حد كبير في إجاباتهم التي أوردوها على هذه الشكوك، بل واختلفوا حتى في احتمال وجود إجابات عنها على الإطلاق.

كل هذه البواعث التقليدية قد اجتمعت على أن تهديني إلى طريق الفلسفة، ولكن اثنين منها خاصة هما اللذان كان لهما أكبر الأثر عليّ، أحدهما وأولهما وأبقاهما أثرًا هو الرغبة في أن أجد معرفة يمكن قبولها على أنها يقينية، وأما الآخر فكان رغبتي في أن أجد شيئًا يشبع النزعات الدينية.

وربما كان أول شيء وجهني نحو الفلسفة (وإن لم تكن كلمة الفلسفة حتى ذلك الوقت معلومة لدي) قد حدث وأنا في الحادية عشرة من عمري. فقد قضيت طفولتي على الأغلب وحيدًا منعزلًا؛ إذ كان أخي الوحيد يكبرني بسبع سنوات. لا جرم أنه قد نتج عن عزلتي أنني أصبحت على شيء من الكآبة، وأن صار لديّ وقت طويل أفكر فيه دون أن يكون لديّ معلومات كثيرة أُعمل فيها هذا التفكير، فكنت أحس، دون وعي مني، بلذة البرهنة التي يتسم بها العقل الرياضي، فلما شببت عن الطوق وجدت آخرين كانوا يشعرون كما أشعر في هذا الصدد كصديقي ج. هـ. هاري^(١) أستاذ الرياضة البحتة الذي كان يشعر بهذه النشوة في أعلى درجاتها، وقد قال لي ذات مرة إنه لو عثر على دليل يقيني يؤكد أنني سأموت بعد خمس دقائق لأحزنه فقدي دون ريب، ولكن لذة العثور على الدليل ترجح ولا شك أسف الفقدان، وكنت على تمام الفهم والتقدير لرأيه هذا، ولم أشعر قط بالإساءة من هذا الكلام. فلما أخبرني بعضهم قبل أن أبدأ دراستي للهندسة أنها علم يبرهن على أشياء، سرتني جدًا أن أخي وعدني بأنه سيعلمنيها، وكانت الهندسة حتى ذلك الحين لا تزال «إقليدية»، فبدأ أخي دروسه بالتعريفات التي تقبلتها من فوري، فلما انتقل منها إلى البديهيات

(١) جيوفري هارولد هاردي (١٨٧٧ - ١٩٤٧): رياضي إنجليزي وأحد أقطاب الرياضة في عصره، وأحد أعضاء المجمع الملكي البريطاني.

قال: «أما هذه فلا يمكن برهانها، ولكن يجب التسليم بها قبل كل برهان». هنالك تداعت آمالي فقد اعتقدت أنه سيكون جميلاً أن أجد شيئاً يمكن «إثباته بالبرهان»، ولكن ها هو ذا ينقلب إلى شيء لا يمكن البرهنة عليه إلا بافتراضات لا برهان عليها، فنظرت إلى أخي بنوع من الغيظ وقلت له: «ولكن لماذا أسلم بهذه الأشياء إذا كانت لا تبرهن؟ فأجابني بقوله: «على كل حال، إذا لم تفعل فلا يمكن أن نستمر»: عندئذ خامرني أن ربما كان الاستمرار حتى آخر القصة جديراً بعنائه، فوافقت على التسليم بالبديهيات مؤقتاً، ولكني ما فتئت ممتلئاً بالشك والحيرة إزاء مطلب أملت أن أجد فيه الوضوح الذي لا نزاع فيه. ولكن على الرغم من هذه الشكوك التي كنت أنساها في أغلب الأحيان، والتي كنت أفترض أن لها برهاناً أو تعليلاً لم أعلمه بعد، وجدت في الرياضيات متعة كبيرة -أكبر بكثير في الحقيقة من أي متعة في أي دراسة- وعشقت التفكير في تطبيق الرياضيات على العالم الطبيعي، وبنيت الآمال على أن الزمن سيأتي حين تنشأ رياضة للسلوك الإنساني تبلغ في دقتها مبلغ رياضة الآلات. وكان مرد هذه الآمال أنني عشقت البراهين التي رجحت في أغلب الأحيان على حبي للاعتقاد في حرية الإرادة الذي كان هو أيضاً يخامرني، بيد أنني ما برئت أبداً من شكوكي الأساسية في يقين الرياضيات.

فلما أخذت في دراسة الرياضة العالية، اعترضتني مصاعب جديدة، فقد أعطاني أساتذتي براهين شعرت أنها خاطئة، وتبينت فيما بعد أن خطأها كان معروفاً، ولم أكن أعلم حينئذ ولا بعد أن تخرجت من كمبريدج بزم أن الرياضيين الألمان كانوا قد وجدوا براهين خيراً منها. ولهذا ظللت على قابلية للأخذ بالمقاييس الجريئة للفلسفة الكانطية، قادتني إلى مجال واسع جديد صغرت فيه المصاعب التي كنت أعانيها وفقدت أهميتها، إلا أن كل هذا قد أصبح خطأ في نظري بعد حين، ولكن بعد أن كنت قد غرقت بكليتي في أحوال المشاكل الميتافيزيقية. ولقد شجعني

على التحول إلى الفلسفة اشمئزازي إلى حد ما من الرياضيات، ذلك الاشمئزاز الناتج عن الاستغراق الزائد عن الحد في ذلك النوع من المهارة الذي يحتاج إليه في الامتحانات، والذي قادتني محاولة اكتسابه إلى الإيمان بأن الرياضيات إنما تنطوي على حيل بارعة وخدع حاذقة، وأنها تشبه إلى حد كبير جدًا أَلغاز الكلمات المتقاطعة. فلما انتهيت من آخر امتحاناتي في الرياضيات عند نهاية سنتي الثالثة في كمبريدج، أقسمت ألا أنظر بعدها إلى الرياضيات وبعث كل كتبي الرياضية، وفي هذه الحالة النفسية والعقلية، واجهتني الفلسفة بكل البهجة التي يتهيج بها الهارب من نفق إلى وادٍ مزدهر فسيح.

ولم يكن بحثي عن اليقين مقصوراً على الرياضيات، فقد كنت أعتقد، كما اعتقد ديكرت^(١) من قبل (الذي كنت أجهل كتاباته حتى ذلك الحين)، أن وجودي لا شك فيه عندي على الأقل، وشعرت كما شعر بأن من الممكن أن نفترض أن العالم الخارجي لا يعدو أن يكون حلمًا، ولكنه حتى على فرض كونه رؤيًا -إلا أنها رؤيًا قد رؤيت فعلاً في منام حقيقي، وأن إحساسي بها حقيقة يقينية لا تهتز. هذا التسلسل الفكري خامرني أول ما خامرني وأنا في السادسة عشرة، فلما علمت أن ديكرت قد جعله أساس فلسفته، شعرت بالغبطة والسرور.

وفي كمبريدج، قوي شغفي بالفلسفة بعامل آخر؛ إذ إن روح الشك التي دفعتني إلى أن أشك حتى في الرياضيات قد دفعتني أيضاً إلى الارتياح في العقائد الأساسية للدين، مع أنني كنت قوي الرغبة في أن أجد طريقة أحافظ بها على شيء يمكن على الأقل أن يقال عنه إنه اعتقاد ديني، فقضيت الفترة ما بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة من عمري وأنا أنفق الوقت عن سعة في التفكير في العقائد الدينية، فبحثت

(١) رينيه ديكرت (١٥٩٦ - ١٦٥٠): أبو الفلسفة الفرنسية الحديثة، وواضع المنهج الرياضي في الفلسفة، ومخترع الهندسة الإحداثية، ولا تزال الإحداثيات تُسمَّى باسمه «الكارتيزية».

العقائد الأساسية واحدة وكلية رجاء أن أعثر على ذريعة لقبولها، ثم سجلت أفكارى في دفتر ما زلت أحتفظ به، وكانت بطبيعة الحال فجأة وصيبانية، ولكنى لم أرَ عندئذ أي جواب على ما أوحى به إليّ من الشكوك. وفي كمبريدج فتحت عيني على مذاهب فكرية كاملة لم يكن لي علم سابق بها، فتركت آرائى التي كونتها في وحدتى زمنًا ما. ففي كمبريدج تعرفت على فلسفة هيغل^(١) الذي يدعى في تسعة عشر مجلدًا غامضة أنه قد دلل على شيء يصلح جدًّا أن يكون بديلًا مهذبًا موشى للمعتقدات التقليدية، فقد كان هيغل يعتقد أن الكون وحدة متماسكة، وأنه أشبه شيء (بالفالودج) إذا لمستته من جانب اهتز سائرته، وإن اختلفت عن (الفالودج) في عدم قابليته للتقطيع والتقسيم، أما الظاهر المجزأ، فإنه عنده وهم، والحق الوحيد هو المطلق، الاسم الذي يطلقه على الله. ولقد ارتحت إلى هذه الفلسفة حينًا من الزمن؛ إذ بدت لي من خلال شروح أنصارها وبخاصة شروح ماك تاجارت الذي كان ألصق أصدقائي حينئذ، ساحرة وقابلة للبرهان، فقد كان ماك تاجارت فيلسوفًا يكبرني بست سنوات، وكان طوال حياته تلميذًا متحمسًا لهيغل فأثر في معاصريه تأثيرًا كبيرًا. وكنت واحدًا من الذين انداحوا تحت تأثيره بعض حين؛ إذ من ذا الذي لا يشعر بلذة إقناع نفسه بأن الزمان والمكان ليسا حقيقة، وأن المادة وهم وأن العالم ليس في حقيقته إلا عقلًا؟ ولكنى على كل حال، انتقلت في لحظة تهور واندفاع من الأتباع إلى الأستاذ فوجدته خليطًا من الاضطرابات مما اعتبرته لا يزيد كثيرًا على حذقة التورية، ولهذا تنكبت طريق فلسفته.

ووجدت الغبطة والقناعة حينًا من الزمن في مذهب مستمد مع شيء من التعديل من أفلاطون، هذه الفكرة الأفلاطونية التي قبلتها بعد تخفيف شطحتها هي التي تقول

(١) جورج ولهمل فردريك هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١): رابع أربعة الفلاسفة الألمان المثاليين: كانط وفخته وشلنج، وصاحب الخطوة عند الأمراء وذوي الجاه، ومن أشهر تلاميذه كارل ماركس الذي استعار ثنائيته الديالكتيكية المثالية فجعلها مادية حتمية.

بأن هناك عالمًا من المثل لا يطرأ عليه التغيير وليس له زمان، وأن العالم الذي نراه إن هو إلا صورة ناقصة مشوهة لهذا العالم المثالي، وأن الرياضيات حسب دعواها إنما تتعلق بهذا العالم المثالي، فتكتسب بذلك دقة وإحكامًا وكمالًا ليس لهما وجود في عالمنا اليومي، فراقنتي هذه الصوفية الرياضية التي استمدها أفلاطون من فيثاغورس^(١)، ولكنني وجدتني مضطرًا آخر الأمر إلى رفضها هي الأخرى، ولم أجد منذ ذلك الحين الكفاية الدينية التي ترضيني في أي فكرة فلسفية يمكنني قبولها.



(١) فيثاغورس (٥٧٠ - ٥٠٤ ق. م): فيلسوف إغريقي أقام مدرسة متصوفة في صقلية وجنوب إيطاليا، ويمتاز بأنه صاحب أول فلسفة رياضية تؤمن بأن أصل الكون عدد ونغم، ونظريته في المثلث القائم الزاوية التي استمدها من كهان مصر هي الأساس في علم حساب المثلثات واللوغاريتمات (أو الخوارزميات).

بعض صلاتي الفلسفية

حينما كنت صغيراً انسقت كما ينساق غيري من الصغار في أحلام اليقظة، إلا أنني كنت أسعد من غالبيتهم؛ لأن بعض هذه الأحلام قد تحقق فعلاً، أحد هذه الأحلام هو أن أتلقي خطابات المدح والثناء من العلماء الأجانب الذين لم يعرفوني إلا من كتاباتي، فكان أول خطاب من هذا النوع تسلمته فعلاً بمثابة علامة من علامات الطريق. جاءني هذا الخطاب من الفيلسوف الفرنسي لويس كوتيرا^(١) الذي كان فيما سبق قد كتب كتاباً كبيراً على اللامتناهي الرياضي، وعلقت عليه بشيء من المديح، وقد أرسل إليّ هذا الخطاب ليخبرني أنه قد كلف بالنظر في كتابي عن أسس الهندسة حين صدوره، وأنه قد أخذ في ذلك «مسلحاً بقاموس» لأنه لا يكاد يعرف شيئاً من اللغة الإنجليزية. وكانت بقية الخطاب من ذلك النوع من الثناء الذي كنت أحلم به. واتصلت الصداقة بيننا، وزرته بعد ذلك في كان أولاً ثم في باريس.

(١) لويس كوتيرا (١٨٦٨ - ١٩١٤): فيلسوف وعالم رياضي فرنسي، اهتم بالمنطق الرياضي وأسس الرياضة، وأهم بحوثه كتابه (في اللامتناهي الرياضي).

وقد نشر كل منّا بمعزل عن صاحبه كتابًا عن لينتز^(١)، ظهر كتابي سنة ١٩٠٠ وكتابه سنة ١٩٠١، فأما كتابي فقد بسطت فيه تفسيرًا جديدًا كل الجدة لفلسفة لينتز، أقمته على عدد قليل نوعًا من النصوص وهي التي نظرت إليها على أنها مهمة؛ إذ إنها تجعل مذهب لينتز أكثر عمقًا واتساقًا بكثير مما تجعله تلك النصوص التي قامت عليها النظرات التقليدية لهذا المذهب. أما كوتيرا، فإنه دون أن يعلم شيئًا عن كتابي، قد ذهب إلى هانوفر حيث تُحفظ مخطوطات لينتز فوجد ما لا يعد من الأوراق التي لم يسبق نشرها، والتي أقرت صحة تفسير المذهب بما يشبه إلى حد كبير جدًّا تفسيري له، فلم يعد بعدها مسألة رجم وتخمين. ولكن مسالكنا بعد هذا تباعدت لأنه كرّس همه للترويج للغة عالمية، ولكن اللغات العالمية لسوء حظه أكثر عددًا من اللغات القومية، ولم يكن يميل إلى الاسبرانتو اللغة العالمية المفضلة عند عموم المهتمين بالموضوع، ولكنه كان يفضل الإيدو، وقد علمت منه أن الاسبرانتين (أو هذا هو ما أكده لي بنفسه) كانوا أشارًا إلى أبعد مدى بلغته حطة الإنسان من قبل، ولم أحاول قط أن أتحقق من صحة زعمه، وكان السبب في هذا - على حد ما قال هو - أن الاسبرانتو تسمح بوجود كلمة «الاسبرانتي» التي ليس لها ما يناظرها في لغة الإيدو. قلت له: ولكنها تسمح بنظير لها هو كلمة «إيديوت» Idiot^(٢)، ولكنه على كل حال لم يقبل بتاتا أن تطلق كلمة «إيديوت» على مروجي لغة «الإيدو»، وقد قتلته إحدى عربات النقل «اللوري» في أثناء حركة التعبئة العامة سنة ١٩١٤.

وكان أول اتصال جاء لي بالعالم الألماني المثقف هو قراءتي للفيلسوف

(١) جوتفريد ولهم فون لينتز (١٦٤٦ - ١٧١٦): أحد كبار الفلاسفة الرياضيين الألمان، وأحد اثنين استحدثنا حساب التفاضل والتكامل والآخر هو نيوتن، ومن أخباره أنه نصح لويس الرابع عشر بأن يغزو مصر ليلفته عن الاستبداد ببلاذه، ويقال إن نابليون قد استفاد بخطته التي زينها للويس الرابع عشر عند غزوه مصر منذ نيف ومائة سنة.

(٢) Idiot: معناها: أبله (معتوه).

«كانط»^(١) الذي كنت أنظر إليه وأنا بعد طالب جامعي نظرة الاحترام والخشوع، وقد علمني أساتذتي أن أنظر بمثل هذه النظرة على الأقل إلى هيجل، وقبلت حكمهم هذا حتى قرأته، فلما فعلت وجدت ملاحظاته عن فلسفة الرياضة (ذلك الجانب الذي يثير شغفي أكثر من غيره) تتصف بالجهل والغباء، وهذا ما قادني إلى رفض فلسفته كما رفضت فلسفة «كانط» في الوقت نفسه، وإن كان لأسباب تختلف عن هذه شيئاً ما. إلا أنني في الوقت الذي كنت أتخلص فيه من الفلسفة الألمانية التقليدية، بدأت أعرف طرفاً من مجهودات الرياضيين الألمان حول مبادئ الرياضيات التي كانت في ذلك الوقت أحسن بكثير من أي مجهود مماثل في الموضوع في أي بلد آخر، فقرأت بشراهة كتب فيارشراس^(٢) وديديكند^(٣) التي اكتسحت كمية كبيرة من السقط الميتافيزيقي مما كان يفت في أسس الرياضيات منذ أيام ليبنتز، وكان أهم من هذين، سواء في ذاته أو في أثره على عملي، جورج كانتور^(٤)، فقد بسط نظرية الأعداد اللا نهائية في كتاب يصنع التاريخ ويظهر العبقرية المدهشة، وهو كتاب صعب للغاية ظللت فترة طويلة لا أفهمه حق الفهم، فنسخته كلمة كلمة في دفتر؛ إذ إنني وجدت أن هذه الطريقة من التقدم البطيء كانت تساعدني على فهمه، وطراً لي في أثناء عملي هذا إنه على خطأ ولكني مع ذلك واصلت العمل، فلما انتهيت منه تبين لي أن الأخطاء كانت أخطائي أنا لا أخطاءه هو. وهو رجل غريب الأطوار إلى حد بعيد، ذلك أنه إذا لم يكن في شغل بوضع الكتب صانعة الحقب التاريخية

(١) عمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤): أكبر فلاسفة الألمان، ومبدأ السلسلة المثالية التي انتهت بهيجل، وأهم كتبه نقد العقل الخالص، ونقد العقل العملي، وقد وصفه هيني الشاعر بأنه آلة تفكر لعدم اكترائه للعواطف الإنسانية، وقد ظل في بلده كونيغزبرج لا يرحها طول عمره.

(٢) كارل فيارشراس (١٨١٥ - ١٨٩٧): رياضي ألماني أقام شهرته على دراسته للدالة.

(٣) جوليوس ولهم رتشاد ديدكند (١٨٣١ - ١٩٢٦): رياضي ألماني اهتم بالعدد والحساب.

(٤) جورج فرديناند لودفيج فيليب كانتور (١٨٤٥ - ١٩١٨): رياضي ألماني اشتهر بأبحاثه في التحليل والطوبوغرافيا والمنطق الرياضي، وهو من أبوين دانمركيين.

في الرياضيات، كان يشغل وقته بكتابة كتب يثبت فيها أن يكون^(١) هو الذي كتب مؤلفات شكسبير^(٢). وقد أرسل إليّ أحد هذه الكتب وقد خط على غلافه قوله: «أرى أن شعارك هو إما كانط أو كانتور». فقد كان «كانط» عنده الغول المخيف، وصفه مرة في خطاب أرسله إليّ بقوله: «ذلك المرائي المتقلب الذي لا يكاد يعلم شيئاً من الرياضيات». وكان من أشد الناس مشاكسة، كتب إليّ في أثناء معركة له مع الرياضي الفرنسي هنري بوانكاريه^(٣) قائلاً: «لن أكون الطرف المهزوم»، وهذا ما كان فعلاً. ولأسفني الدائم لم ألقه، ففي اللحظة التي كنت سألقاه فيها، وقع ابنه صريع المرض فاضطر للعودة إلى ألمانيا.

ويرجع تأثير هؤلاء الرجال على دراساتي إلى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، ولكنني عند بداية القرن العشرين شعرت بوجود رجل كنت أكن له، وما زلت، أسمى آيات الاحترام، وإن لم يكن حتى ذلك الوقت مشهوراً، ذلك هو فريجه^(٤)، إن من العسير جداً أن نعلل سبب التغافل عن كتاباته، نعم إن ديديكند قد لقي ما هو جدير به من السمعة، ولكن فريجه قد عالج موضوعاته نفسها بدرجة من العمق أكبر منه كثيراً. ولقد كانت بداية علاقتي بفريجه غريبة، فقد كان يجب أن تبدأ هذه العلاقة منذ اللحظة التي أعطاني فيها جيمس وارد^(٥) -أستاذي في الفلسفة- كتيب فريجه «ترقيم الأفكار» قائلاً لي إنه لم يطلع عليه بعد ولا يعلم هل كانت له قيمة، وإنني

(١) فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٨): مجرب العلم والحياة. سياسي وفيلسوف، مات وهو يجري تجربة على تأثير الثلج في الفراخ المذبوحة.

(٢) وليم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦): أعظم كتاب المسرحية الشعرية التي ألمعها «هاملت».

(٣) جولز هنري بوانكاريه (١٨٥٤-١٩١٢): عالم في الرياضيات والطبيعات فرنسي.

(٤) جوتلوب فريجه (١٨٤٨-١٩٢٥): رياضي ألماني ومن علماء المنطق الرياضي، ولد في فيمار.

(٥) جيمس وارد (١٨٤٣-١٩٢٥): فيلسوف إنجليزي وعالم نفساني، وأحد أعضاء الترينيتي كوليج، تأثر بكانط وليبنز ولونز نظراً لتعليمه في المدارس الألمانية، كما تأثر بنظرية التطور. ومن أهم كتبه «الزراعة الطبيعية واللامعرفية» و«الوراثة والذاكرة».

أعترف -وكلي شعور بالخجل- أنني أيضًا لم أقرأه إلى أن توصلت إلى معظم ما فيه بمجهودي المستقل، ذلك أنني قرأته في سنة ١٩٠١ وهو منشور منذ سنة ١٨٧٩، ولديّ شيء من الشك أن ربما كنت أول قارئ له. أما ما لفت نظري إلى فريجه، فهو تعليق على بعض كتبه المتأخرة كتبه بيانو^(١) يتهمه فيه بالمبالغة التي لا لزوم لها في الدقة والتحبيك، ولما كان بيانو أدق المناطق وأشدّهم تحبيكًا فيمن أعلم، فقد شعرت بأن فريجه هذا لا بد أن يكون شخصًا يستحق الالتفات، فحصلت على الجزء الأول من كتابه عن الحساب (ولم يكن الجزء الثاني قد نشر بعد)، وقرأت مقدمته بإعجاب عاطفي متحمس، وإن نفرت من رمزيته العابسة التي ابتدعها والتي جعلتني لا أفهم ما احتواه النص الأصلي حتى استخلصتها بنفسي وبمجهودي. وكان فريجه أول من بسط الرأي الذي كنت أعتنقه -وما زلت- من أن الرياضيات ليست إلا امتدادًا للمنطق، وكان أول من عرف الأعداد بالحدود المنطقية، وكان ذلك منه في سنة ١٨٨٤، وإن لم يتنبه أحد إلى ما فعل.

وقد ظن فريجه -كما ظننت أنا لمدة بضعة أشهر في مطلع القرن العشرين- أن إخضاع الرياضيات للمنطق قد تم تمامًا، ولكنني عثرت في يونيو سنة ١٩٠١ على تناقض يثبت أن شيئًا ما لا يزال تائهاً، فكتبت له بذلك، فكان تصرفه إزاءه فيه من نبل الصراحة ما لا يمكن أن نبالغ في مدحه مهما فعلنا، فقد كان الجزء الثاني من كتابه عن الحساب قد انتهى طبعه ولم يُنشر بعد، فأضاف عليه تعقيبًا يقول فيه: «إنه بالنظر إلى التناقض الذي لفت إليه نظره قد اهتز أساس الحساب».

وأظن أنه في سنيه الأخيرة قد فعل ما يفعله الفيتاغوريون حينما يواجهون بالأعداد الصماء، وذلك بأن لجأ إلى معاملة الحساب هندسيًا، ولا يمكنني أن أتابعه في ذلك، إلا أنه لمما يثير الشغف أن نلاحظ تكرار التاريخ القديم في سياق حديث. ولأسفي

(١) جيوسيبي بيانو (١٨٥٨ - ١٩٣٢): رياضي إيطالي، ومن علماء المنطق والرياضة.

الدائم لم ألقَ فريجه، ولكنني أشعر بالغبطة أن قمت بكل ما في طاقتي لكي أكسب له الاعتراف الذي يستحقه.

وصلة فلسفية أخرى أهم من هذه كانت بالفيلسوف النمساوي لودفيج فتنجشتين^(١) الذي بدأ تلميذاً لي وانتهى بخلعي والحلول محلي في كل من أكسفورد وكمبريدج. كان يريد أن يصير مهندساً ولهذا الغرض ذهب إلى مانشستر، ولما كان التدريب على الهندسة يقتضي تعلُّم الرياضيات، فقد قادته دراسته هذه إلى الاهتمام بأسس الرياضة، فاستفسر في مانشستر هل هناك دراسة لهذا الموضوع؟ وهل هناك من يدرسه؟ فدلوه عليّ، فجاء إلى كمبريدج وكان غريباً وكانت آراؤه تبدو لي شاذة لدرجة أنني ظلمت فصلاً دراسياً كاملاً أسائل نفسي أهو عبقرى أم مجرد شخص غريب الأطوار؟ فلما انتهى من الفصل الدراسي الأول في كمبريدج جاءني قائلاً: «أسمح بأن تخبرني هل أنا معتوه كامل العته أم لا؟» فأجبت: «يا عزيزي لست أدري، ولكن لماذا تسألني؟» فقال: «لأنني إذا كنت معتوهاً مطبق العته فسأغدو رائداً من رواد الفضاء، أما إذا لم أكن كذلك فسأغدو فيلسوفاً». فطلبت منه أن يكتب لي شيئاً في موضوع فلسفي في خلال العطلة، وعندها أستطيع أن أقرر أكان مطبق العته أم كان دون ذلك. وجاءني بما كتب حسب اقتراحي في أول الفصل الدراسي الثاني، فلما قرأت منه جملة واحدة قلت له: «كلا، لا يصح لك أن تكون من رواد الفضاء» فلم يفعل، ولكنه لم يكن على كل حال سهلاً في المعاملة، فقد تعود أن يزورني في جناحي عند منتصف الليل ويقضي ساعات جيئة وذهاباً كالنمر الحبيس، واعتاد أن يعلن عند قدومه أنه سيتحرر عندما يترك حجرتي، ولهذا، وعلى الرغم من حاجتي إلى النوم، لم أكن أحب أن أتخلص منه. وفي ذات ليلة من تلكم الليالي، وبعد ساعة أو ساعتين من صمت كصمت القبور، قلت له: «فتنجشتين، هل تفكيرك الآن منصّب على المنطق أم على مخازيك؟» فقال: «عليهما معاً» ثم عاد إلى السكوت. ولكن لم تكن كل مقابلاتنا

(١) لودفيج فتنجشتين (توفي ١٩٥١): فيلسوف نمساوي صاحب الفلسفة التي تعرف باسم الوضعية المنطقية.

في الليل، فقد تعودت أن أصطحبه في نزهات طويلة في الريف المجاور لكمبريدج، وفي ذات مرة أوعزت إليه بأن يقتحم معي غابة مادنجلي، فأدهشني بأن تسلق شجرة فيها، فلما اعتلى جانبًا كبيرًا منها، ظهر حارس يحمل بندقية وأعرب عن احتجاجه لي على هذا التثحم، فناديت فتجنشتين قائلاً أن الرجل وعد بعدم إطلاق النار إن هو نزل في ظرف دقيقة واحدة فصدقني وفعل. وقد حارب في الحرب العالمية الأولى في صفوف النمساويين واعتقله الإيطاليون بعد الهدنة بيومين، وتلقيت منه خطابًا كتبه من مونت كاسينو حيث سجن يقول فيه إنه لحسن حظه كان يحمل معه مخطوطه يوم أسر، وهو المخطوط الذي نشر واشتهر فيما بعد، والذي كتبه وهو يحارب في جبهة القتال. وقد ورث ثروة كبيرة عن والده، ولكنه تنازل عنها على أساس أن الثروة لا تعدو أن تكون عبئًا ومضايقة للفيلسوف. وهكذا صار معلمًا في مدرسة ريفية ليكسب قوته في قرية صغيرة يقال لها ترانتباخ، حيث كتب لي منها خطابًا تعسًا يقول فيه: «إن أهل ترانتباخ، أشرار منحطون»، فأجبت قائلاً: «إن الناس جميعًا أشرار منحطون» فأردف بقوله: «هذا حق ولكن أهل ترانتباخ أكثر من سائر الناس انحطاطًا وشرًا». فأعدت إليه القول بأن حاستي المنطقية تثور ضد مثل هذا الزعم. وهنالك توقف النقاش حتى أقنعتة معيشتة في أماكن أخرى بشيوع المخازي بين الناس. وقد أصبح في أخريات أيامه أستاذًا للفلسفة في كمبريدج، وتلمذ عليه معظم الفلاسفة فيها وفي أكسفورد على السواء، وحتى أنا تأثرت إلى حد كبير بنظرياته الأولى، وإن تباعدت بنا سبل الرأي بعد ذاك، وكنت أراه قليلًا في تلك الفترة الأخيرة من عمره، ولكنه كان -في الوقت الذي عرفته فيه جيدًا- على قدر كبير من التأثير لما له من الحرارة والنفوذ ونقاء العقل إلى درجة غير مألوفة على الإطلاق.

ولكن الذي طبع على نفسي، لا بما له من مقدرة بل بعزم استغراقه في الفلسفة حتى في أشق الظروف والملابسات، هو الفيلسوف اليوغوسلافي الوحيد المعاصر لنا برانسلاف بترونييفك قابلته مرة واحدة في سنة ١٩١٧، وكانت اللغة الوحيدة

التي يعلمها كلانا هي الألمانية فاستعملناها مكرهين، وإن جرت علينا نظرات الريبة من عابري السبيل. وكان الصرب في ذلك الوقت قد نجحوا في الانسحاب الكلي الرائع أمام الغزاة الألمان، وكنت متشوقاً لأن أعرف القصة منه لأنه شاهد عيان، ولكنه لم يرد إلا أن يبسط رأيه في أن عدد النقاط في المكان محدود، وأنه يمكن تقديره حسب اعتبارات مستمدة من نظريات العدد، فكان هذا الاختلاف في الاهتمام من جانب كل منا مدعاة لحديث على شيء من العجب والغرابة. قلت: «أكنت في الانسحاب العظيم؟» فأجاب: «نعم، ولكن ألا ترى أن طريقة حساب عدد النقاط في المكان هي...» فأقول: «أكنت ماشياً على قدميك؟» فيقول: «نعم، إن عددها لا بد أن يكون أولياً»، فأقول: «ألم تحاول أن تحصل على حصان؟» فيقول: «بدأت على ظهر حصان ولكني سقطت من على ظهره، ولا يمكن أن يصعب علينا أن نعرف أي عدد أولي هو». وعلى الرغم من كل محاولاتي لم أستطع أن أحصل منه على أكثر من هذا القدر عن موضوع تافه كالحرب العالمية، وأحسست بالإعجاب بقدرته على التناهي بعقله عن حوادث وجوده الجسمي، تلك القدرة التي أعتقد أن قليلاً جداً من الرواقيين الأقدمين يستطيعون أن ينافسوه فيها. وقد كلفته حكومة يوغسلافيا -بعد انتهاء الحرب- بإصدار طبعة نفيسة للفيلسوف بوسكوفيك^(١)، فيلسوف يوغوسلافيا في القرن الثامن عشر، ولكن ما حدث له بعد ذلك لست أعلمه.

تلك طائفة قليلة من الرجال الذين كان لهم أثر، وهناك اثنان بالإضافة إلى هؤلاء كان لهما أثر أشد من أثر هؤلاء عليّ هما: بيانو الإيطالي وصديقي جورج إدوارد مور^(٢).



(١) عالم في الرياضيات والطبيعات والفلك من علماء القرن الثامن عشر (١٧١١ - ١٧٨٨) ومن أوائل مؤيدي نظريات نيوتن.

(٢) جورج إدوارد مور (١٨٧٣ - ١٩٥٨): فيلسوف تحليلي واقعي يري للحقيقة وجوداً مفارقاً لا يعتمد على الإدراك، وأهم كتبه «أصول الأخلاق».

تجارب مسالم في الحرب العالمية الأولى

تنقسم حياتي انقسامًا فاصلاً محدداً إلى فترتين، ما قبل وما بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى التي نفضتني نفضة أخرجتني من كثير من ميولي السابقة وجعلتني أعيد النظر في عدد من المسائل الأساسية.

فقد تتبععت في قنوط، كما فعل غيري من الناس، تفاقم خطر الحرب، وكنت أنفر من سياسة «الوفاق» التي سمعت بها أول ما سمعت في سنة ١٩٠٢، حينما كان يروج لها السير إدوارد جراي^(١) في منتدى صغير للنقاش كنت عضواً فيه، ولم تكن هذه السياسة قد أخذ بها، ولا كان السير إدوارد جراي أحد أعضاء الحكومة، ولكنه كان على علم بنوايا الحكومة ومؤيداً لها، واحتججت بما وسعني من حرارة الاحتجاج؛ إذ لم أكن أستريح إلى الانحياز إلى روسيا القيصرية، ولا كنت أرى أي عقبة كأداء لا يمكن تخطيها في سبيل إيجاد كيفية للحياة مع ألمانيا القيصرية. وكنت أتوقع أن حرباً كبرى ستكون نذير نهاية حقبة وأنها ستهبط بالمستوى العام للحضارة، ولهذا

(١) الفايكونت لورد إدوارد جراي (١٨٦٢ - ١٩٣٣): وزير الخارجية في وزارة الأحرار منذ ١٩٠٥ إلى ١٩١٦ والمسؤول عن حادث دنشواي أدبياً، وعن عزل الخديو عباس حلمي الثاني وعن سياسة الوفاق مع فرنسا.

تمنيت لو أن إنجلترا بقيت على الحياد، وهو ما أيدتني فيه حوادث التاريخ التي تمخض عنها المستقبل.

وفي تلك الأيام القانطة من أواخر شهر يوليو، كنت في كمبريدج أناقش الموقف مع كل من هب ودب، ووجدت من المستحيل أن أصدق أن أوروبا سيبلغ بها الجنون إلى درجة أن تنغمس في الحرب، إلا أنني كنت مقتنعا أنه لو وقعت الحرب فستشارك فيها إنجلترا. لهذا جمعت توقعات عدد كبير من الأساتذة والزملاء على قرار يحذ الحياء، نشرته المانشستر جارديان، فلما أعلنت الحرب، غير جميع الموقعين على هذا المنشور تقريباً رأيهم. وإني إذ أنظر الآن إلى الوراء يبدو لي غريباً غير مألوف أنني لم أتبين ما كان سيحدث بشيء أكثر من الواضح.

قضيت أصيل اليوم الرابع من أغسطس متجولاً في الطرقات وخاصة في جوار ميدان الطرف الأغر، أرقب الحشود الهائفة وأنا أهيم نفسي لتلقي مشاعر السابلة، واكتشفت في ذلك اليوم وما تلاه من أيام أن الرجل العادي والمرأة العادية كانا مبتهجين لوقوع الحرب، بينما كنت أعتز من قبل بظني، وهو ظن معظم المسالمين أيضاً، أن الحرب كانت تفرض فرضاً على أناس عازفين عنها بفعل حكومات مستبدة وصولية (ماكافيلية).

وكانت وطنيتي تعذبني، وكانت انتصارات الألمان قبل معركة المارن تفزعني، وتمنيت هزيمة ألمانيا بكل قوة وحماسة يشعر بها عقيد متقاعد؛ لأن حبي لإنجلترا هو أقوى عاطفة في نفسي تقريباً فكنت في تظاهري بالقائه جانباً في مثل تلك اللحظة أتخلى عن شيء يصعب جداً أن أتخلى عنه، ومع ذلك لم يخامرني الشك لحظة واحدة فيما يجب أن أعمله. لقد حدث لي أن شلَّ الشك حركتي أحياناً، وأحياناً أخرى كنت عياباً، وأحياناً غيرها لم أكرث، ولكن عندما قامت الحرب خُيِّلَ إليَّ أنني أسمع صوت الله! كنت أعلم أن واجبي هو أن أرفع صوتي بالاحتجاج مهما يكن

الاحتجاج عديم الجدوى، فقد كانت كل طبيعتي داخلية في النزاع، فبوصفي أحد عشاق الحقيقة كانت الدعاية الوطنية لكل من الأطراف المتنازعة تصبيني بالغثيان، وبوصفي محباً للحضارة، كانت الرجعية البربرية الهمجية تصدمني، وبوصفي رجلاً ذا شعور أبوي معطل، كانت مذبحه الشباب تمزق قلبي. ولم أكن أتوقع أن معارضة الحرب ستعود بنفع يُذكر، ولكنني شعرت أنه من أجل كرامة الطبيعة الإنسانية كان على أولئك الذين لم تنزل أقدامهم أن يظهروا أن أقدامهم ثابتة، وحينما أرى قطارات الجند تبارح محطة ووترلو كانت تتراءى لي رؤى غريبة، أرى فيها لندن في صورة مكان خرافي، وكنت أرى في تصوراتي هذه جسورها تتداعى وتغرق، وأرى المدينة الكبرى بأكملها تتلاشى أدراج الرياح كضباب الصباح، وأخذ سكانها يتراءون لي كمن به هوس، وكنت أعجب من العالم الذي اعتقدت أنني أعيش فيه، ألم يكن يعدو أن يكون رؤيا كابوس أعانيه؟ على كل حال لم تكن تلك اللحظات إلا لفترات قصيرة وكان يحد من استطالتها الحاجة إلى العمل.

ألقيت خطباً كثيرة في مجتمعات مسالمة، كانت تنتهي في العادة دون وقوع حوادث إلا في واحدة ألقى في تأييد ثورة كيرنسكي^(١)، كانت أشد عنفاً. كان ذاك في كنيسة الإخوة في شارع سوئجيت، وكانت الصحف الوطنية قد وزعت منشورات في جميع الأماكن العامة هناك (والمنطقة عموماً في شدة الفقر المدقع) قالت فيها إننا على اتصال بالألمان، وإننا نشير عليهم بالأمكنة التي يلقون فيها بقنابلهم من الطائرات، فشوهت هذه الدعاية سمعتنا في المنطقة، وحفّزت جمهوراً من الرعاع لحصار الكنيسة، واعتقدت غالبيتنا أن المقاومة إما أن تكون عملاً منحطاً، أو أن تكون عملاً خالياً من الحكمة؛ لأن بعضنا كانوا من فريق «عدم المقاومة» كلية، وكان

(١) إلكسندر فيودوروفتش كيرنسكي المولود سنة ١٨٨١: هو أحد قادة الثورة الليبرالية ضد الحكومة القيصرية في روسيا في فبراير ١٩١٧، ورئيس الحكومة الديمقراطية قبل الثورة البولشفية في أكتوبر ١٩١٧، وقد هرب إلى باريس بعد انتصار البلاشفة، وألف كتابين هما «تباشير البولشفية» و«الكارثة».

آخرون يعتقدون أننا أقل عددًا من أن نقاوم كل سكان هذه المنطقة المزدحمة جدًّا بالأهلين، ولكن قلة من بيننا حاولوا المقاومة، ومن بينهم فرانسيس مينيل^(١)، وأذكر أنه عاد من عند الباب ووجهه ينزف دمًا، واقتحم الجمهور الكنيسة يقوده بعض الضباط، وكانوا جميعًا، فيما عدا الضباط، على درجات متفاوتة من السكر، وكان أكثرهم توحشًا النساء المسترجلات اللاتي كن يحملن فروعًا من الخشب ممثلة بالمسامير الصدئة، وقد حاول الضباط أن يدفعوا النساء من بيننا للانسحاب أولًا؛ حتى يتمكنوا من معالجتنا نحن الرجال المسالمين بالطريقة التي يرونها تناسب رجالًا يظنون بهم الجبن والخور، ولكن السيدة سنودن تصرفت تحت هذه الظروف تصرفًا محمودًا، فقد رفضت إطلاقًا (دون قيد ولا شرط) أن تنسحب حتى ينسحب الرجال في الوقت نفسه، ووافقها على ذلك كل الحاضرات مما قلب الأمور مع السادة قواد الرعاع؛ إذ ما كانوا ليرغبوا في أن يتعرضوا للنساء، ولكن كانت دماء الرعاع في ذلك الوقت قد اشتعلت فاندلعت الفتنة بغير سدد ولا قيود، وكان على كل واحد منا أن يتلمس طريق الهرب على خير ما يستطيع، بينما وقف رجال البوليس هادئين يتفرجون، وأخذت امرأتان منتشيتان من المسترجلات تهاجماني بألواح الخشب ذات المسامير الصدئة، وبينما كنت في حيرة من أمر هذا الهجوم كيف يمكن أن أصده عني؟ ذهبت إحدى سيداتنا إلى البوليس تليفته إلى وجوب الدفاع عني، إلا أن رجال البوليس اكتفوا بهز أكتافهم، فقالت السيدة: «ولكنه فيلسوف عظيم»، ولا تزال أكتاف البوليس في اهتزازها، فأردفت، ولكنه مشهور في جميع أنحاء العالم بوصفه أحد كبار العلماء، ولم يتحرك البوليس، فصاحت آخر الأمر قائلة: «ولكنه أخ لأحد اللوردات»، عندئذ اندفع البوليس ليحميني، إلا أنهم على كل حال قد جاءوا بعد فوات الفرصة التي يكون لهم نفع فيها، وإنما أدين بحياتي لامرأة شابة لا أعرفها

(١) السير فرانسيس مينيل (١٨٩١ -) طبوغرافي إنجليزي ورئيس تحرير الديلي هيرالد فترة من الزمن.

اعترضت ما بيني وبين المستر جلتين فترة كانت كافية لأهرب، أما هي فإنني سعيد أن أقول إنها لم تتعرض للهجوم تحت حماية البوليس، ولكن عددًا لا يستهان به من الناس، من بينهم عدة نساء، قطعت ثيابهم من فوق ظهورهم وهم يبارحون المبنى.

وكان راعي كنيسة الإخوة هذه «مسالمًا» ذا شجاعة نادرة؛ إذ على الرغم مما حدث، دعاني في مناسبة تالية لإلقاء خطاب في كنيسته، بيد أن الرعاع في هذه المرة أحرقوا المنبر فألغى الخطاب. هذان هما الاجتماعان الوحيدان اللذان تعرضت فيهما بشخصي للعنف، أما فيما عداهما فقد انتهت جميع اجتماعاتنا بغير افتتات. وهكذا يبدو كم تفعل الدعاية الصحفية، حتى إن أصدقائي من غير المسالمين جاءوني يقولون: «لماذا تلح في إلقاء الحطب إن كانت كلها تنفض تحت ضغط الرعاع؟».

وقضيت أربعة أشهر ونصف شهر في ١٩١٨ سجينًا بسبب الدعاية للمسالمة، ولكنني بفضل تدخل آرثر بالفور^(١)، وضعت في القسم الأول، الذي يمكنني وأنا في السجن من أن أكتب وأقرأ كيف أشاء ما دمت لا أدعو لدعوة المسالمة. ولقد وجدت السجن محمود الإقامة من وجوه كثيرة؛ فلا مواعيد ولا قرارات يصعب اتخاذها ولا خوف من الزيارة المفاجئة ولا مقاطعة في العمل، فقرأت كمية ضخمة، وكتبت كتابي «مقدمة للفلسفة الرياضية» وبدأت في آخر هو «تحليل العقل»، وكنت على شيء من الشغف والاهتمام بزملائي السجناء الذين بدا لي أنهم ليسوا أدنى من سائر الناس خلقًا، وإن كانوا على الجملة أقل قليلًا في مستوى الذكاء، كما يدل على ذلك أنهم ضبطوا. والسجن عقوبة صارمة مكربة لمن يسجن في غير القسم الأول، لا سيما إذا كان ممن تعودوا القراءة والكتابة، ولكن بفضل آرثر بالفور لم يكن الأمر

(١) الإيرل جيمس آرثر بالفور (١٨٤٨ - ١٩٣٩): فيلسوف وسياسي بريطاني تولى وزارة الخارجية بعد لورد جراي في حكومة لويد جورج في أثناء الحرب العظمى، وفيها أعطى اليهود وعده المشهور بإنشاء وطن قومي لهم تحت حكومة الانتداب في فلسطين، ذلك الوعد الذي فسره اليهود وجاريناهم في توسيع مضمونه حتى جعلوه وعدًا بدولة لهم.

معني كذلك، ولقد حياني عند قدومي حارس الباب المكلف بأخذ المعلومات عني، فلما سألني: «ما ديانتك؟»، قلت له: «لا معرفي»^(١)، فسألني كيف هجاؤها وتنهده وهو يقول: «طيب، هناك أديان كثيرة وإن كنت أظن أنها جميعاً تعبد إلهاً واحداً». وقد أنعشتني هذه الملحوظة مدة أسبوع على التقريب.

وخرجت من السجن في سبتمبر سنة ١٩١٨ بعد أن اتضح أن الحرب منتهية بعد قليل. وكنت بنيت، كما فعل كثير غيري، آمالاً على ولسن^(٢) ونقطه الأربع عشرة وعصبة أممه. وجاءت نهاية الحرب سريعة ومسرحية لدرجة لم تمكن أحداً من أن يكيف مشاعره للظروف المتغيرة. فقد علمت في صباح الحادي عشر من نوفمبر قبل بقية الأمة ببضع ساعات أن الهدنة قادمة، فخرجت إلى الشارع وأخبرت جندياً بلجيكيّاً بالخبر فقال: «الله، هذا جميل» ودخلت محل بائع تبغ، وقلت للمرأة التي توفرت لخدمتي، فقالت: «إنني مسرورة لهذا؛ إذ نستطيع الآن أن نتخلص من الأسرى الألمان». فلما أعلنت الهدنة فعلاً في الساعة الحادية عشرة كنت في شارع توتنهام كورت، وفي ظرف دقيقتين اثنتين كان كل الناس قد بارحوا دكاكينهم ومكاتبهم إلى الطريق، وراحوا يوجهون الحافلات (عربات الأوتوبيس) إلى حيث يهودون. وقد رأيت رجلاً وامرأة غريبين أحدهما عن الآخر تماماً يتلاقيان في وسط الطريق ويقبل أحدهما الآخر وهما يعبران الطريق. لقد فرح الجمهور وفرحت أنا أيضاً، غير أنني

(١) تلك هي الترجمة التي اخترتها لكلمة Agnostic، وهي تختلف عن المؤمن بآلهة الأديان والمؤمن بآلهة غير آلهة الأديان وعن الملحد بكل إله، كما تختلف عن اللا أدريّة Scepticism لأن هذه تعتقد أن الإنسان لا يملك وسيلة للمعرفة، وليس راسل من هذا النوع، وهو الباحث المعجّد عن اليقين، ولكنه في أمر الله قد قصر مذهبه عن أن يصل إلى برهان رياضي قاطع بوجوده، فلا هو مؤمن بوجوده عن بينة ولا كافر بوجوده عن بينة ولا مسلم بما لم يقدّم عليه دليل.

(٢) توماس ودر ولسون (١٨٥٦ - ١٩٢٤) الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية، والمبشر بالسلام وتقرير المصير وعصبة الأمم، والذي فشل في الخارج وفي الداخل وأصبح مكانه في التاريخ وفي بني وطنه مكان النبي المبشر بعقيدة لا مكان السياسي المحقق للعقيدة والممارس للواقع العملي.

كنت لا أزال معزولاً عن الجميع.

ملحوظة: نَمَى إِلَيَّ، عن سيدة حضرت اجتماع كنيسة الإخوة في سوثجيت - في المناسبة المشار إليها في ص ٤٩ - أن التي تصرفت ذلك التصرف النبيل هي سيلفيا بانكهرست، وليست المسز سنودن. وأظن، على الرغم من وضوح الحادثة في ذاكرتي، أن الخطأ غير مستحيل.



من المنطق إلى السياسة

نفضتني الحرب العالمية نفضة أخرجتني عن ميولي، وجعلتني أعيد النظر في عدد من المسائل الأساسية، ولكنها هيأت لي أيضًا نوعًا جديدًا من النشاط لم أشعر نحوه بشعور التفاهة والابتذال الذي كان يقلقني كلما حاولت أن أعود إلى المنطق الرياضي، وهكذا تعودت أن أنظر إلى نفسي في صورة فاوست طبيعي لا يعلو على نطاق البشر، تقف منه الحرب العالمية الأولى موقف مفستوفيليس.

فبالرغم من أنني لم أنصرف كلية عن المنطق والفلسفة المجردة، إلا أنني أخذت أزداد انغماسًا في المسائل الاجتماعية، ولا سيما أسباب الحرب والوسائل الممكنة لتفاديها ومنعها. ولقد وجدت أن جهدي في هذه المسائل أصعب بكثير وأقل نجاحًا بكثير من جهدي السابق في مسائل المنطق الرياضي، فهي أصعب لأن منفعتها تتوقف على الإقناع، ولم يكن تمريني السابق وخبرتي لتساعداني أي مساعدة في فن الإقناع.

لقد كنت طوال حياتي مهتمًا بالمسائل الاجتماعية، وكنت أشعر بالذعر بنوع خاص من القسوة التي جعلتني عدوًا كارهاً للحرب، وقد مضى زمن عليّ في العقد الأخير من القرن الماضي كنت فيه بتأثير آل سدني ويب استعماريًا على معنى يقل

ويزداد، كما كنت في مبدأ الأمر أناصر حرب البوير، إلا أنني عانيت في أوائل سنة ١٩٠١ تجربة ليست قليلة الشبه بما يسميه المتدينون: «ردة»؛ فلقد شعرت على حين فجأة وبشكل حيوي بالعزلة التي يعيش فيها معظم الناس، كما شعرت بالرغبة الجامحة في أن أجد السبل التي تحد من هذه الوحدة المؤسسية، وفي ما لا يزيد على بضع دقائق غيرت رأيي في حرب البوير، وفي غلظة نظم التعليم، وفي القانون الجنائي، وفي التناحر في العلاقات الخاصة بين الناس، فعبرت عن خلاصة هذه التجارب في مقالة «عبادة الحر»، إلا أنني كنت مستغرقاً مع صديقي هوايتي في مجهودنا الهرقلي في كتابة «المبادئ الرياضية Principia Mathematica»، ذلك الكتاب الذي استنفد منا أكبر قدر من طاقتنا لمدة عشر سنوات. وقد أدى بي الانتهاء من هذا الكتاب إلى شعور جديد بالحرية العقلية، وبذلك أعدني عقلياً وعاطفياً لإعادة توجيه أفكاري التي اقتضاها اندلاع تلك الحرب.

وفي أثناء الأيام الأولى من الحرب، بدتني أهمية الارتباط الوثيق بين السياسة وبين النفسية الفردية، فإن ما تتفق الجماهير على فعله هو نتيجة العواطف والانفعالات التي يحسونها مجتمعين، وهي كما اضطرت على حين غفلة أن أتبينها، تختلف اختلافاً كلياً عما يؤكده معظم أصحاب النظريات السياسية. وقد كنت حتى ذلك الحين على جهل تام بالتحليل النفسي، ولكن ملاحظة الجماهير المتعطشة للقتال قد أوحى إليّ بأفكار تتسق كثيراً مع أفكار المحللين النفسيين - كما اكتشفت فيما بعد - ورأيت أنه لا يمكن أن يبنى عالم مسالم على أساس من أهل يتمتعون بالقتل والقتال، وأظن كذلك أنني رأيت أنواع الهزيمة الداخلية والخارجية التي تدفع الناس إلى نزعات العنف والقسوة، وبدا لي أنه لا يمكن إقامة إصلاح ثابت ما لم تتغير مشاعر الأفراد. إن مشاعر الراشدين حصيلة أسباب كثيرة؛ منها تجارب الطفولة ومنها التعلم ومصارع الاقتصاد والنجاح والفشل في العلاقات الخاصة، فعلى

الجملة يكون الناس عطوفين أو معادين في مشاعرهم نحو إخوانهم بقدر مشاعرهم نحو حياتهم ونصيبها من الفشل والنجاح، ولا ينطبق هذا طبعًا على كل فرد على حدة، فهناك قديسون يتحملون المصائب بغير مرارة الحسرة، وهناك متوحشون لا يلفظ وحشيتهم أي نجاح، إلا أن السياسة تعتمد أساسًا على كتلة البشر العاديين، وهؤلاء يتوحشون ويعطفون حسب مقتضيات الظروف. وقد اقتنعت اقتناعًا راسخًا منذ تلك الأيام الأولى من شهر أغسطس سنة ١٩١٤ أن التحسن الثابت الوحيد في شؤون البشر، إنما يكمن في زيادة مشاعر العطف والرحمة ونقص مشاعر الهمجية والتوحش.

فلما زرت روسيا في سنة ١٩٢٠، وجدت فيها فلسفة تختلف اختلافًا كبيرًا عن فلسفتي، تقوم على أساس من الحقد والبطش والقوة الطاغية، ولقد انعزلت من قبل عن الرأي التقليدي (المحافظ) بسبب آرائي عن الحرب، وهأنذا أنعزل عن رأي اليسار بسبب الفزع العميق لما كان يحدث في روسيا، وظللت في هذه العزلة السياسية حتى آن لأصحاب الرأي اليساري في الغرب أن يتبينوا قليلًا قليلًا أن الشيوعيين الروس لم يكونوا يقيمون فيها فردوسًا على الأرض.

لقد وجدت خطأين جسيمين فيما أعتقد في الفلسفة الماركسية كما تفسرها وتطبقها موسكو: أحدهما نظري والآخر وجداني. فأما الخطأ النظري فهو في جوهره اعتقادهم أن الصورة الوحيدة الممقوتة لتسلط الإنسان على أخيه الإنسان هي التسلط الاقتصادي، وأن هذا التسلط الاقتصادي يتناسب في الاتساع تناسبًا مطردًا مع الملكية، وهكذا تتجاهل هذه النظرية الصور الأخرى للتسلط، كالتسلط العسكري والتسلط السياسي وتسلط الدعاية، كما أنها تنسى أن قوة المنظمة الاقتصادية الكبيرة تتركز في مجلس إدارة صغير العدد، ولا تتوزع بين جميع الملاك الاسمين أو حملة الأسهم، وهكذا افترضوا أن كل استغلال وضغط سيتلاشى حينما تصبح

الدولة صاحبة رأس المال الوحيد، متغافلين عن أن هذا سيسبغ على موظفي الدولة كل سلطات الضغط التي كانت في يد الرأسماليين الأفراد. أما الخطأ الثاني، وهو المتعلق بالمشاعر والوجدان، فإنه في جوهره زعمهم أن الحالة السعيدة الصالحة يمكن تحقيقها بحركة أساسها ودافعها الحقد والمقت. إن أولئك الذين يستوحون الحقد على الرأسماليين وملاك الأرض قد اكتسبوا عادة الحقد، ولهذا يبحثون بعد انتصارهم على هؤلاء عن شيء جديد يحقدون عليه، ومن هنا نجمت حركات التطهير ومذابح القوزاق ومعسكرات السخرة وفاقاً للطبيعة النفسانية: وإني لأعتقد أن لينين وأنصاره الأولين إنما كانت تحفزهم الرغبة في نفع البشرية، ولكن الخطأ السيكولوجي والخطأ في النظرية السياسية قد أديا بهم إلى خلق جحيم بدلاً من الفردوس المنشود، وكان هذا درساً لي عميق الأهمية في ضرورة التفكير الصحيح والشعور المستقيم، إذا كان لنا أن نحقق نتائج صالحة في تنظيم العلاقات الإنسانية.

وبعد زيارتي القصيرة لروسيا، قضيت قرابة عام في الصين حيث شعرت شعوراً حياً أكثر من ذي قبل بمشكلات آسيا المتشعبة، فقد كانت الصين حينئذ في حالة فوضى؛ إذ بينما كان في روسيا حكم أكثر من اللازم، كان في الصين حكم أقل من اللازم، وقد وجدت كثيراً من التقاليد الصينية يدعو للإعجاب، ولكن كان من الواضح أنه لن يستقر شيء منها بعد هجوم المطامع الغربية واليابانية عليها، وقد توقعت تماماً أن أرى الصين وقد تحولت إلى دولة صناعية حديثة تضارع في وحشيتها وروحها العسكرية تلك القوى التي اضطرت إلى مقاومتها، كما توقعت أن الزمن سيتمخض عن ثلاث دول قوية في العالم وحسب هي: أمريكا وروسيا والصين، وأن الصين الجديدة لن تتمسك بفضائل الصين القديمة، وهي تنبؤات آخذة في التحقق الآن.

ولم أتمكن في يوم من الأيام من أن أصدق بكل قلبي أن ثمة عقاراً سحرياً بسيطاً يشفي من كل الأدواء، بل على العكس كنت دائماً أظن أن أحد الأسباب الرئيسة

للمتاعب في هذا العالم هو الاعتقاد الجازم المتعصب في عقيدة ما، لم يقم عليها دليل، فقد أنتجت لنا القومية والفاشية والشيوعية وعداوة الشيوعية في الوقت الحاضر حصيلتها من المتعصبين العمي المستعدين للقيام بكل مفرع لم يخطر على بال، في سبيل مصلحة عقيدة ضيقة أو سواها، فإن جميع هذه العصبية تشترك بدرجات متفاوتة من القلة أو الكثرة في النقيضة التي ظهرت عليها في ماركسية موسكو، وهي أن كل القوة المحركة لها إنما ترتد إلى الحقد والكراهية إلى حد كبير.

ولكن تشوقت طوال حياتي إلى أن أجرب ذلك الشعور بالاندماج في الكتل البشرية الكبرى، الذي يشعر به أفراد الجماهير المتحمسة، وكثيراً ما كان هذا الشوق من القوة بحيث يقودني إلى خداع نفسي، فكم تخيلت نفسي في صورة أحد الأحرار أو أحد الاشتراكيين أو أحد السلميين، ولكنني لم أكن أي واحد من هؤلاء على معنى عميق، فقد كان العقل الشكّك دائماً يهمس بالشك في نفسي حينما أكون على أحر رغبة في أن أسكته، ويقطع ما بيني وبين الحماسة السهلة عند الآخرين ويحملني عنوة إلى الوحدة الموحشة، ففي أثناء الحرب الأولى حينما كنت أعمل مع الكويكرز وأنصار عدم المقاومة والاشتراكيين، وحينما كنت على استعداد وطيب خاطر أن أقبل السمعة السيئة وما يلزمها من مضايقات، كنت أقول للكويكرز إنني أعتقد أن كثيراً من حروب الماضي لها ما يبررها، وأقول للاشتراكيين إنني أخشى طغيان الدولة، وكانوا ينظرون إليّ شزراً، ويشعرون بأنني لست واحداً منهم وإن استمروا في الاستعانة بي. ولطالما شعرت منذ طفولتي بالأكراة بألم العزلة الذي يكمن تحت كل شغل وكل لذة، إلا أن هذا الشعور بالعزلة قد أخذ يخف منذ سنة ١٩٣٩؛ إذ كنت خلال السنوات الخمس عشرة الماضية على وفاق في الكليات مع معظم مواطني حول المسائل الهامة.

ولقد تطور العالم منذ سنة ١٩١٤، وسار في سبل تختلف عما كنت أرجوه

له، فزادت حدة العصبية القومية كما زادت الروح العسكرية، بينما نقصت الحرية وأصبحت مناطق كثيرة من العالم أقل حضارة مما كانت، وأدى النصر في حربين عظيمتين إلى نقص ذريع في الطيبات التي حاربنا من أجلها، وصارت الأفكار والمشاعر كلها واقعة تحت ظل الخوف من حرب جديدة أسوأ من كل من سابقتها، فليس لممكنات التخطيم العلمي من حدود ترى، ولكن على الرغم من كل هذه الأسباب التي تدعو للتوجس، هناك دواع، وإن كانت أقل وضوحًا، للأمل الحريص، فقد أصبح من الممكن فنيًا وصناعيًا في الوقت الحاضر أن يُوحّد العالم وأن يُقضى على الحرب قضاء مبرمًا، كما أصبح من الممكن فنيًا وصناعيًا أن يُقضى على الفاقة نهائيًا، وهذه أغراض يمكن تحقيقها إذا ابتغى الناس سعادتهم أكثر من ابتغائهم شقاء الآخرين. لقد كانت هناك عوائق مادية في سبيل رفاهية البشرية، أما الآن فإن العوائق في النفوس وحدها؛ إذ لا يقف بيننا وبين السعادة الأبدية إلا المقت والسخافة والخرافات الخاطئة، وما دامت هذه قائمة، فإنها تتهددنا بالكوارث التي لم يسبق لها مثيل، ولكن ربما كان اتساع مدى الخطر وحده كافيًا بإلقاء الرعب في هذا العالم، رعبًا يعيده إلى الصواب.



عقائر

ملقاة ومستبقاة

شرعت في ابتداع فلسفة خاصة بي في خلال سنة ١٨٩٨، حينما ألقيت جانباً بفلسفة هيغل بتشجيع من صديقي جورج إدوارد مور. إنك إذا راقبت حافلة تقترب منك في ظلام ضباب لندن المعتم فستلمح أولاً كتلة مهوشة من ظلام داكن، ثم تبدأ شيئاً فشيئاً في تمييزها على أنه عربة وتميز أجزائها وركابها، واعتقاد هيغل أن لمحتك الأولى للكتلة الغامضة من الظلام أصبح وأدق من النظرة التالية؛ لأن هذه النظرة التالية من وحي النوازع المضللة للعقل التحليلي. وهذا رأي لا يحسن موقعه في نفسي بطبيعة جبلتها، لأنني أوتر، كما كان يؤثر الفلاسفة اليونان الأقدمون، الحدود القاطعة والفواصل المحددة التي تجود بها مناظر الطبيعة اليونانية. فلما عزفت عن هيغل أول ما عزفت، سرني أنني أصبحت قادراً على الإيمان بالكثرة البالغة في عالم الظاهر وجادلت نفسي قائلاً: إن هيغل يقول: «لا وجود إلا للواحد، ولكن هناك اثنتي عشرة مقولة حقيقية في فلسفة كانط»، ولربما بدا من الغرابة بمكان أن هذا المثل من التعدد بالذات هو الذي فرض نفسه عليّ، ولكني هنا على كل حال إنما أسجل الوقائع بغير تحريف.

وظللت بضع سنوات بعد أن ألقيت هيجل جانبًا وفي ذهني ثورة متفائلة قوامها عقائد مضادة لعقائده، فقد كنت أعتقد أن كل ما أنكره هيجل لا بد أن يكون صحيحًا، فما دام يعتقد أن ليست هناك حقيقة مطلقة وأن أقرب ما يقترّب من الحقيقة المطلقة هو الحقيقة عن المطلق، وأن هذه نفسها ليست حقيقة كاملة؛ لأنها تفصل فصلًا لا لزوم له بين العارف والمعروف، إذن فلا أعتقد أنا في ثورتي عليه في وجود عدد لا حصر له من الحقائق المطلقة، وعلى الخصوص في الرياضيات. وما دام هيجل يظن أن كل انفصال وهم باطل وأن الكون أشبه بوعاء دبس (عسل البلح) منه بكومة شظايا، فلاؤمن من جانبي، بأن الكون لا يشبه إلا كومة الشظايا، وكل شظية منها حسب اعتقادي في ذلك الوقت تتحدد بحدود متصلة دقيقة، وأن كل واحدة منها مطلقة مساوية في إطلاقها مطلق هيجل، وما دام هيجل يدعي أنه قد أثبت بالمنطق أن العدد والمكان والزمان تصورات من صنع الوهم، فقد كونت لنفسي منطقيًا جديدًا يمكنني من الاعتقاد بأن التصورات حقائق تبلغ من الحق كل ما يتمناه الرياضي. وفي سنة ١٩٠٠ ألقيت بحثًا على مؤتمر فلسفي في باريس، حاججت فيه عن رأيي بأن هناك في الحقيقة الواقعية نقطًا ولحظات، واعتنقت على الجملة رأيًا مؤداه أنه حيثما أدحض دليل هيجل على عدم وجود شيء ما، فلا بد من افتراض وجود هذا الشيء بالفعل، أو على الأقل حينما يكون زعم وجوده مناسبًا لأغراض الرياضي. لقد سمح فيثاغورس وأفلاطون لنظراتهما في الكون أن تتشكل بالرياضيات، فتقفيتهما طرِبًا مسرورًا.

في هذا الفردوس من وضوح البحر المتوسط، قام هوايتهد بدور الحية، فقد قال لي ذات مرة: «إنك ترى العالم كما يتراءى لك في ظهيرة يوم مشرق بديع، أما أنا فإنني أراه كما يبدو في بكرة الصباح ساعة يصحو المرء من نوم عميق». وبدت لي هذه الملاحظة فظيعة، بيد أنني لم أجد أي دليل يرجح رأيي على رأيه، وأخيرًا أطلعني

على كيفية استعمال فن المنطق الرياضي في عالمه هذا الغامض المختلط، وكيف يلبسه ثياب يوم الأحد كيما ينظر إليه بغير نفور. ولقد ابتهجت بمعرفة هذا الفن منه، ولم أعد أتمسك بأن تكون الحقيقة العارية أصلح من الكاسية في ثيابها الرياضية التي تشبه ثياب يوم الأحد.

وبالرغم من أنني ما زلت أظن أن هذه هي الطريقة الصحيحة علمياً لمعالجة العالم إلا أنني قد أصبحت أعتقد أن هذه اللغائف الرياضية والمنطقية التي تتدثر بها الحقيقة المجردة تصل إلى أعماق أبعد مما كنت أفترض، وأن ما كنت أظنه يوماً ما بشرة ليس إلا ثوباً محكم التفصيل. خذ لذلك مثلاً الأعداد: إنك حينما تحسب، تحسب «أشياء»؛ ولكن «الأشياء» اختراع إنساني اخترع لراحة الإنسان، وإذا لم يتضح هذا على وجه الأرض فلأن انخفاض الحرارة فوق الأرض يمكن من وجود درجة معينة من الاستقرار الظاهري، ولكن الأمر يتضح انضاحاً تاماً إذا أمكن للإنسان يوماً أن يعيش على وجه الشمس حيث لا يوجد فوقها إلا دوامات دائمة التغير من الغاز، فلو كنت تعيش على الشمس، لما خطرت على ذهنك فكرة الأشياء ولا مر بخلدك يوماً أن تحسب حيث لا شيء يُحسب هناك، وفي مثل هذه البيئة تصير فلسفة هيكل هي ما يدركه الحس المشترك، ويصبح ما نظنه الآن إدراك الحس المشترك تأملات ميتافيزيقية جامحة.

هذه التأملات وما شاكلها أدت بي إلى الظن بأن الدقة الرياضية حلم إنساني لا صفة لحقيقة يمكن معرفتها على التقريب، وأخذت أعتقد أن ثمة ولا شك حقيقة مضبوطة لكل شيء وإن صعب أو استحال التحقق منها، افرض مثلاً أن لديك قضيباً تعلم أنه يبلغ في الطول حوالي ياردة، هنالك في أيامي السعيدة حينما كنت على إيماني الرياضي كنت أقول يقيناً إن هذا القضيب إما أن يكون أطول من ياردة أو أقصر من ياردة أو ياردة بالضبط، أما الآن فلا بد أن أعترف بأن بعض القضبان يمكن

أن تكون أطول من ياردة وأن بعضها الآخر يمكن أن يكون أقصر من ياردة، ولكن لا واحد منها يمكن أن يعرف معرفة اليقين بأنه في طول الياردة تمامًا وبالتحديد، بل الحقيقة أن جملة «ياردة بالتحديد» ليس لها معنى بالتحديد، إن فكرة «الضبط» خرافة يونانية قديمة وضعها أفلاطون في السماء، وكان على صواب في ظنه أنها لن تجد لها مأوى على الأرض، وهذا ما أسفني بسبب روعي الرياضية التي تتجاوز بطبيعتها مع آراء فيثاغورس وأفلاطون، وإني لأحاول أن أعزي نفسي بأن الرياضيات لا تزال هي الأداة الضرورية للسيطرة على الطبيعة، فإنك إن كنت تريد أن تصنع بارجة أو قنبلة، أو أردت أن تستلحق نوعاً من القمح ينضج في مناطق شمالية أبعد من مناطقه الراهنة، فلا شك أنك ستلتمس غرضك في الرياضيات. إنك تستطيع أن تقتل إنساناً بمقصلة أو بمبضع جراح، فكلاهما فعال في هذا الغرض، والرياضيات التي كانت تبدو كمبضع الجراح هي في الواقع أقرب إلى المقصلة، وإن لم تبدُ عليها كل جلافة المقصلة إلا في تطبيقها على عالم الواقع، أما في محيطها الخاص فإنها تستبقي أناقة تحديد مبضع الجراح، وإذنْ فعالم الرياضيات والمنطق لا يزال في مجاله الخاص ممتعاً، إلا أن مجاله الخيال، وإذنْ فلا بد أن تبقى الرياضيات مع الموسيقى والشعر في نطاق الجمال المصنوع وليس في تراب العالم وأحواله.

قلت منذ لحظة إني أصبحت في ثورتي على هيجل أظن أن العالم أقرب إلى كومة الشظايا منه إلى وعاء الدبس، وما زلت أعتقد أن هذه النظرة في جملتها صحيحة، إلا أنني تبينت بالتدريج أن بعض الأشياء التي كنت أظنها شظايا صلبة في تلك الكومة لا تستحق هذا التكريم. ففي مطلع إيماني بالذرات المنفصلة، اعتقدت أن كل كلمة يمكن استعمالها استعمالاً ذا دلالة لا بد أن تدل على شيء ما^(١) وحملت هذا التعبير

Something. (١)

على معنى أنها تدل على شيء^(١) ولكن الكلمات التي تعني المنطقة صعبة التفسير من وجهة النظر هذه، فهناك كلمات على مثال «إذا» و«أو» و«لا» حاولت أن أومن بأن ثمة أشياء في حظيرة بعض المنطقة تدل عليها هذه الكلمات، وربما التقى بها بعض أفاضل المنطقة في عالم آخر أكثر منطقية من عالمنا هذا، وأحسست بشيء لا بأس به من الرضى في أمر «أو» و«إذا» و«لا»، ولكنني ترددت في أمر الكلمات التي تشبه «على الرغم من». وقد احتوت حديقة حيواناتي الغريبة هذه على بعض المردة الشواذ جدًا من قبيل «الجبل الذهبي وملك فرنسا الحالي»، وهي مردة، وإن كانت تعيش في حديقتي كما تهوى، إلا أنها تختص بخاصة عدم الوجود. ولا يزال هناك عدد من الفلاسفة يؤمنون بمثل هذه الأشياء، وإيمانهم هذا هو الذي أصبح أساس الفلسفة الوجودية. أما أنا فقد أصبحت أعتقد أن كثيرًا من الكلمات والتعابير لا دلالة لها بمفردها، بل تكون دلالتها في سياق الجملة الكاملة، ولهذا كففت عن الرجاء في أن ألتقي في السماء «بإذا» و«أو» و«لا»، وتمكنت من الرجوع بطريق ملتو من التعقيدات الفنية إلى آراء أقرب جدًا إلى آراء الحس المشترك من تأملاتي السابقة.

ولكنني على الرغم من هذه التغيرات والتحويلات، ما زلت أستبقي جانبًا كبيرًا من المعتقدات المنطقية التي كنت أعتقد أنها منذ خمس وخمسين سنة^(٢)، فما زلت مقتنعا أن العالم مصنوع من عدد ضخم من الأجزاء، وأن كل جزء منها، جهد ما يستطيع المنطق أن يبدي، يمكن أن يكون تمامًا كما كان، حتى ولو لم توجد أجزاء أخرى، وما زلت أرفض كلية حجة هيجل بأن الحقيقة كلها ذات طابع عقلي، ولا أظن أن في مقدور امرئ أن يزعم ما هي الحقيقة وكيف يجب أن تكون؛ إذ حينما أفنعني هوايتهد بأن مكان الرياضي وزمانه أدوات مصقولة من صنع الإنسان، لم يقنعني -ولا أظن أنه

Some Thing. (١)

(٢) كتب هذا سنة ١٩٥٦.

هو نفسه كان يؤمن - بعدم وجود شيء في الطبيعة صُنعت منه هذه الأشياء. وما زلت أعتقد أن ما يمكننا أن نعرفه عن العالم الخارج عن أفكار الأحياء ومشاعرهم، إنما نعلمه بطريق العلم (التجريبي) الطبيعي، وما زلت أعتقد أن ما يمكننا أن نعلمه عن العالم إنما يتأتى لنا علمه بالملاحظة لا بالحجج المعقدة عما يجب أن يكون عليه.

وطوال الفترة التي كنت مشغولاً فيها انشغالاً أولياً بالمنطق الرياضي، كنت شديد الاهتمام أيضاً بالمسائل الاجتماعية، وكنت أشغل بها نفسي في أوقات الفراغ. وقد قمت بحملة ضد الإصلاح الجمركي، وبحملة في صالح الحق الانتخابي للنساء، ورشحت نفسي للبرلمان، وعملت في الانتخابات العامة. إلا أن المسائل الاجتماعية لم تصبح هي الأولى إلا في سنة ١٩١٤.



أمال

محققات ومخيبات

في خلال الاثنين والثمانين عامًا التي تقضت من عمري، تغير العالم بمثل القدر الذي تغير به في أي فترة تساوي هذه الفترة من التاريخ، إن لم أقل أكثر من مثل هذا القدر. لقد كان له في صغرى هيئة ثابتة في ظاهرها، لم يكن متوقعًا أن تتغير في جوهرها، بل يتوقع أن تتطور تدريجيًا كما تطورت إنجلترا. كانت ثمة الدول الكبرى، وكانت أوروبية، (فقد نسي معظم الناس أمر الولايات المتحدة التي كانت في النقاها بعد الحرب الأهلية)، وكانت كل الدول الكبرى ملكية فيما عدا فرنسا، وفرنسا نفسها قد كانت ملكية حتى قبيل مولدي بستتين. ولما بلغت السن التي أعني فيها أمور السياسة كان دزرائيلي رئيسًا للوزارة، وكانت الأمة منغمسة في شهر عسل الاستعمار، فقد كان ذلك هو الوقت الذي توجت فيه الملكة فيكتوريا إمبراطورة على الهند، والذي كان يتباهى فيه رئيس الوزراء بأنه قد حقق السلم وحفظ كرامة الأمة، فأما «السلم» فعدم الدخول في حرب مع روسيا، وأما «الكرامة» فاحتلال جزيرة قبرص التي تسبب لنا في الوقت الحاضر^(١) ضيقًا وحيرة من الطراز الأول، وكان

(١) سنة ١٩٥٤ - قبل استقلال جزيرة قبرص ببضع سنوات.

ذلك هو الوقت الذي نحتت فيه كلمة «Jingo» التي معناها «التقحم» فقد كانت قوة بريطانيا المتزامية تستعرض في حرب الأفغان وحرب الزولو وحرب البوير الأولى، وكنت ألقن معارضة هذه السياسة، كما أذهب بمذهب «Little Englanders» الإنجليز الصغار^(١)، إلا أن هذا المذهب لم يكن مخلصاً كل الإخلاص؛ لأن أصغر الإنجليز الصغار كان يفرح بالرفعة الإنجليزية، ولم يكن ينتقص في ذلك الوقت شيء من قوة العلية وملاك الأراضي ولا من هيبتهم، وأذكر حينما تزوج عمي من ابنة أحد كبار رجال الصناعة، أن أخذت جدتي تتباهى بما عندها من التحرر الذي يشهد عليه عدم اعتراضها على زواجه ممن تسميهم «المتمهين». أما في خارج بريطانيا، فقد كان المسيطر على المسرح ثلاث إمبراطوريات شرقية عظيمة هي الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمساوية والإمبراطورية الروسية، وما كان ثمة أحد يظن أنها إمبراطوريات زائلة، على الرغم من أن الإمبراطورية الألمانية لم تنشأ إلا قبيل مولدي بسنة واحدة، وأن الإمبراطورية الروسية (حسبما اعتقد الأحرار الغربيون) لا بد أخذة بالنظم البرلمانية الدستورية عاجلاً أو آجلاً.

نشأت على اعتقاد راسخ في الحرية المتفائلة، وكنت أرجو، وأتوقع أيضاً، أن أرى في العالم بأجمعه تدرجاً في الأخذ بالديموقراطية البرلمانية وبالحرية الشخصية وبالحرية للبلاد التي كانت - حتى ذلك الحين - واقعة تحت الحكم الأوروبي، بما في ذلك الحكم البريطاني، وكنت آمل أن يرى كل إنسان مع الزمن حكمة كوبدن^(٢) في القول بحرية التجارة، وأن تتوارى القومية بالتدريج تاركة مكانها للعالمية الإنسانية. وكان والداي بحكم تلمذهما على جون ستيوارت مل يعترضان على هضم حقوق المرأة، وتبعتهما في هذا الصدد بكل قلبي وإخلاصي. وبالرغم من ظهور النذر على

(١) Little Englanders: الساسة الذين يريدون الانقصار على إنجلترا وويلز وحسب.

(٢) رتشارد كوبدن (١٨٠٤ - ١٨٦٥): سياسي إنجليزي كبير، جاهد كثيراً في سبيل إقرار مبدأ حرية التجارة الذي كان يعارضه المحافظون مُلاك الأرض.

أفق السنوات التي سبقت سنة ١٩١٤، فقد كان من الممكن أن أبقى متفائلاً أرجو أن تنجح المحاولات الدبلوماسية في تفادي الكارثة.

فأما ما كنت أظنه صالحاً في تلك الأيام فما زلت أظنه صالحاً في الوقت الحاضر، ولكن على الرغم من أن بعضه قد حدث، فإن بعضه الآخر يبدو الآن أبعد جداً مما كان في ذلك العهد السعيد. كانت التطورات الداخلية في بريطانيا على الجملة مما أحمدته، فقد اكتملت الديمقراطية بإعطاء النساء حق الاقتراع، وأخذ بالاشتراكية المعتدلة في حدود لا تفتتت على الحرية الفردية، وأضحى التسامح في محيط الأخلاق أكثر جداً مما كان في أيام فيكتوريا، وارتفع مستوى المعيشة بين طبقة الأجراء ارتفاعاً كبيراً، وانخفضت نسبة الوفاة - وخصوصاً بين الأطفال - انخفاضاً هائلاً دون أن تخلف وراءها كارثة من زيادة السكان. كل هذه تحسينات ضخمة، ولا أكاد أشك في أن مستوى السعادة العام في بريطانيا في زمن السلم يعلو علواً كبيراً على مثيله أيام طفولتي.

إلا أننا حينما نتقل إلى الصعيد الدولي، نجد أن الصورة تختلف اختلافاً كبيراً. لقد حل محل طغيان القياصرة الذي كان يرتجف له الأحرار، طغيان أعظم منه وأقسى، وانزاحت الإمبراطورية النمساوية التي اضطهدت الأقوام الخاضعة لحكمها وكانت رمزاً للرجعية، ليخلفها اضطهاد أعنى تفرضه موسكو. وأصبحت الصين، بعد فترة طويلة من فوضى الهوى (افعل حسبما تهوى) تنصهر في بوتقة هائلة من الشقاوة والعناء لتصاغ في هيئة سلاح لا نهائي الضخامة من القوة العسكرية. والولايات المتحدة التي كانت قبلة التحرر في نظر أبوي قد أصبحت في خطر من أن تصبح على النقيض من هذا - وإن كان لا يزال هناك أمل في أن تتفادى هذا الخطر. وفوق كل هذا ذلك الفرع الأكبر المعلق على رؤوس الناس من الحرب الذرية.

ولكن عالمنا هذا يبلغ به الاختلاف عن عالم التفاؤل على عهد فيكتوريا مبلغاً لا يسهل معه على رجل نشأ في أقدمهما أن يكيف نفسه مع تاليهما؛ إن هناك ما

يغري بترك الآمال التي يبعد ويصعب تحقيقها، وإن في إعياء الفشل الموقوت لما قد يشعر بعدم الجدوى في المحافظة على الإيمان بالقيم التي كانت لا تقوم بشيء زماناً ما. ربما كانت الإنسانية لا تستحق أكثر من سجن دقيق النظام -أو هذا على الأقل ما يهمس به الشيطان في لحظات الغمة والفتور- لولا أن شيئاً من الاعتزاز الدفين يثور على مثل هذه الهوائف المخاتلة، وما أنا بالذي يخضع حكمه على الخير والشر لوشي عارض من حوادث موقوتة. لم ولن أمتدح جيوش العبيد لأنها تكسب المعارك. إن المخاطر جديدة، وأن ما يطلب لتفاديها لم يسبق له نظير، ولكن هذا لا يدعو المرء إلى تغيير تقديره لما تصلح به الحياة أو تصلح به الجماعات.

إن الاستعداد للتكثيف مع حقائق الحياة فضيلة في نظر الكثيرين، وإنه لذلك أحياناً، فإن إغماض الأعين عن الحقائق وإنكارها رذيلة لا شك فيها، ولكن يماثلها شراً كذلك أن تفترض أن كل شيء يعلو نجمه لا بد أن يكون صواباً، وأن الأخذ بالحقائق معناه الخنوع للشر، ولما هو أشنع من الخنوع للشر، وذلك هو خداع النفس الذي ينكر أنه شر. إنني إن وجدت الحرية الفردية تنتقصها التكتلات في كل مكان، فلن أظاهر بأن التكتل شيء حسن. ربما كان ذلك شيئاً ضرورياً بعض الوقت، ولكن لا يصح للمرء -لهذا السبب- أن يطمئن إليه على أنه جزء من أي مجتمع يحق للمرء أن يعجب به.

إنني ما زلت أريد، وما زلت آمل أن تتحقق للفرد وللجماعة كليهما تلك الأشياء التي كنت أظن بها الخير في صغري، وأظن أن أولها الطمأنينة من الكوارث العظمى كالتي تهددنا بها الحرب الحديثة، وأظن أن ثانيها القضاء على الفقر المدقع في العالم أجمع، وأن ثالثها، نتيجة للاطمئنان وارتفاع مستوى المعيشة، هو انتشار التسامح والمشاعر الحسنة نحو الآخرين، ورابعها إتاحة أكبر فرصة ممكنة أمام الفرد ومشروعاته الفردية ما دامت لا تضر بالجماعة. وهي كلها أشياء ممكنة التحقيق،

وأنها ستتحقق إذا رغب في تحقيقها الناس. وإلى أن تتحقق، سيظل الناس في حمأة الضغينة المنظمة وتحت التهديد المتبادل بالفناء. ولا شك بتأتا في أن الناس سيتعبون إن عاجلاً أو آجلاً من هذه المعيشة المقلقة؛ لأن الإنسان الذي يعيش مثل هذه المعيشة في خاصته يظن به الجنون، فإني إذا اشتريت مسدساً ورحت أهدد جاري بإطلاقه عليه، فلا جرم أن يشتري هو الآخر مسدساً يحمي به ذماره ونفسه إن كان يعيش في عالم ليس فيه قانون ولا شرطي، ولسوف يجد كلانا الحياة أقل سروراً مما هي الآن بقدر كبير، ولكننا لن نكون في تصرفنا هذا أكثر حمقاً من دول الوقت الحاضر التي تهتدي -جدلاً- بأحكام هدى تفتق عنه ذهن الإنسان.

فإذا أتيت إلى ما يمكنني عمله أو ما يجب عليّ عمله إزاء الموقف الدولي، أجد نفسي أمام رأيين، فإن في ذهني حجتين تصطرعان بين وجهتين مختلفتين للنظر سأطلق على إحدهما «محامي الشيطان» وأطلق على الأخرى «الداعية الجاد». لقد ظلت عائلتي أربعة قرون على أهمية كبيرة في الحياة العامة في إنجلترا، ونشأت أشعر بالمسؤولية في أن أعبر عن رأيي في المسائل السياسية، وهو شعور تمتد جذوره في نفسي إلى أبعد مما يسمح به العقل الحصيف، وما أسميه صوت «محامي الشيطان»، على الأقل في أحد جوانبه، هو صوت هذا العقل الحصيف، الذي يقول لي شامتاً: «ألا ترى أن ما يحدث في العالم لا يعتمد عليك؟ لئن كان البشر أن يعيشوا أو أن يموتوا، فذلك مرهون بمشيئة خروتشوف وماوتسي تونج والمستر جون فوستر دالاس^(١)، وليس بمشيئة الفانين من جملة عباد الله مثلك ومثلي، هؤلاء هم الذين إذا قالوا لنا: «موتوا» نمت، أو قالوا لنا: «حيوا» نحى. إنهم لا يقرأون كتبك يا عزيزي، ولئن قرأوها لظنوا بها السخافة والتفاهة، ولكنك تنسى أنك لا تعيش في سنة ١٦٨٨

(١) نيكيتا خروتشوف (١٨٩٤ - ١٩٧٣) سكرتير الحزب الشيوعي والحاكم بأمره في روسيا -وماوتسي تونج (١٨٩٣ - ...) زعيم الصين الشعبية - وجون فوستر دالاس (١٨٨٨ - ١٩٥٩) وزير خارجية الولايات المتحدة في حكومة إيزنهاور.

حينما قدمت أسرتك وبعض الأسر الأخرى إنذارًا للملك واستأجرت ملكًا آخر، وما أظنه إلا فشلًا ذريعًا منك في أن تتمشى مع العصر الذي يصدع رأسك بالشؤون العامة». ومن يدري ربما كان محامي الشيطان على صواب، ولكن ربما كان أيضًا على خطأ. وربما لم يكن الحكام بأمرهم بالقوة التي تبدو لهم، وربما أمكن للرأي العام بعد، أن يديل منهم، ولو إلى حد ما، وربما أمكن للكتب أن تساعد على خلق رأي عام.. وإذن فلأستمر رغم نزغاته، فإن لشدته حدودًا، وإنه ليقول: «حسنًا، على كل حال كتابة الكتب شغل بريء يبعدك عن طريق الأذى»، وهكذا أمضي في كتابة الكتب، وإن لم أكن على يقين العلم بأن هذا سيعقب خيرًا.



كيف تشيخ؟

(سبق نشرها في «آمال جديدة لعالم متغير»)

على الرغم من عنوان المقال، فإنه في الحقيقة يبحث في «كيف لا تشيخ»، وهو موضوع تزداد أهميته خصوصًا في مثل عمري. إن نصيحتي الأولى في هذا الصدد هي أن تختار والديك بغاية العناية، أما أنا فقد وفقت من جانبي -برغم موت والدي صغيرين- في اختيار بقية أسلافي. نعم إن جدي لوالدتي قد انقصف عمره وهو بعد في غضارة الشباب في سن السابعة والستين، ولكن أجدادي الثلاثة الآخرين قد أربوا كلهم على الثمانين، ولم أكتشف من بين أسلافي فيما وراء هؤلاء إلا واحدًا لم يرد إلى أرذل العمر، وإن مات بمرض تندر الإصابة به في الوقت الحاضر، ذلك هو قطع رأسه. وقد عمرت إحدى جداتي الكبار، وكانت على صداقة مع جييون^(١)، حتى بلغت الثانية والتسعين، وظلت حتى آخر أيامها مصدر رعب أعقابها أجمعين، وأما جدتي لأمي فبعد أن رُزقت بتسعة أبناء ماتت عنهم، وبواحد مات صغيرًا، وبعد كثير من الإجهاض، تفرغت عندما ترملت للعمل في التعليم العالي للنساء، فكانت إحدى مؤسسات كلية جيرتون، وكانت تعمل جاهدة لفتح ميدان الطب للنساء، وكانت تحكي قصة رؤيتها سيدًا كهلاً في إيطاليا كان يبدو عليه العبوس، فسألته عن سبب عبوسه، فقال إنه حزين لأنه قد فارق حفيديه تَوًّا، هنالك صاحبت فيه قائلة: «يا رحمة الله: إن لي اثنين وسبعين حفيدًا لو أنني حزنت لفراقي كل واحد منهم، فلا بد أن

(١) إدوارد جييون (١٧٣٧ - ١٧٩٤): المؤرخ المشهور الذي كتب تاريخ «تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها».

أعيش عابسة مدى الحياة! فأجاب بقوله: «أم تحولت عن طبيعتها»، ولكني بصفتي واحداً من أولئك الاثنين والسبعين أميل إلى تفضيل رأيها، فلما تخطت الثمانين بدأت تشعر بصعوبة النعاس، لهذا كانت تتسلى فيما بين منتصف الليل وبين الثالثة صباحاً بقراءة المبسطات العلمية، ولا أعتقد أنها كانت تفرغ أبداً لتلاحظ أنها قد شاخت، وهذا في رأيي هو السر الدفين في القدرة على استبقاء الشباب، فإذا كان لك شغف بمسائل كثيرة ونشاط للقيام فيها بعمل ذي أثر، فلن يكون ثمة ما يدعوك إلى التفكير في القيمة العددية الإحصائية لسني عمرك التي قضيتها، وبالتالي في احتمال قصر ما تبقى لك منها.

أما عن الصحة فما عندي قول مفيد أقوله؛ إذ إنني قليل الخبرة بالمرض، فأنا أكل وأشرب كل ما يترأى لي، وأنا حينما يعجزني أن أظل مستيقظاً، ولا أقوم بأي عمل كائنًا ما كان على أساس أنه صالح للصحة، وإن كان كل ما أحب أن أفعله في الحقيقة الواقعة صحيحاً في جملته.

أما من الناحية النفسية، فإن هناك خطرين يجب الاحتراس منهما في الكبر، أحدهما الاستغراق المتلف في الماضي، فلا معنى لأن يعيش المرء في الذكريات أسفاً أبداً على الأيام السعيدة الغابرة أو حزيناً على من مات من الأصدقاء. إن أفكار الإنسان يحسن أن تتجه إلى المستقبل وإلى ما يمكن أن نعمل بسبيله شيئاً ما، وليس هذا سهلاً على الدوام. فإن ماضي الإنسان عبء يزداد كل يوم ثقلًا، ومن السهل أن يظن المرء أن عواطفه كانت أكثر جيشاناً وأن عقله أشد حدة مما هما الآن، ولو كان هذا حقاً بالفعل فيحسن أن ينسأه، فإن نسيه فربما لا يكون حقاً بالفعل^(١).

أما الخطر الثاني الذي يجب الاحتراس منه فذلك هو التشبث بالشبان أملاً في

(١) أي لن تقل عواطفه جيشاناً ولا عقله حدة عما كانت عليه في أيام الشباب.

امتصاص القوة من حيويتهم، إن أبناءك إذا كبروا يريدون أن يحيا حياتهم، فإذا أصرت على الاهتمام بهم كما كنت تهتم بهم يوم كانوا صغارًا، فستغدو عبئًا عليهم إلا أن يكونوا على جانب غير مألوف من البلادة. ولست أعني بهذا ألا يهتم الإنسان بتأثراً بأمر أبنائه، ولكن يحسن أن يكون اهتمامه بهم تأملياً وإنسانياً إن أمكن، ولا يحسن أبداً أن يكون عاطفياً عارماً. إن الحيوانات لا تكثرث لأبنائها منذ اللحظة التي تتمكن فيها من العناية بأنفسها، أما الإنسان، فيصعب عليه هذا لطول مدة الطفولة عنده.

وأعتقد أن الشيخوخة الناجحة تسهل أكبر ما تسهل على الذين يهتمون اهتماماً قوياً بمسائل ليس لها الصبغة الشخصية مما يدعو إلى النشاط، فهذا هو المجال الذي تثمر فيه الخبرة الطويلة، وفيه دون غيره يمكن استعمال حكمة التجربة بغير مضايقة أو إعنات؛ إذ لا فائدة من تكرار القول للكبار من الأبناء بالألا يرتكبوا الحماقات، لأنهم لن يصدقوك من ناحية، ولأن الأخطاء عنصر جوهري في التعليم من ناحية أخرى. أما إن كنت أحد أولئك الذين لا يستطيعون الاهتمام بغير ما له صبغة شخصية، فإنك ستجد حياتك خاوية فارغة إذا لم تهتم بأبنائك وأحفادك، وفي هذه الحالة يجب أن تتأكد من أنك وإن كنت تقدر على نفعهم مادياً كأن تهبهم منحة أو تنسجي^(١) لهم صدريات، فلا يحق لك أن تتوقع منهم أن يسروا كثيراً بصحبتك.

ويعاني بعض المسنين من ضغط الخوف من الموت، وهو شعور له ما يبرره عند الشباب، فإن الشاب الذي يرى ما يدعوه للخوف من الموت في المعارك قد يشعر، وهو على حق، بالمرارة بأنه قد خدع وانتزع منه خير ما في الحياة، أما العجوز الذي ابتلى من الحياة آلامها ومسراتها وحقق ما كان يقدر أن يحقق، فإن الخوف من الموت عنده شعور دنيء لا نبل فيه، وخير طريقة للتغلب عليه -أو هذا على الأقل

(١) يبدو أن الخطاب هنا للمسنات من النساء.

ما يبدو لي - هو أن توجه اهتمامك تدريجيًا إلى مسائل أوسع نطاقًا وأبعد عن الصفة الشخصية حتى تتراجع خطوة خطوة جذران ذاتك وتذوب حياتك أكثر فأكثر في الحياة الكونية، فإن حياة الفرد الإنساني يجب أن تماثل النهر، صغيرًا محكومًا في شاطئيه في البداية، عارمًا مندفعًا يتخطى الجنادل والشلالات، ثم لا يلبث أن يتسع ويتباعد شاطئاه وتهدأ سورة تياره، حتى يصل إلى النهاية من دون انشقاق واضح مندمجًا في البحر المحيط، فاقداً بذلك وفي غير ألم فرديته المتميزة. ولن يعاني الإنسان الذي ينظر إلى حياته هذه النظرة من الخوف من الموت، ما دام ما يكرثه ويهمه من الشؤون مستمرًا في البقاء. فإذا ازداد الإعياء مع تناقص القوى الحيوية، فإن فكرة الراحة بعد العناء جديرة ألا تقابل بغير ترحيب، وإنني لأتمنى أن أموت عاملاً، عالمًا أن غيري سيستمر في أداء ما لم أستطع أن أؤديه، راضيًا قانعًا بأن ما كان ممكنًا قد تم فعلاً.



نظرات علی یوم سیلاوی الثمانین

عندما يصل المرء إلى الثمانين^(١) يصح له أن يفترض أن جل عمله قد تم، وأن ما بقي له أقل أهمية من سابقه، ولقد كان الجانب الجدي من حياتي منذ مطلعها مركزاً على غرضين مختلفين ظلاً منفصلين ولم يندمجا في كل كبير إلا منذ وقت قريب، فمن ناحية أردت أن أكتشف هل من الممكن معرفة شيء، وأن أعمل، من الناحية الأخرى، ما يمكنني عمله لخلق عالم أسعد. ولقد كرست معظم جهدي حتى سن الثامنة والثلاثين للغرض الأول، فقد كان الشك يكرمني وكنت مدفوعاً على رغمي إلى الاعتقاد أن أغلب ما نظنه معرفة مدعاة للشك، وكنت أبحث عن اليقين كما يبحث الناس عن اعتقاد الإيمان، واحتملت اليقين في الرياضة، ولكنني لم ألبث أن اكتشفت أن كثيراً من الأدلة الرياضية التي توقع أساتذتي مني تصديقها كانت مليئة بالأغاليط، وأن اليقين إن قدر له أن يوجد في الرياضة، فلا بد أنه في نوع جديد من الرياضة مبني على أساس أصلب من تلك الأسس التي يظن بها الثبات، ولكنني كلما تقدمت في إيماني أخذت تعاودني أسطورة الفيل والسلحفاة^(٢). فبعد أن أنشأت الفيل الذي يركز عليه عالم الرياضة وجدته يتأرجح ويهتز، فأخذت أنشئ له سلحفاة تعصمه من

(١) وصل المؤلف إلى هذه السن في تمام الساعة السادسة إلا ربعاً من يوم ١٨ مايو / ١٩٥٢.

(٢) في أساطير الهند أن العالم المحسوس مستقر على فيل ضخم، وإن الفيل واقف على سلحفاة جسيمة وإن السلحفاة تركز على ما لا يدريه إلا الله. والنقاد يمثلون بهذه الأسطورة لموقف الفلاسفة الذين يكتفون في تفسيرهم بإرجاع المسألة خطوة إلى الوراء بغير حل مقنع مقبول.

التهالك والوقوع، بيد أنها هي أيضًا لم تكن أكثر ثباتًا واستقرارًا منه، فجمعت أمري بعد عشرين سنة من الجهد المضني والبحث الشاق على أنه ليس في استطاعتي أنا أن أفعل أكثر مما فعلت في تخليص الرياضة من الشك. ثم وقعت الحرب العالمية الأولى فتركزت أفكارى على الإنسان وسخافته، وما البؤس ولا السخافة في نظري مقضيًا بهما على الإنسان ضربة لازب، بل إنني على يقين أن الذكاء والصبر والبلاغة بالغة بالإنسان عاجلاً أو آجلاً إلى مخرج من شكوكه التي فرضها على نفسه، إذا هو لم يقض على نفسه القضاء المبرم قبل الوصول.

وعلى أساس من هذا اليقين كنت على شيء من هذا التفاؤل دائماً، ولئن أصبح تفاؤلي مع السن أكثر بصراً وتؤدة وأصبحت أرى هذا المخلص السعيد أبعد منلاً مما كنت أظن، إلا أنني لا أستطيع أن أتفق مع ذلك النفر من الناس الذين يسلمون بأن الإنسان مخلوق للمتاعب. فما أسباب التعاسة في الماضي ولا الحاضر صعبة على التمحيص. كان في العالم فقر وكان فيه وباء وكان فيه مجاعة، وكانت كلها راجعة إلى قلة حيلة الإنسان في الطبيعة، وكان في العالم حروب واضطهاد وتعذيب، وكان مردها إلى عداوة الإنسان لأخيه الإنسان، وكان في العالم تعاسة متلفة منشؤها الخزعبلات القائمة التي أوقعت الناس في انقسام داخلي عميق أضاع الجدوى من كل يسر ظاهري، وكلها لا لزوم لها، وكلها يمكن تخطيها بوسائل معروفة، فإذا بقي العالم الإنساني شقيًا في الوقت الحاضر فلأنه يريد الشقاء، أو بعبارة أدق، لأن له جهالات وعادات وعقائد ومشاعر أعز عليه من السعادة بل وحتى من الحياة، وإنني لأرى من الناس في عصرنا الخطر من يتراءى لي أنهم يحبون الشقاء والموت ويغضبهم فتح باب للأمال أمامهم، فالأمل في زعمهم من قلة العقل، والعودة في اليأس الكسول عندهم مواجهة منهم للحقائق.. هؤلاء الناس لا يوافق رأيهم رأيي فإني أرى أن استمرار الأمل حافز لذكائنا وجهدنا وأن الذي ينقص البائسين هو، على الأغلب طاقة النشاط.

عشت نصف عمري الثاني في حقبة من تلك الحقب المؤلمة من تاريخ الإنسانية حيث يزداد العالم سوءاً على سوء، وحيث يظهر أن الانتصارات التي كان يظن بها الثبات قد غدت موقوتة وإلى زوال، فحينما كنت صغيراً كان التفاؤل الفيكتوري شيئاً مفروغاً منه، وكان الظن أن الحرية والرخاء سينتشران في العالم تدريجياً وبترتيب منظم، وكان الأمل أن القسوة والطغيان والظلم ستنتزح باستمرار واطراد، وقل من كان يراوده الخوف من وقوع حروب كبرى، بل قل من كان يراوده الظن أن القرن التاسع عشر إن هو إلا فترة فاصلة بين همجية الماضي وبربرية المستقبل. ولهذا صعب على ناشئة ذلك العصر أن يتكيفوا مع الزمن الحاضر، لا لصعوبة العواطف وحدها ولكن صعوبة العقل والتفكير، لأن الأفكار والمثل التي كان يظن بها الكفاية قد غدت لا كفاية فيها، وصعب جداً الحفاظ على الحرية الغالية في بعض الاتجاهات، وفي بعضها الآخر، وخاصة في علاقات الدول بعضها ببعض، دلت الحرية التي كانت موضع الاعتزاز من قبل أنها منشأ للكوارث والمدلهمات، وأصبح لازماً -إن كان للعالم أن يخلص من مزلقة الخطر الحاضر- أن نبدع أفكاراً جديدة وآمالاً جديدة وحرابات جديدة وقوياً جديدة على الحريات.

ولست أدعي أن ما فعلت إزاء المشاكل الاجتماعية والسياسية كبير الخطر، فلکم يسهل على المرء أن يكون له تأثير ضخم إذا هو بُشّر بإنجيل محدد جازم كالشيعية، ولكني لا أعتقد أن بالإنسان حجة إلى الجزم ولا إلى التحديد، لا ولا أظنني قادراً على الاعتقاد بجمع قلبي في عقيدة جزئية يعينها من الإنسان جانب واحد منه دون سائر جوانبه. هناك نفر من الناس يؤمنون أن كل شيء يتوقف على الأنظمة والهيئات، وأن استحداث الأنظمة السليمة كفيل وحده بإنزال الفردوس إلى الأرض، وهناك نفر آخر يظنون أن ما بنا حاجة إليه هو تغير القلوب، وأن الأنظمة إذا قورنت بتغير النفوس قليلة الخطر وغير ذات بال. ولكن كلا الرأيين لا يرضيني؛ لأن الأنظمة تشكل

الشخصيات، ولأن الشخصيات بدورها تعدل وتغير في الأنظمة، ولأن الإصلاح الحق هو إصلاحهما معاً يداً بيد. ولئن قدر للأفراد أن يحتفظوا بما يجب أن يحتفظوا به من المرونة والقدرة على الابتداع، فما يصح لهم أن يصبوا في قالب جامد واحد، أو بعبارة أبعد عن المجاز، لا يصح في حقهم أن يجيشوا في جيش واحد، إن التنوع جوهرى، على الرغم من أنه يستبعد الإيمان الشامل بإنجيل بذاته. ولكن التبشير بمثل هذه العقيدة صعب لا سيما في عصور الأزمات، وربما لا تكتسب مثل هذه العقيدة التأثير على النفوس إلا أن تنزل بها قارعة تتعلم منها مر الدروس.

إن عملي قريبة نهايته، وقد حل الزمن الذي يمكنني أن أنظر فيه إلى جملة عملي نظرة الشمول، فإلى أي حد نجحت وإلى أي مدى فشلت؟ لقد خامرني الاعتقاد منذ باكر عمري إنني مخلوق لجلال الأعمال، كنت أسير منفرداً منذ إحدى وستين سنة في تاير جارتن^(١) خلال ذوب الجليد تحت شمس مارس اللماحة في برود، وقررت في نفسي عندئذ أن أكتب سلسلتين من الكتب: إحداهما مجردة تنتهي إلى التجسيد، والأخرى مجسدة تنتهي إلى التجريد، ثم يتوجهما تركيب يضم النظر المجرد والفلسفة الاجتماعية العملية. ولقد كتبت هذه الكتب جميعاً فيما عدا التركيب الأخير الذي ما زال يتملص مني، ولاقى ما كتبت حقه من المدح والتقريظ، وأحدث أثره في أفكار رجال أتوا بعدي ونساء. فإلى هذا المدى أفلحت.

ولكن يجب أن يوضع في الكفة المقابلة لهذا الفلاح فشلان: أحدهما ظاهر والآخر باطن.

فأما الظاهر، وهو ما أنا بادئ به، فهو أن تاير جارتن قد أصبحت صحراء جرداء وإن براند نبر جرتور الذي دلفت إليها منه في ذلك الصباح من شهر مارس، قد أصبح الحد الفاصل بين إمبراطوريتين على عدا، ترمقان بعضهما بعضاً شزراً عبر حدود لا

(١) اسم حديقة عامة في برلين.

تكاد ترى، وتستعدان معًا لخراب البشرية. ولقد تعاقبت الشيوعية والفاشية والنازية كل بعد صاحبتهما على تسفيه ما أراه خيرًا، وفقد أعداؤهم وهم بسبيل القضاء عليهم كثيرًا مما نهضوا للمحافظة عليه، فأصبحت الحرية ضعفًا، وقسر التسامح على لبس مسوح الخيانة، وأضحت المثل القديمة لا معنى لها، ولم يعد ثمة احترام لكل عقيدة أو مذهب يخلو من الجلافة والغلظة.

أما الفشل الباطن، على قلة أهميته عند الناس، فقد أحال حياتي إلى معركة مستمرة دائمة، بدأت المعمعة وفي نفسي إيمان على معنى من المعاني بعالم أفلاطوني أبدي، تسطع فيه الرياضة جميلة كجمال قصائد «الفردوس»^(١) الأخيرة وانتهت إلى أن العالم الأبدي تافه وأن الرياضيات لا تعدو أن تكون من قول الشيء نفسه بعبارات أخرى. بدأت وفي اعتقادي أن الحب، متحررًا شجاعًا، يقدر أن يغزو العالم بغير قتال، وانتهيت إلى تأييد الحرب مرة مرعبة. فإلى هذا المدى فشلت.

ولكنني تحت كل هذا العبء من الفشل، ما زلت أشعر أن ثمة شيئًا من النصر. لعلني أخطأت الحقيقة النظرية، ولكنني لم أخطئ أبدًا الاعتقاد بأن ثمة حقيقة نظرية وأنها تستحق العناء في سبيلها. ولعلي ظننت أن الطريق إلى عالم إنساني حر سعيد أقصر مما تبين لي بعد ذلك، ولكنني لم أخطئ أبدًا في أن عالمًا كهذا ممكن وأنه جدير بأن نعيشه وأن نجهد في سبيل تحقيقه أو تقريبه. لقد عشت أجري وراء خيالي، خيال شخصي وخيال اجتماعي، فأما الشخصي فهو عنايتي بالنبيل وبالجميل وبالصقيل. وأن أجعل للبصيرة حظًا في التأثير بحكمتها على مطالبتي الدنيوية. وأما الاجتماعي فهو أن أذهب مع الخيال في تصور المجتمع المرموق حيث ينمو الأفراد في حرية، وحيث يتلاشى الحقد والجشع والحسد لأنها لا تجد ما يغذيها، ذلك هو ما أعتقد، وذلك ما أبقاني عليه العالم، على كل ما فيه من الرعب، غير مهزوز.

(١) الإشارة إلى «الفردوس» الجزء الثالث (من الملهاة الإلهية) لدانتي الشاعر الإيطالي المشهور.

صور من الذاكرة

بعض زملاء كمبريدج في العقد التاسع

مضت عليّ اليوم ست وستون سنة منذ أن التحقت بجامعة كمبريدج. كان العالم يومئذ مسرح مراح، وكانت كمبريدج أكثر مرحًا من بقية عالمها ذاك، وكان الزملاء^(١) فيها، من وجهة نظر طالب لا يحترم أو يهاب، ينتمون إلى فئة من ثلاث فئات. فهناك فئة الهازلين، وفئة أخرى من الأكفاء في عملهم ولكن على قليل من الجاذبية والأهمية، وفئة ثالثة قليلة العدد كنا نحن الصغار نعجب بهم بكل قلوبنا وحرارة حماسنا.

وكان بعض الشواذ، في غاية الشذوذ. كان لأحدهم رجل صناعية، وكان معروفًا عنه أنه يتشاغل بنوع لذيذ من التسلية وهو أن يضع محرك النار في النار حتى يتوهج فيجري به وراء الزوار بقصد قتلهم. وقد اكتشفت آخر الأمر أنه كان يندفع للهباج ومحاولة القتل عندما يستثيره الناس بالسخرية من عاهته، ولعاهته نفسها كان يتمكن كل ضحاياه من الهرب، ولهذا لم يكونوا يعبؤون بشذوذه الطفيف، وكنت أمضي معه إلى مائدة الشاي، ولكنني كنت أذهب عنه عندما أراه وضع المحرك في النار، فقد كان في غير أوقات خروجه عن طوره ساحرًا، ولم يطرأ على بال أي إنسان أن يردّه

(١) الأساتذة بمنصب الزملاء.

عما هو فيه. ولكن مدرس الرياضة كان أقل منه حظاً، فقد جن وإن لم يلحظ أحد من تلاميذه ذلك عليه، وانتهى الأمر إلى احتجازه. وعلى كل حال كان مصيره هذا فردياً لم يتكرر.

أقل من هذا في مستوى الشذوذ زميلان كانا يتنافسان على شرف تسليّة «الإمبراطورة فردريكا»، وهما أوسكار بروننج (المعروف بحروفه الأولى أ. ب.)، وأستاذ الفنون الجميلة، وكان ثاني الاثنين أنجحهما. قال لي ذات مرة: لقد كان من أشد أسباب المضايقة أنني على الرغم من كل ما بذلت نحو تثبيت الإمبراطورة فردريكا، إلا أنها أصرت على أن تتناول الغداء معي للمرة الثانية، وفي أصيل ذلك اليوم نفسه تنهد أ. ب. في إعياء وهو يقول: «لقد كنت أتصيد الإمبراطورة طول اليوم» وكان يجد كل الصعوبة في الاعتراف بأنه لا يعرف أحد الملوك معرفة شخصية، وكان أقرب شيء إلى مثل هذا الاعتراف منه قوله عن ملك سكسونيا: «أعرفه حق المعرفة - بالرؤية».

وكم كانت هناك من قصص وحكايات عن أ. ب.، كان سميناً يشبه البرميل، وعلى قبح غير مألوف، ولكن الطلبة الأشقياء الذين كانوا يشترون أعداداً كبيرة من إحدى المجالات المصورة قد أحرزوا له المركز الثاني في مسابقة للجمال (وقد سمعته بنفسه يتباهى بهذه الجائزة) وكان يقال إن تنيسون^(١)، في إحدى زيارته لكمبريدج، قد استضافه زملاء الملوك، وتقدموا إليه واحداً بعد الآخر ذاكرين أسماءهم، فلما تقدم منه أ. ب. قال: «أنا بروننج»^(٢)، فقال تنيسون وهو ينظر إليه: «كلا. لست هو»، ولكنني على كل حال لا أشهد بصحة الرواية.

(١) البارون ألفريد تنيسون (١٨٠٩ - ١٨٩٢) شاعر البلاط المتوج وأعذب الغنائيين صياغة وأسلوباً، وأحد ثلاثة إخوة كلهم شعراء، والمعهم ألفريد والآخران تشارلز وفردريك.

(٢) حذف اسمه الأول Osker حتى يلتبس اسمه باسم الشاعر Robert Browning وهو شخصية معروفة للشاعر تنيسون.

إن زهرة الزمالة اللطيفة حقًا كانت قد أخذت في الذبول حين التحاقي بالجامعة، ولكنني كنت أسمع حكاياتها مع زملائي الذين سبقوني إليها، فسمعت مثلاً عن ذلك «الزميل» الذي كان يقابل كل مشروع للإصلاح بالخطبة نفسها بغير تبديل في كلماتها إذ يقول: «حينما يقدم مشروع من هذا القبيل، أسأل نفسي سؤالين أولهما: هل كان النظام السابق متعثراً؟ وثانيهما: هل النظام المقترح أقرب إلى الانتظام وحسن المسير؟ ولست أرى ما يدعوني بتأناً إلى الإجابة عن أي من السؤالين بالإيجاب، ولهذا فإنني أصوت ضد المشروع». وسمعت عن الزميل الذي كان يكره المشروع المذل الذي يقضي بعدم انتظام «الزملاء» في مناصب الكنيسة من الآن فصاعداً، تمشيًا مع دعوى بعض المتهمسين الذين يعتقدون أن واجبات «الزملاء» الكنسية قد تتعارض مع واجباتهم التعليمية، وقيم الحجة على دحض هذه الدعوى بقوله: «جرت العادة أنه حينما يلبس الإمبراطور الروماني الثياب الحمراء أن يصير من تلقائه عضواً في جامعة المتنبيين، ولكن لم يكن يطالب بناء على هذا بأن يطعم الفراريج المقدسة».

إلا أن هذا الكرم الوافر قد فئت عناقيده قبل أيامي، وأقرب ما يكون شبهاً به مما أذكره هو أستاذ اللغة العربية الذي أدهش الجميع بإعطاء صوته لحزب الأحرار، فلما سُئل في ذلك أجاب: «لأن المستر جلاستون حينما يكون في الحكم لا يجد وقتاً يكتب فيه عن الكتب المقدسة».

على كل حال كان الشواذ قليلين، أما الأغلبية الكبرى من «الزملاء» فكانوا يقومون بعملهم بكفاءة، فلا هم موضع الضحك والزراية، ولا هم موضع الشغف والإعجاب. ولقد ينجم الفضل حتى فيما بينهم أحياناً وإن يكن على ندرة. وإنني لأذكر أحد المحاضرين في الرياضة كنت دائماً أظنه لا يشير الانتباه، وكان ذات يوم يحاضر في الاستاتيكا المائية ويحل مسألة عن وعاء ذي غطاء يدور في حوض حمام،

فقال له أحد الطلبة معترضًا: «ألم تنس عامل قوة الطرد المركزية على الغطاء؟»، فشقق المحاضر، وقال: «لقد قمت بحل هذه المسألة بهذه الطريقة عشرين سنة، بيد أنك على صواب». ومنذ تلك اللحظة شعرنا نحوه باحترام جديد.

أما «الزملاء» الذين كنا نكن لهم أعمق الاحترام، فقد كان تأثيرهم علينا كبيرًا حتى ولو كانوا في مجال من البحث غير مجالنا ولا علاقة تربطنا بهم. من هؤلاء مثلاً فيرول Verral الذي تخصص في يوريبيدس^(١). وكان لماع البديهة حاضر النكتة على نمط أكاديمي. فلما كان جرانفيل باركر^(٢) بصدد إخراج إحدى مترجمات جلبرت موراي^(٣) عن يوريبيدس، جاء إلى كمبريدج ليسأل فيرول عن شكل الكوخ المسيني كيف يكون، فقال له فيرول: «لا أحد يعلم، ولكن مس هاريسون ستخبرك». وقد أصيب بالتهاب المفاصل الذي حرّمه من استعمال رجله أولاً ثم سرى إلى بعض العضلات الأخرى، ولكنه على الرغم من شدة الألم، ظل على العهد به من الفكاهة الزاهية، ولم يسمح للعجز الجسمي أن يؤثر على عقله أو نظره إلى الحياة ما دام على قدرته على الكلام. وكانت زوجته مؤمنة بالروحانيات، وكانت تأتيه بكتل من الكتابات الفارغة التي تكتب آلياً فكان لتعوده إصلاح النصوص اليونانية القديمة يستطيع أن يفك طلاسم هذه الروحانيات ويستخلص منها بعض المعنى، ولكن موقفه منها لم يكن على ما أخشى موقف التبجيل الذي كانت تتمناه الأرواح.

ومنهم أيضاً سيدجويك Sidgwick^(٤) الفيلسوف، آخر ممثل للمدرسة النفعية.

(١) يوريبيدس (٤٨٠ - ٤٠٦ ق. م) ثالث الثلاثة الكبار من كتاب المأساة الإغريقية. والآخران هما إيسكيلوس وسوفوكليس. ومن أهم مسرحياته (أندروماك) و (إليكترا).

(٢) هارلي جرانفيل - باركر (١٨٧٧ - ١٩٤٦) شاعر مسرحي وناقد ومنتج كان له أثر كبير على مسرح شكسبير في القرن العشرين.

(٣) جورج جلبرت موراي (١٨٦٦ - ١٩٥٧) عالم وشاعر وناقد تخصص في دراسة الأدب اليوناني القديم ومن أهم كتبه (تاريخ الأدب اليوناني القديم) وكتاب (يوريبيدس وعصره).

(٤) سيدجويك (١٨٣٨ - ١٩٠٠) فيلسوف أخلاقي يعرف مذهبه باسم مذهب السعادة Hedonism.

حصل على الزمالة في وقت كان مفروضاً فيه على كل زميل أن يوقع على اللوائح التسع والثلاثين، فوقّعها وهو مؤمن بها بضمير خالص، ولكنه بدأ يشك فيها بعد ذلك بسنوات، ودفعه ضميره، وإن لم يكن عليه أن يوقعها مرة ثانية، إلى الاستقالة، فكان لاستقالته هذه فعلها السريع في إلغاء هذا الشرط البالي العتيق. ولم يكن سيدجويك في الصف الأول من الفلاسفة ولكن كماله العقلي كان مطلقاً لا تذبذب فيه، تزوج من أخت آرثر بالفور ولكنه لم يؤيد سياسة صهره، وكان يلاحظ في أثناء الشهور الأولى من حرب البوير كم يكون سهلاً على تلاميذ المستقبل أن يحفظوا أن نهاية الإمبراطورية البريطانية قد وقعت بالضبط في سنة ١٩٠٠. ولم تكن محاضراته ذات أهمية كبيرة وتعود سامعوها أن يتوقعوا نكتة متكررة واحدة، إذا هي صدرت عنه سمحوا لأنفسهم بعدها بالتشاغل وتشيت الانتباه، وكانت له تأناة يحسن استعمالها إلى حد كبير، فلما قال له أحد العلماء الألمان ذات مرة: «إنكم معشر الإنجليز ليس في لغتكم ما يقابل معنى كلمة «جيليرتي»؛ أي العلماء، أجابه بقوله: «بلى» عندنا برردريجز^(١) ويؤسفني أن أذكر أن كان بينه وبين أحد رجالاتنا العظماء نزاع، وهو السير ريتشارد جب^(٢) أستاذ الأدب الإغريقي وعضو البرلمان عن الجامعة. فقد كان يراد فتح طريق جديد سيقطع جزءاً من حديقة جب، وقام سيدجويك بالتهيج وبالتحريض من أجل فتح الطريق الذي سيوصل إلى كلية نيوهام وناظرتها مسز سيدجويك، وكان في هذه الحقيقة غاية ما يطيق جب، ولكن حينما تقرر أن يطلق على الشارع اسم «شارع سيدجويك» خرج الأمر عن حدود ما يطيقه. وقد شاع عندئذ، وإن كنت لا أستطيع أن أشهد على صحة الشائعة، أن سيدجويك كان يقول عن جب: «إن كل ما يستطيع أن يوفره من الوقت بعد تزوين شخصه، ينفقه في إهمال واجباته». ونشأ نزاع أخف قليلاً من هذا مرارة بين فيرول وبين جاره الفيلسوف جيمس وارد؛ إذ قد اتفقت زوجتهما

(١) Prigs أي مغرور متصلف.

(٢) سير ريتشارد كلافرهاوس جب (١٨٤١ - ١٩٠٥) أحد علماء الأدب الإغريقي.

على اقتسام حوض شرب الخنازير، ثم أخذتا تتهم الواحدة منهما الأخرى بأنها لا تؤدي ما عليها، ولكن النزاع لم يكن خطيرًا فأدى إلى تسليية الجميع، وعلى الرغم من مسألة حوض الخنازير، أراني أكنّ أعرق الاحترام وعظيم المحبة لجيمس وارد، فقد كان مدرسي الأول في الفلسفة، وظللت أحفظ له الجميل على رغم مخالفتي له في آرائه بعد ذلك، لا لما علمني وحسب، ولكن لما شملني به من العطف أيضًا.

وكان من الزملاء من أثار اهتمامي غير هؤلاء وإن كانت معرفتي بهم أقل توثقًا، من هؤلاء السير جيمس فريزر^(١) مؤلف «الغصن الذهبي» «The Golden Bough». كان الزملاء يتناولون طعام العشاء في الردهة دون مقابل، ولما كان فريزر إسكتلنديًا، فإنه لم يغفل هذا الاعتبار. وكان الذي يتأخر عن الموعد بأكثر من ربع ساعة يعاقب بالغرامة، ولكن فريزر كان يضمن بكل دقة تنتزع من دراساته في سبيل هذا الغرض الغليظ، غرض الطعام، فكان على الدوام يدخل ردهة الطعام متأخرًا عن الموعد بربع ساعة بالضبط. ومنهم أيضًا السير جورج دارون^(٢). لم يكن أبوه العظيم تشارلز دارون^(٣) يعتبر في أوساط الجامعة على قدر كاف من المهارة يؤهله لدرجة الشرف فاكنتفى بدرجة مقبول، ولكن فيما يبدو، كان مستوى الجامعة قد تدهور منذ ذلك الحين حتى سمح لأبنائه بالوصول إلى درجة الأستاذية. وعلى كل حال كان السير جورج دارون مشهورًا بالرياضة الطبيعية، وقد حدث يوم ذهبت إليه للغداء أن وجدته منهمكًا، هو ورياضي مشهور هو السير روبرت بول^(٤)، في معالجة آلة حاسبة متوقفة عن العمل، فلما اجتهدا

(١) سير جيمس جورج فريزر (١٨٥٤ - ١٩٤١) من أكبر علماء الاجتماع إسكتلندي الأصل ومؤلف كتاب الغصن الذهبي (١٢ مجلدًا) الذي يعد من أمهات الكتب في علم الاجتماع.

(٢) السير جون هيوارد دارون (١٨٤٥ - ١٩١٢) الابن الثاني لشارلز دارون صاحب نظرية التطور - تخصص السير جون في الفلك والرياضيات وكان حجة في علوم الكون (كوزمولوجيا).

(٣) تشارلز روبرت دارون (١٨٨٢ - ١٩٠٨) صاحب نظرية التطور الشهيرة في علم الحياة.

(٤) سير روبرت ستاويل بول (١٨٤٠ - ١٩١٣) فلكي عمل مديرًا للمرصد كمبريدج وأهم كتبه «قصة السماوات» و «في السماوات العلى».

فيها جهدهما طوال فترة من الزمن، دخلت عليهما اللادي دارون -وكانت أمريكية- وقالت لهما: «كل ما ينقصها قليل من زيت ماكينة الخياطة». وكانت على صواب.

ومن مميزات الشخصيات الجامعية حينئذ أنهم معمرّون، فقد كان يسيطر على الكلية يوم التحاقى بها ثلاثة شيوخ وقورون هم الرئيس ونائب الرئيس والزميل الأكبر، فلما عدت إليها محاضراً بعد عشرين سنة، كانوا لا يزالون أقوياء ولم يبد عليهم أنهم ازدادوا كبراً، وقد كان الرئيس ناظراً لمدرسة «هارو» حينما كان أبي صبياً فيها. وقد تصادف أن أفطرت على مائدته في عيد ميلاد أخت زوجته، فحينما دخلت علينا قال لها: «الآن يا عزيزتي قد عمرت مقدار ما عمرت الحروب البلوبونيزية^(١)». أما نائب الرئيس، الذي كان دائماً يقف متصلباً كقضيب من الحديد، فلم يحدث قط أن ظهر خارج المنزل من دون قبعته العالية، حتى حينما أيقظه حريق حدث في الساعة الثالثة صباحاً. وكان يقال إنه لم يقرأ بيتاً واحداً من شعر تينسون بعد أن رآه بنفسه يضع الماء في نبذ الطعام، وقد جرت العادة قبل العشاء في الردهة أن يتداول الرئيس ونائب الرئيس قراءة مقطوعة طويلة من الشعر اللاتيني عن بنات زيوس الحوريات، وكان الرئيس ينطق حسب نطق القارة بينما يتمسك نائب الرئيس بالأسلوب الإنجليزي القديم في النطق، فكان الخلاف الواسع بينهما غريباً ومنعشاً، أما الزميل الأكبر فهو آخر من بقي من أبناء النظام القديم الذي يمنح الشخص بمقتضاه «الزمالة مدى الحياة» وهو في الثانية والعشرين، فلا يتحمل بعدها بواجب إلا الاستحواذ على مكافأتها، وهو واجب قام به زميلنا الأكبر بغاية الدقة والانتظام، وإن أعفى نفسه من كل واجب سواه منذ سن الثانية والعشرين.

هذه الحالة تظهرنا كيف أن ضمان المنصب قد استغل إلى أبعد الحدود، ونتيجتها

(١) أطول حروب في التاريخ اليوناني القديم بين أثينا وإسبرطة استدامت، مع فترات من الهدنة تخللتها، بين ٤٣١ وسنة ٤٠٤ ق.م. وانتهت بانتصار إسبرطة.

سيئة من جانب وحسنة من جانب آخر، فقد استفاد بها نفر من أحسن الرجال، واستفاد بها أيضًا نفر لا يحسنون كحسنهم، وامتد التسامح إلى أن شمل القصور والشذوذ وحتى الجنون، ولكنه شمل أيضًا الفضلاء، وعلى الرغم من بعض الجنون وبعض الكسل، ظلت كمبريدج مكانًا طيبًا يمكن للاستقلال العقلي أن يعيش فيه بغير شكول.



بعض من عاصرتهم في كمبريدج

منذ اللحظة التي التحقت فيها بكمبريدج في بداية أكتوبر سنة ١٨٩٠، أصبح كل شيء عندي على ما يرام. زارني في الأسبوع الأول من الفصل الدراسي الأول لي هناك كل من توطدت صلة صداقتي بهم بعد ذلك ممن كانوا مقيمين بها قبلي. ولم أكن أعلم حينئذ سبب زيارتهم لي، ولكنني اكتشفت السبب فيما بعد وهو أن هوايتهم كان قد امتحن المتقدمين للإعانة الجامعية، وكان قد طلب منهم أن يبحثوا عن «سانجر» وعني، وسانجر هذا كان طالبًا حديثًا مثلي، وكان مثلي يدرس الرياضة كما كان قاصرًا مثلي، وكان كلانا أعطى حجرته في قاعة هويويل، وكان للأستاذ وب المشرف علينا طريقة في توزيع مخطوطاته بين طلبة فصوله، فكان من نصيبي أن أوصل مخطوطة منها إلى سانجر بعد الانتهاء منها، ولم أكن رأيت حتى ذلك الحين، فلما رأيت أذهلني ما في رفوفه من الكتب فقلت: «أرى أن عندك التطور الفكري لأوروبا» لدرابر Draper^(١)، وأظنه كتابًا عظيمًا جدًا. فقال: «أنت أول شخص ألقاه سمع بهذا الكتاب». واستطرد الحديث بيننا من هذه النقطة، فما انقضت علينا نصف

(١) جون وليم درابر (١٨١١ - ١٨٨٢) عالم أمريكي له بحوث في كيمياء التصوير الشمسي وفي وظائف الأعضاء البشرية ومن أهم كتبه هذا المشار إليه هنا.

ساعة حتى كنا أصدقاء العمر، فكنا نتبادل المذكرات حول ما قطعناه في الرياضة من أشواط، وكنا على اتفاق في اللاهوت وفي ما بعد الطبيعة، وعلى اختلاف في السياسة (كان هو عندئذ في صف المحافظين وإن تحول عنهم إلى العمال بعد ذلك). وكان يكلمني عن شو الذي لم أكن أسمع باسمه حتى ذلك الوقت، وكنا نعمل معًا في الرياضة، وكنت أراه سريعًا سرعة لا تكاد تُصدق، فيكون في نصف الطريق نحو حل المسألة بينما أنا لم أفهم المطلوب بعد، وقد اتجهنا كلانا في السنة الرابعة إلى علم الأخلاقيات^(١)، فاتجه هو للاقتصاد واتجهت أنا للفلسفة، وقد حصلنا معًا على الزمالة في وقت واحد. وقد كان سانجر من أطيب الناس قلبًا، وقد والاه أبنائي في آخر أيامه حبًا كحبي له، ولا أظن أنني عرفت إنسانًا قط يجمع مثل ما جمع هذا الرجل بين عقل نفاذ وعاطفة حارة، وقد أصبح محاميًا في القضاء العالي وعُرف في الدوائر القضائية بطبعته الرائعة جدًا لجارمان «في الوصايا»، كما كان اقتصاديًا من الطراز الأول، وعلى علم بعدد لا يعقل من اللغات من بينها لغات مستبعدة جدًا مثل اللغة المجرية والفنلندية، وقد كنت أصاحبه في سياحات للمشي في إيطاليا فيترك لي مهمة الحديث مع أصحاب الفنادق والخانات، ثم اكتشفت وأنا أقرأ بالإيطالية أن معرفته بهذه اللغة تفوق معرفتي بها إلى حد واسع كبير، وقد سبب لي موته في سنة ١٩٣٠ أسفًا عميقًا.

أما عن بقية الذين صادفتهم في الفصل الدراسي الأول، فإني أدين بمعرفتي لهم أولاً لتزكية هوايتهم، ومن ألصقهم بي أخوان هما كرومبتون وتودور ليولن دافيز، كان أبوهما قسيس كيركبي لونسديل، ومترجم جمهورية أفلاطون في طبعة جولدن تريجري (الكنز الذهبي)، وكان باحثًا معدودًا ومن أنصار «برود تشيرشمن» أو

(١) اخترت هذه الكلمة في مقابل Moral Sciences تمييزًا لها عن علم الأخلاق Ethics.

«الكنسيين المتوسعين» الذين يستمدون آراءهم من ف. د. موريس^(١) وله ستة أبناء وابنة واحدة، أصغرهم كرومبتون وتيودور. وكان يقال، وأظن على حق، إن أبناءه الستة طوال دراستهم، قد تمكنوا بالإعانات المدرسية أن يتدرجوا في التعليم إلى آخر مطافه دون أن يكلفوه شيئاً من النفقة، وكان أغلبهم وجهاء بشكل ملفت، ومن هؤلاء كرومبتون الذي كانت عيناه زرقاوين غاية في اللطف تقدحان أحياناً بالمزاح وأحياناً تطلقان نظرة ثابتة غاية في الجذ. وكان أقدرهم وأحبهم للأسرة وأصغرهم تيودور الذي كان يشاطره أخوه كرومبتون حجرته عندما عرفتهما، وقد أصبح كلاهما «زميلاً» مع الزمن وإن لم يصبح أي منهما «مقيماً». وقد كان سكنهما فيما بعد في منزل صغير قريب من مقبرة وستمنستر في شارع منزو هادئ، وكان كلاهما قديرًا، عالي العقل عطوفًا، وكانا على الجملة يعتنقان مُثلاً وآراء واحدة، وكانت نظرة تيودور إلى الحياة أقرب إلى النظرة العملية من أخيه، وقد أصبح سكرتيراً خاصاً لسلسلة من وزراء المالية المحافظين، استمالهم جميعاً إلى مبدأ حرية التجارة في وقت كان يريدتهم بقية زملائهم في الوزارة أن يعتنقوا غير هذا المبدأ، وكان يعمل بجد لا يُصدق، ومع ذلك كان دائماً يجد وقتاً لإرسال الهدايا لأطفال أصدقائه، وكانت هداياه على الدوام في محلها، وكان يوحى بأعمق المودة في نفس كل من يعرفه. ولست أعرف غير امرأة واحدة في الدنيا بأسرها لا يسرها أن تقترب منه، وتلك بالطبع هي المرأة الوحيدة التي كان يتمنى أن يقترب منها، فلما كان في الرابعة والثلاثين في ربيع سنة ١٩٠٥ وجدت جثته في بحيرة قريبة من كيركي لونسديل حيث كان ولا شك يسبح نحو المحطة، وكان الظن أنه لا بد قد ارتطم برأسه في صخرة وهو يغطس في الماء.

(١) فردريك دنيسون موريس (١٨٠٥ - ١٨٧٢) أحد أعيان رجال الدين واللاهوت الإنجليز، ومع عظمته المعترف بها لم يحصل على شهادة الترينيتي هول بكمبريدج لأنه رفض التوقيع على اللوائح التسع والثلاثين.

ومن بواكير ذكرياتي عن كرومبتون أنني التقيت به في أظلم جزء من سلم ملتوٍ في الكلية فأنشأ فجأة يردد بغير تمهيد قصيدة: «أيهذا النمر يا زاهي البريق»^(١) ولم أكن من قبل قد سمعت باسم بليك Blake، إلا أن القصيدة قد أثرت عليّ تأثيراً جعل الدوار يصيبني حتى استندت إلى الحائط.

أما الذي أدى بكرومبتون إلى أن يكون محل الإعجاب ومصدر البهجة في وقت واحد، فلم يكن مقدرة، بل حبه القوي وكرهه العنيف ومزاحه الجامح وأمانته الصخرية في صلابتها، وهو من أحضر من عرفت بديهة وفكاهة، مع حب كبير للإنسانية مقرون بازدياد الأفراد من البشر، ولم يكن بأي معنى على طريق القديسين، كنا نسير معاً ونحن صغار فافتحنا جانباً من أرض أحد الفلاحين، فأقبل الرجل يجري من ورائنا صائحاً محمراً من الهياج، فما كان من كرومبتون إلا أن رفع يده إلى أذنه وقال في أقصى رقة ممكنة: «ألا ترفع صوتك قليلاً؟ فإن سمعي ثقیل إلى حد ما»، فارتج على الرجل وهو يحاول رفع صوته عما كان من قبل.

وكان كرومبتون مدمناً على قذارة ملابسه قذارة متناهية، أدت إلى اعتراض أصدقائه عليها، وقد كان لهذه القذارة نتيجة غير متوقعة؛ إذ حينما حاولت أستراليا الغربية أن تنفصل عن اتحاد أستراليا بطريق المقاضاة، عينت مؤسسته للدفاع عنها، وتقرر أن تنظر الدعوى في قاعة «حجرة ملابس الملك»، وسمع كرومبتون وهو يحدث كبير الأمناء في التليفون قائلاً: «لقد لفت نظري في المدة الأخيرة إلى الحالة غير المرضية لسروالي، وأعتقد أن القضية ستنظر في «حجرة ملابس الملك» لعل الملك قد نسي فيها سروالاً قديماً يصلح لي».

(١) هي قصيدة للشاعر ولیم بلیک (١٧٥٧- ١٨٢٧) يقول منها:

«هل تراه ضاحكاً عز وجل
إذ يسويك كما سوى الحمل»
«أيها النمر أيا زاهي البريق
بين غابات من الليل العميق؟!»

وصديق آخر من سني كمبريدج هو ماك تاجارت Mctaggart الفيلسوف الذي كان أشد خجلًا مني، ففي ذات يوم سمعت قرعًا على بابي رقيقًا جدًّا، فقلت: «ادخل» فلم يحدث شيء، فجهرت بصوتي وقلت: «ادخل» فانفتح الباب ورأيت ماك تاجارت واقفًا على المداسة أمامي، وكان في ذلك الوقت رئيس الاتحاد وعلى وشك أن يصير زميلًا فأشعرني بالهيبة؛ لما كان له من شهرة في الميتافيزيقا، ولكنه كان أخجل من أن يدخل، وكنت أخجل من أن أدعوه للدخول، ولست أذكر كم دقيقة مرت علينا ونحن على هذه الصورة، ولكن بطريقة أو بأخرى حدث أن ولج الحجرة أخيرًا، وتعودت فيما بعد كثيرًا أن أشاطره إفطاره الذي اشتهر بقلّة الطعام، والحقيقة أنه ما من أحد جربه إلا وأخذ معه بيضة في كل مرة تالية! وكان ماك تاجارت على مذهب هيجل، وكان في ذلك الوقت صغيرًا ومتحمسًا، فكان له تأثير عقلي كبير على جيلي، وإن كنت لا أظنه -بعد مضي الزمن- تأثيرًا حسنًا، وظللت -بتأثيره- سنتين أو ثلاثًا على مذهب هيجل، ولكن على الرغم من رفضي فلسفة ماك تاجارت بعد سنة ١٨٩٨ ظللت شغوفًا به، حتى عرضت مناسبة في أثناء الحرب العالمية الأولى طلب مني فيها ألا أعود إلى زيارته لأنه لا يحتمل آرائي، ووالى موقفه هذا بالقيام بدور رئيس في فصلي من منصب المحاضر.

وهناك صديقان آخران التقيت بهما في بواكير أيامي بكمبريدج، واحتفظت بصداقتهما منذ ذلك الحين هما لاوس ديكنسون وروجر فراي. أما ديكنسون فكان رجلًا يوحى بالمودّة لرقته وجيشان عاطفته، فلما كان زميلًا وكنت لا أزال طالبًا، نبهت إلى أنني كنت عرضة لإيقاع الأذى به بطريقتي الوحشية نوعًا ما في تقرير ما لا يسر من الحقائق، أو ما كنت أظنه حقائق، فقد كانت أحوال العالم التي تجعلني لا ذعًا تحزنه فقط، فظللت إلى آخر حياته أخشى كلما قابلته أن أزيد من تعاسته بواقعيّتي الصارخة، ولكن ربما لم تكن «الواقعية» هي الكلمة الصحيحة؛ لأن ما أعنيه حقًا

هو أسلوب وصف الأشياء التي لا يحتملها المرء وصفاً منفراً يجعل سامعه يشاطره هياجه. قال لي مرة إنني أشبه كوردليا، ولكنني لا أظن أنه يمكن أن يوصف بأنه يشبه الملك لير^(١).

وقد ظلمت فترة طويلة وأنا أفترض أن في مكان ما بالجامعة نفراً من الناس المهرة حقاً لم ألتق بهم بعد، وأني لو التقيت بهم فسأبتين للتو أنهم يفوقوني في العقلية، ولكنني اكتشفت في السنة الثانية أنني كنت قد تعرفت بأمهر من في الجامعة فعلاً، وكان في هذا خيبة أمل لي، ولكنني على كل حال قد لقيت في سنتي الثالثة ج. أ. مور الذي دخل الجامعة حديثاً، وكان مثال العبقرية في نظري لعدة سنوات، كان في ذلك الوقت جميلاً ورشيقاً عليه سيماء الإلهام ولعقله ما كان لعقل سبينوزا^(٢) من الحماية العميقة، وكان على طهارة رائقة. ولا أذكر أنني نجحت أكثر من مرة واحدة في أن أدفعه إلى الكذب، وكان ذلك بطريقة ملتوية؛ إذ قلت له: «أتصدق على الدوام يا مور؟» فأجابني: «كلا»، فكانت فيما أعتقد كذبه الوحيدة مدى الحياة.

وقد وقع مور مثل ما وقعت تحت تأثير ماك تاجارت وانحاز لمذهب هيجل زمناً قصيراً، ولكنه تخلص من ربقته أسرع مما تخلصت، ويعود الفضل إلى مناقشاته معي في أن عزفت عن كانط وهيجل. وكان له تأثير على نظرتي الفلسفية برغم أنه يصغرني بسنتين، وكان من أحب متع التسلية لأصدقائه أن يرقبوه وهو يشعل غليونه؛ فقد كان يشعل عود ثقاب ثم يبدأ في الجدل والنقاش ويظل العود مشتعلاً حتى يحرق أصابعه فيعود إلى إشعال غيره حتى تفنى علبة الثقاب، ولا شك أنه قد كان لهذا أثر طيب على صحته لأنه لأنه أتاح له أوقات لا يدخن فيها.

(١) كوردليا والملك لير كلاهما من شخصيات المسرحية الشكسبيرية المشهورة «الملك لير».

(٢) سبينوزا (١٦٢٤ - ١٦٧٧): فيلسوف هولندي من أصل يهودي إسباني، أصدر اليهود ضده قرار الحرمان ولم يتقبله المسيحيون قبولاً حسناً، وله اليوم شهرة بين مؤرخي الفلسفة، لعل للمنظمات اليهودية يداً فيها، وأهم مدار فلسفته على الأخلاق ووحدة الوجود.

وكان ثمة أيضًا الإخوة الثلاثة تريفيليان، أكبرهم تشارلز وأوسطهم بوب الذي كان صديقي المفضل وقد أصبح شاعرًا دراسيًا جدًّا، ولما كان صغيرًا كان له عبث لذيذ، ففي ذات مرة إذ كنا في جماعة للقراءة في ليك دستركت (مقاطعة البحيرة) إذا بأيدي مارش^(١) ينزل في قميص نومه حيث كان قد غلبه النعاس ليرى هل كان الإفطار جاهزًا، وكان يبدو عليه التجمد والتعاسة، فأطلق عليه بوب اسم «الشبح الأبيض الموقرور» وقد لصق به هذا الاسم زمنًا طويلًا. أما جورج تريفيليان فكان يصغر بوب بكثير، لكنني عرفته معرفة جيدة فيما بعد، وكان هو وأخوه تشارلز مشائين مخيفين. حدث أن اصططحت جورج إلى نزوات مشائية في ديفونشير فأخذت منه وعدًا بأن يكتفي من المشي بخمسة وعشرين ميلًا في اليوم، فوفى بوعده، ولكنه في آخر أيام النزهة تركني قائلًا إنه ينبغي أن يمشي قليلًا.

وأظن أن بوب تريفيليان هو أشد من عرفت غرامًا بالكتب، فكان ما في الكتاب مهمًا عنده وما في الحياة هملاً وسقط متاع، وكشأن سائر أسرته كان على علم دقيق بالخطط الحربية والتحركات الميدانية^(٢) المتعلقة بجميع المواقع الكبرى في التاريخ، ما دامت قد وردت في أمهات كتب التاريخ، ولكنني كنت ضيفًا عليه في أثناء موقعة المارن^(٣) وكان اليوم يوم أحد، فلم نستطع أن نحصل على صحيفة إلا على مسيرة ميلين، فكان لا يعتقد أن الموقعة من الأهمية بحيث تستحق عناء السفر لأن المعارك في الصحف اليومية شيء مبتذل. ولقد ابتدعت يومًا ما سؤالًا اختباريًا

(١) السير إدوارد هوارد مارش (١٨٧٢ - ١٩٥٣): أديب وشاعر إنجليزي. عمل سكرتيرًا خاصًا لإسكويث رئيس الوزارة ثم لشرشل وزير البحرية في أثناء الحرب العالمية الأولى - وله عدة كتب في النقد والأدب.

(٢) الخطط الحربية والتحركات الميدانية هما ترجمة كلمتي Tactics, Strategy على الترتيب حيث يقصد بالاستراتيجية خطة المعركة الشاملة البعيدة المدى ويقصد بالتكتيكات الحركات التنفيذية على واقع الطبيعة في ميدان القتال. ومن هنا جاء التمييز بين الأسلحة النووية الاستراتيجية التي تهدف لمهاجمة قلب بلاد العدو والأسلحة النووية التكتيكية التي يستعملها الجيش في الميدان ضد عدوه الذي يناجزه.

(٣) إحدى المواقع الكبرى في الحرب العالمية الأولى.

كنت ألقيه على كثير من الناس لأعرف هل هم متشائمون، وهو «إذا أوتيت القدرة على تحطيم العالم، فهل تحطمه؟». وقد وجهت إليه هذا السؤال فأجابني: «ماذا؟ أحطم مكتبتي؟ -أبداً!!» وكان على الدوام يكتشف شعراء جددًا ويقرأ قصائدهم، وكان دائماً يستهل حديثه عنهم بقوله: «ليست هذه من أحسن قصائده»، فلما ذكر لي ذات مرة شاعراً جديداً وأعرب عن رغبته في أن يقرأ لي بعض آثاره، قلت له: «على ألا تقرأ لي قصيدة ليست من أحسن قصائده»، فكأنما قطعت هذه الملاحظة جهيزته نهائياً وألقى بالمجلد جانباً.

ولست أجد الوقت الكافي للحديث عن غير هؤلاء ممن كانت لهم أهمية عندي مثل إيدي مارش (وقد أصبح فيما بعد السير إدوارد) الذي كان صديقي الحميم، كما كان دزموند ماك كارثي^(١) صديقاً حميماً أيضاً، وقد عرفت أ. م. فورستر^(٢) وليتون إستراشي^(٣) وكينز^(٤) معرفة جيدة، وإن كانوا أصغر مني بكثير. ولقد كنا في مجموعنا جادين مجتهدين وكنا في ميدان العقل مغامرين، وعلى الرغم مما كان لنا

(١) السير دزموند ماك كارثي (١٨٧٧ - ١٩٥٢): ناقد ومؤلف أدبي - عمل في الصحافة الأدبية ولا سيما في النيو كوار ترلي ثم في الصنادي تيميز.

(٢) إدوارد مورجان فورستر: قصاص وكاتب مقالات ولد في لندن سنة ١٨٧٩ ولعل من أشهر رواياته (الطريق إلى الهند) حيث وصف العلاقة بين الهند وبين الإنجليز المقيمين هناك وهو الآن عضو شرفي بالمجمع الملكي للآداب.

(٣) جيلز ليتون إستراشي (١٨٨٠ - ١٩٣٢): ناقد ومؤرخ اشتهر بكتابة السير فنحا وتصوير الشخصيات حسب فلسفة خاصة مؤداها أن التاريخ تاريخ شخصياته، ومن أشهر كتبه (عظماء العصر الفيكتوري) وتاريخ حياة (الملكة فيكتوريا)، وله علاقة بمصر؛ إذ تتلمذ عليه كثير من علماء التاريخ في بلدنا الآن.

(٤) البارون جون ماينارد كينز (١٨٨٣ - ١٩٤٦): عالم الاقتصاد المشهور بنظريته في النقود التي تعد فتحة جديداً في علم الاقتصاد والتي وضعها إثر الأزمة الاقتصادية العالمية سنة (١٩٢٩ - ١٩٣٣)، وكان له دور كبير في التنظيمات الاقتصادية التي اتفقت عليها بريطانيا وأمريكا لتنظيم اقتصاديات العالم بعد الحرب الثانية. ومما يذكر له أنه كان يأمل، ولا يستبعد أن يأتي اليوم الذي يحل فيه الاقتصاد، صاحب المحل الأول في الوقت الحاضر، محله الجدير به وهو المحل الثاني بعد مشاكل الإنسان الحقيقية: مشاكل الحياة وعلاقات الناس ومشاكل الخلق والسلوك وحرارة الإيمان.

من الطموح الرزين، كنا نمرح كثيرًا ونستمتع بالحياة كل الاستمتاع، ولم يحدث
أن اعترض أحدنا فردية غيره وحريته، وكوّننا صداقات ظلت مهمة طوال الحياة،
كما بقي عدد مدهش منا مخلصًا لآرائه التي كونها في باكورة الحياة. لقد كان جيلًا
يسرني أن أنتمي إليه.



جورج برنارد شو

حياة برنارد شو الطويلة يمكن أن تقسم إلى ثلاثة أطوار: أولها استمر حتى بلغ الأربعين تقريبًا، كان فيه معروفًا في دائرة على شيء من الاتساع بأنه ناقد موسيقي، وفي دائرة أضيق من هذه بكثير بأنه مجادل فابي^(١)، وقصاص معجب وعدو خطير ألمعي للتنفج والرياء. ثم تلا هذا الوجه الوجه الثاني من حياته وهو وجه الكاتب المسلي، ولم ينجح أول الأمر في توصيل ملاحيه إلى المسرح؛ لأنها لم تكن على نسق روايات بينيرو^(٢)، ولكن جاء الوقت الذي تبين فيه حتى مديرو المسارح إنها روايات مسلية، فأحرز بذلك نجاحًا يستحقه عن جدارة. ولا بد أنه ظل طول حياته يراوده الأمل أنه لو ثبت قدمه عند مستمعيه بوصفه صاحب نكتة، فإنه يستطيع عندها أن يؤدي رسالته الجادة، ولهذا ظهر في طوره الثالث في مسح نبي يطلب قدرًا متساويًا من الإعجاب للقديسة جوان أوف أورليانز^(٣) والقديس يوسف أوف

(١) الفابيون جماعة من الاشتراكيين الإنجليز يستمدون تسميتهم من القائد الروماني القديم فابيوس الذي اتخذ ضد هانيبال خطة الانسحاب وراء الأسوار حتى يرهقه ويقضي عليه سهلًا مجهدًا.

(٢) السير آرثر ونج بينيرو (١٨٥٥ - ١٩٣٤) قصاص وروائي إنجليزي فكه ممتاز.

(٣) المشهورة عندنا باسمها الفرنسي الأصيل (جان دارك).

موسكو^(١). وقد عرفته في أطواره الثلاثة جميعاً، ووجدته في طوريه الأولين ممتعاً ومفيداً، ولكنني وجدت إعجابي به في طوره الثالث محدوداً بحدود.

سمعت عنه أول ما سمعت في سنة ١٨٩٠ حينما التقيت وأنا مستجد في كمبريدج بمستجد آخر يعجب بكتابه «زبدة الإيسينية» ولكنني لم ألتق به حتى سنة ١٨٩٦ حين اشترك في مؤتمر دولي للاشتراكيين في لندن، وكنت على معرفة بعدد كبير من المندوبين الألمان؛ إذ كنت أدرس الديموقراطية الاشتراكية الألمانية. فكانوا يعبرون عن رأيهم في شو على إنه الشيطان مجسداً لأنه لم يكن يقاوم لذة النفخ في جذوة كل خلاف، ولكنني استقيت رأيي فيه على كل حال من آل وب. وقد أعجبتني مقالته الفابية التي عمد فيها إلى الابتعاد بالاشتراكية البريطانية عن ماركس^(٢)، وكان في ذلك الوقت خجولاً لا يزال، وأظن أن لواءه -شأن كثير من الساخرين المشهورين- كانت في الحقيقة درعاً ضد الزاوية المتوقعة، وكان في ذلك الوقت قد بدأ لتوه في كتابة الروايات، وجاء إلى شقتي ذات يوم ليقرأ إحداها على مجموعة من الأصدقاء، فكان شاحباً حتى البياض، وكان يرتجف في عصبية ظاهرة، ولم يكن فيه شيء من ذلك الطود الراسخ الذي أصبحه بعد ذلك. وبعد وقت قصير من هذا اجتمعنا في ضيافة آل وب في مونموثشير في الوقت الذي كان يدرس فيه فن المسرحية، وكانت عادته أن يكتب أسماء شخصياته على قصاصات مربعة من الورق، ويعمد في أثناء كتابة المنظر إلى وضع أسماء الشخصيات المشتركة فيه على رقعة شطرنج.

وقد حدثت لنا في ذلك الوقت حادثة دراجة، خشيت عند وقوعها أن تنهي حياته قبل الألوان، فقد كان في بداية تعلم ركوب الدراجة وقتئذ، فاندفع بدراجته في

(١) المشهور في الدنيا باسمه المستعار (جوزيف سنالين).

(٢) هنريك كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣): فيلسوف الشيوعية الشهير وتلميذ هيجل الذي حول مثاليته إلى مادية صرف وحتمية لا أساس لها من العلم.

دراجتي بقوة قفزت به في الفضاء وأرسلته على الأرض على ظهره على بعد عشرين قدمًا من موقع الصدام، ولكنه لم يلبث أن وقف على رجليه غير مصاب، وواصل الركوب، بينما تحطمت دراجتي واضطرت للعودة بالقطار، الذي كان في غاية في البطء، فكان شو يظهر على الرصيف عند كل محطة ويدخل رأسه في العربة مخرجًا لسانه، وظني أنه كان ينظر إلى الحادثة كلها كأنها برهان على فضل المعيشة النباتية.

والغداء مع آل شو في أدلفي تيراس تجربة غريبة إلى حد ما، فقد كانت المسز شو مدبرة قديرة جدًا وكانت تزود شو بوجبة نباتية تبلغ من اللذة درجة تجعل ضيوفه يشعرون بالأسف لطعامهم المألوف، إلا أنه لم يكن يقاوم الرغبة في تكرار حكاياته المفضلة تكرارًا كثيرًا، فكان إذا وصل إلى قصة عمه الذي انتحر بوضع رأسه في مخللة ثم شد الحبل وزردها على عنقه، تبدو على وجه المسز شو مسحة من الانقباض البالغ حتى إن المرء الذي يجاورها يشعر بوجوب مراعاة عدم الإنصات إلى زوجها، ولكن هذا لم يكن يمنعها من العناية به، فإني أذكر غداء حضرته شاعرة صغيرة جميلة على أمل أن تقرأ شعرها على شو، فلما استأذنا في الانصراف أخبرنا شو أنها ستتخلف وراءنا لهذا الغرض، إلا أننا وجدناها ونحن خارجون على مداسة الباب خارجة معنا بمناورة من مناورات المسز شو التي لم يسعدني الحظ بملاحظتها، فلما علمت بعد ذلك بقليل أن هذه الشاعرة نفسها قد قطعت زورها عند منزل ويلز لأنه رفض أن يبادلها الغرام، زاد احترامي الكبير للمسز شو عما كان.

ولم تكن العناية الزوجية بشو عديمة التكاليف، فحينما كان هو وزوجه وآل وب يناهزون الثمانين، جاءوا لزيارتي في منزلي في سوث داونز وكان للمنزل برج يطل على منظر بديع جدًا، فصعدوا جميعهم سلاله وفي مقدمتهم شو وفي مؤخرتهم زوجه التي ظلت طول مدة الصعود ترفع عقيرتها له بالنداء وهي تقول : «ج. ب. ش، لا تتكلم وأنت تصعد السلالم»، ولكن نصيححتها ذهبت أدراج الرياح، وأخذت

كلماته تتدفق بغير انقطاع.

وحملة شو على رياء العصر الفيكتوري ونفاقه، حملة مفيدة وممتعة في آن، ولا ريب في أن الإنجليز يدينون له في هذا بدين كبير من العرفان، فقد كان من الادعاء في ذلك الوقت أن يحاول المرء ستر غروره، وكنا في صغرنا نتظاهر بأننا لا نظن بأنفسنا خيراً من ظننا بجارنا، وقد وجد شو هذا الجهد متعباً، وكان قد انتهى وبرئ منه قبل خروجه إلى العالم، لهذا تعود أذكاء القوم أن يقولوا إن شو لم يكن سمجاً مغروراً إلى حد غير مألوف، بل كان صريحاً إلى حد غير مألوف. إلا أنه تبين لي بعد زمن أن هذا خطأ منهم، وأدى إلى اقتناعي بهذا شهودي حادثتين عياناً، أولاهما حفلة غداء أقيمت في لندن تكريماً لبرجسون^(١) دُعي إليها شو بوصفه أحد المعجبين بالفيلسوف الفرنسي مع من دُعي من الفلاسفة المحترفين الذين كانوا يقفون على الجملة من برجسون موقف الانتقاد، وأخذ شو في الحفل يعرض فلسفة برجسون بأسلوب على نمط مقدمته لمتوشالح، فظهرت الفلسفة في هذا السياق بمظهر لا يُرجى معه قبولها عند المتخصصين، فاعترض برجسون بلطف وقال:

«أو كل... سلا» ليس الأمر كذاك»^(٢) ولكن شو لم يخجل بالمرة، بل أجاب:

«أي زميلي العزيز، إنني أفهم فلسفتك خيراً منك» فقبض برجسون قبضتيه وأوشك أن يتفجر من الغيظ، ولكنه بعد جهد جهيد ملك جأشه واستمر شو في نجواه الاستعراضية.

(١) هنري لويس برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١): أكبر الفلاسفة الفرنسيين المحدثين -يمتاز مذهبه بالابتعاد عن العقل ويميل إلى الإدراك الحدسي المباشر.

(٢) تعمدت هذا الخطأ في الهجاء لأن المؤلف تعمد مثله ليظهر اللكنة الفرنسية في لهجة برجسون إذ قال: «It is not quite zat».

أما الحادثة الثانية فكانت مقابلة مع مازاريك الأكبر^(١) الذي كان في زيارة رسمية للندن، وأوعز للحكومة -عن طريق سكرتيره الخاص- أن ثمة عددًا من الناس يود أن يلقاهم في تمام الساعة العاشرة صباحًا قبل بدء عمله الرسمي.

وكنت أحد هؤلاء الناس، فلما قدمت عليه تبين أن كل من عداي هم شو وويلز وسوينرتون^(٢). وقد جئنا جميعًا في الموعد بالتحديد ما عدا شو الذي جاء متأخرًا وتقدم مباشرة نحو الرجل العظيم وقال:

«أي مازاريك، إن سياسة تشيكوسلوفاكيا الخارجية كلها خطأ محض»، وظل عشر دقائق يفصل هذه الجملة، ثم بارح المكان بعدها غير منتظر إجابة مازاريك.

وشو، شأنه شأن سائر الساخرين، يعتقد أن السخرية بديل كاف من الحكمة، فكان يمكنه أن يدافع عن أي فكرة مهما بلغت سخافتها بمهارة تظهر المعترضين عليها بمظهر التغفل. التقيت به في حفلة عشاء من حفلات جمعية «إيرهون» أقيمت لتكريم صمويل بتلر^(٣)، حيث علمت في دهشة بالغة أنه يقبل كل كلمة تفوه بها ذلك الحكيم كأنها التنزيل، حتى ما كان يقصد به الدعاية والهزل مثل قوله إن مؤلف الأوديسة امرأة، فقد كان تأثير بتلر على شو أعظم بكثير مما اعتقد غالبية الناس، فمنه استمد عداءه لدارون، ذلك العداء الذي جعله فيما بعد يعجب ببرجسون، ومن الحقائق الغريبة حقًا أن الآراء التي ارتآها بتلر ليبرر بها حملته على دارون أصبحت الآراء الرسمية في الاتحاد السوفيتي.

(١) توماس جوريجو مازاريك (١٨٥٠ - ١٩٣٧): أول رئيس لجمهورية تشيكوسلوفاكيا فيما بين (١٩١٨ - ١٩٣٥).

(٢) فرانك آرثر سوينرتون (١٨٨٤ - ...): ناقد وقصاص ما زال حيًا حتى سنة ١٩٧٢.

(٣) صمويل بتلر (١٨٣٥ - ١٩٠٢): أحد أعداء مذهب دارون وصاحب كتاب «إيرهون» الذي اشتمل على أحسن فصل من فصوله بعنوان «دارون بين الآلات». وباسم هذا الكتاب تسمت الجمعية التي كرمته.

واحتقار شو للعلم لا مبرر له. فقد كان، كما كان تولستوي^(١) من قبل، لا يستطيع أن يؤمن بأهمية شيء لا يعلمه، فكان حردًا على التشريح لا لشقيقته على الحيوان فيما أظن، ولكن لكفره بالمعرفة العلمية التي يؤدي إليها التشريح، وكذلك كانت نزعتهم النباتية في اعتقادي لا عن دافع إنساني، ولكن عن باعث الزهد الكامن في نفسه، ذلك الزهد الذي عبر عنه بكل صراحة في الفصل الأخير من متوشالح.

وأحسن ما كان يجيد شو هو الجدل، فإن كان عند خصمه أي شيء من السخافة أو عدم الإخلاص، فإن شو ينقض عليه يخطئه لمتعة كل من يقف في صفه من الجدل. وقد نشر في بداية الحرب العالمية الأولى كتابه «المعقول في الحرب»، وبالرغم من أنه لم يكتب كتابة مسالم، فقد أوغر صدور معظم الوطنيين برفضه الاستكانة إلى النفاق في النعمة الأخلاقية المتعالية التي تتظاهر بها الحكومة وأنصارها، فكان في هذا يستحق الثناء كل الاستحقاق، حتى راح ضحية ملق الحكومة السوفيتية وفقد على حين فجأة قوة النقد ونفاذ البصر على فضح الادعاء إذا كانت موسكو مصدره. وعلى امتيازه الكبير في الجدل لم يكن يقترب من هذا المستوى في بسط آرائه التي كانت فوضوية نوعًا ما حتى استقرت في آخر عمره على الماركسية الصريحة.

لقد كانت لشو فضائل كثيرة تستحق الإعجاب الكبير، كان غير هيّاب بالمرّة، وكان يعبر عن آرائه بالقوة نفسها سواء أكانت تعجب الجمهور أم لا تعجبه، ولم يكن يرحم من لا يستحق الرحمة - ولكنه كذلك لم يكن يرحم من لا يستحق أن يكون من ضحاياه، والخلاصة أنه كثيرًا ما عمل صالحًا وقليلًا ما أساء، وأنه - حاطم أصنام - جدير بالإعجاب، ولكنه - صنمًا - لا يستحق كل هذا الإعجاب.



(١) ليو تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠): أكبر القصاصين الروس وأشهر نصير للفقراء في البلاد الروسية قبل الحكم الشيوعي.

هـ. ج. ويلز

وكان أول لقاء لي مع هـ. ج. ويلز في سنة ١٩٠٢ في منتدى صغير للنقاش أنشأه سدني وب، وأطلق عليه اسم «المتكافئين» أملًا في أن نكون فيما بيننا مجموعة من الأكفاء، وكنا حوالي اثني عشر عضوًا غاب بعضهم عن ذاكرتي وعلق بها آخرون أشهرهم السير إدوارد جراي، ومنهم هـ. ج. ماك كيندر^(١) (السير فيما بعد) الذي كان مدرسًا للجغرافيا في جامعة أكسفورد، والحجة الكبرى في العلم الألماني الذي استحدث آنئذ وهو علم الجغرافيا السياسية، وكان أهم ما همني منه تسلقه جبل كيلمنجارو وفي صحبته دليل محلي كان يمشي حافيًا إلا في القرى حيث كان يلبس حذاء الرقص، ومنهم آموري ومنهم الكوماندر بليزر، ضابط البحرية الخفيف الذي كان مشتبكًا على الدوام في معركة طنانة على المقعد البرلماني لدائرة كنجزلين ضد خصم اشتهر عند الجميع باسم «تومي بولز، نصير الجيش المقدام». وكان الكوماندر بليزر من الأحرار وتومي بولز من المحافظين، ولكن بعد حين أصبح بليزر محافظًا

(١) السير هالفورد جون ماك كيندر (١٨٦١ - ١٩٤٧): أحد علماء الجغرافيا الأعلام.

فتحول بولز إلى الأحرار فاستطاعا بهذا أن يواصلوا المعركة على دائرة كنجزلين، وكان بليرز في سنة ١٩٠٢ في منتصف الطريق من حزبه القديم إلى الحزب الجديد. وكان منهم و. أ. س. هيونز^(١) مدير مدرسة الاقتصاد، وقد قال لي ذات مرة إنه نشأ كاثوليكيًا رومانيًا ولكنه استبدل بإيمانه بالكنيسة إيمانه بالإمبراطورية البريطانية، وكان يعارض بشدة مبدأ حرية التجارة ونجح في محاولته استمالة جوزيف تشمبرلين^(٢) لقانون الإصلاح الجمركي، وأنا على علم بدوره الكبير في هذه الاستمالة إذ إنه أطلعني على المراسلات بينه وبين تشمبرلين قبل خروج هذا على الناس بمؤازرة القانون.

ولم أكن قد سمعت من قبل باسم ويلز حتى ذكر لي وب أنه دعاه ليكون من «المتكافئين»، وأخبرني أنه شاب يكتب قصصًا في الوقت الحاضر على نهج جولز فيرن^(٣)، وإن كان يأمل إذا اشتهر وأثري بهذه القصص أن يفرغ نفسه لعمل أجدي. ولم ألبث أن وجدت أنني بعيد جدًا عن التعاطف مع معظم «المتكافئين» بعدًا يحرمني الاستفادة من مناقشاتهم والمشاركة النافعة معهم، فقد كانوا جميعًا إمبراطوريين فيما عداي أنا وويلز وكانوا ينتظرون الحرب مع ألمانيا بغير توجس كبير، وكان عداؤنا المشترك لهذه الواجهة هو الذي جذبني إلى ويلز إذ كان اشتراكًا يرى الحرب الكبرى سخافة وتغفلًا في ذلك الحين، وإن ارتد عن هذا الرأي فيما بعد، وبلغت حدة الخلاف غايتها حينما أخذ السير إدوارد جراي، وكان في المعارضة، يروج لما أصبح بعد ذلك معروفًا باسم سياسة الوفاق مع فرنسا وروسيا التي انتهجتها وزارة

(١) وليم ألبرت صمويل هيونز (١٨٦٥ - ١٩٣١): اقتصادي وسياسي، كان أستاذًا للاقتصاد في الكلية الملكية ومديرًا لمدرسة لندن للاقتصاد - وكان أحد الدعائم المؤيدة لجوزيف تشمبرلين في حركة الإصلاح الجمركي.

(٢) جوزيف تشمبرلين (١٨٣٦ - ١٩١٤): زعيم الراديكاليين الإنجليز الذين كانوا ييشرون بالحرية للإنجليز في الداخل والاستعمار والإمبراطورية في الخارج.

(٣) جولز فيرن (١٨٢٨ - ١٩٠٥): قصاص فرنسي اشتهر بالقصص العلمي، ومن أشهر رواياته: حول العالم في ثمانين يومًا، وعشرون ألف فرسخ تحت البحر.

المحافظين بعد ذلك بسنتين وأيدتها وبلورتها سياسة إدوارد جراي نفسه حينما أصبح وزيراً للخارجية، ولقد عارضت هذه السياسة بحرارة لأنني كنت أشعر أنها دافعتنا مباشرة للحرب العالمية، ولكن لم يؤيدني في رأيي غير ويلز.

وكانت نتيجة هذا الاتفاق في الآراء السياسية أن دعوت ويلز وزوجه لزيارتي حيث كنت أسكن في باجلي وود قريباً من أكسفورد، إلا أن الزيارة لم تكن ناجحة كل النجاح، فقد أخذ ويلز في حضورنا يعير زوجته بلهجتها الكوكنية^(١) وهي تهمة (فيما بدا لي) كان هو أحق بها، ولكن أمراً نجم عن كتاب نشر له أخيراً اسمه «في أيام المذنبات» كان أخطر من هذا الخلاف بين الزوجين. ففي الكتاب أن الأرض تمر في ذيل مذنب يحتوي على غاز يجعل كل إنسان رشيداً في تصرفه، وكانت مظاهر الرشد ممثلة عنده في ظاهرتين: إحداهما أن حرباً كانت قائمة في عنفوان شدتها بين إنجلترا وألمانيا توقفت بالاتفاق بينهما، والأخرى شيوع الحب المتحرر، فهاجمته الصحف وحملت عليه لا لميوله السلمية ولكن لتحيضه على إشاعة الحب المتحرر، وقد رد على هذه الحملة بشيء من الحمية قائلاً إنه لم يحبذ الحب المتحرر وإنما كان يتنبأ فقط بما قد تحدثه بعض العناصر الجديدة في جو الأرض دون أن يتعرض لتقويمها خيراً أو شراً. وقد تراءى لي أن هذا التصرف منه مراوغة غير لائقة، فسألته: «لماذا حبذت الحب الحر أولاً ثم عدت وأنكرت أنك فعلت؟» - فأجابني بأنه لم يكن قد ادخر حتى ذلك الوقت مبلغاً كافياً من المال والعقار يمكنه من العيش على ريعه، وأنه لم يشأ أن ينشر دعوة الحب الحر حتى يدخر هذا المبلغ، وقد ساءني هذا الرد منه لأنني فيما يظهر كنت في تلك الأيام متمماً إلى حد بعيد.

ولم أره بعدها إلا قليلاً حتى وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها؛ إذ كان

(١) اسم لهجة عامية بين أبناء القرى التي ابتلعتها لندن في توسعها، وتستعمل الكلمة الآن للزراية أو للعطف، فتدل في الحاليتين على جهل صاحبها.

قد أخذ ينحاز في سنة ١٩١٤ إلى معسكر المؤيدين للحرب على الرغم من آرائه السابقة عن الحرب مع ألمانيا، وكان هو الذي اخترع الجملة المشهورة «الحرب لإنهاء الحرب» وقال إنه «يتحمس لهذه الحرب ضد العسكرية البروسية». وقد قال في الأيام الأولى للحرب إن عجلة العسكرية البروسية كلها قد شلت أمام استحکامات ليبج - التي سقطت بعد ذلك بيوم أو يومين. وقد كف سدني وب عن موقف التودد معه برغم اتفاقهما على الحرب لما أخذه عليه أخلاقياً من ناحية، وللحملة الواسعة التي حملها ويلز ليتزع من وب زعامة الجمعية الفابية. وقد عبر ويلز عن عدائه لآل وب في روايات متعددة ولم تتطامن من عداوته لهما بتاتاً.

وعادت المودة تتصل بين ويلز وبينني بعد انتهاء الحرب الأولى، وقد أعجبني كتابه «هوامش التاريخ»، ولا سيما فصوله الأولى، ورأيتني على اتفاق معه في كثير من الموضوعات. ولويلز طاقة ضخمة وقدرة على تنظيم كميات كبيرة جداً من المعلومات، كما كان محدثاً جيّاشاً مسلحاً تلمع عيناه ويخيل لمن يراه في مناقشة أنه يهتم بالموضوع اهتماماً موضوعياً ولا يكثر بمحدثه اكترائاً شخصياً، وكنت أزوره في منزله في أسكس في عطلة نهاية الأسبوع حين كان يصطحب ضيوفه إلى جارته اللادي وورويك، وهي من نصيرات حزب العمال العاملات وفي حديقته بحيرة محاطة بصفادع خضراء ضخمة من الخرف أهداها إليها إدوارد السابع، فكان من الصعب على زائرها أن يوفق في حديثه بين هاتين السمتين من شخصيتهما.

وأهمية ويلز مستمدة من الكم لا من الكيف، وإن كان ينبغي أن نعترف بأنه يمتاز في بعض الخصال، فقد كان يحسن تخيل السلوك الجماعي في الظروف الشاذة إحساناً كبيراً، مثلما فعل في «حرب العالمين»، وترسم بعض رواياته

أبطالاً لا يختلفون عنه رسماً مشبعاً، وهو أحد الذين جعلوا الاشتراكية في إنجلترا مبدأ له احترامه، كما كان له أثر عميق على ناشئة الجيل بعده لا في السياسة وحدها بل وفي الأخلاق الفردية، وكانت معرفته واسعة وإن لم تكن عميقة في أي جانب من جوانبها. وكانت له نقط ضعفه التي تحول بينه وبين تمام الحكمة، فقد كان من الصعب عليه جداً أن يحتمل التشنيع، فكان ينزل عن بعض آرائه اكتساباً لرضى الجماهير، مما يوقع الاضطراب وعدم الاتساق في تعاليمه، وكان يتعاطف مع الجموع تعاطفاً يعرضه لنوبات هستيرية كنوباتها، وكان إذا حاقت به تهمة التحلل وعدم الإخلاص يعمد إلى كتابة قصة من طبقة أدنى، هدفها إبعاد التهمة عن نفسه، كقصته «روح القس» أو قصة الزوجين اللذين شجر بينهما الخلاف فذهبا للقضاء على أسبابه في رحلة شتوية إلى لبرادور حيث رأب صدعهما صراعهما معاً ضد دب قطبي. وفي آخر مرة زرتة فيها، وكان ذلك قبيل موته، تحدث باهتمام كبير عن الضرر الناجم من تشتت اليسار، وفهمت من جو حديثه، وإن لم يقل هو ذلك صراحة، أنه يرى وجوب التعاون التام بين الاشتراكيين والشيوعيين، ولم يكن هذا هو رأيه حين كان في أوج قوته حينما كان يعبث بذقن ماركس ويحرض الناس على ألا يأخذوا بالدين الماركسي الجديد.

وأهمية ويلز الأولى هي أنه محرر للفكر والخيال. فقد كانت له مقدرة على تكوين صور لمجتمعات ممكنة، جذابة وغير جذابة، تشجع الصغار على تصور إمكانات، ما كانت لولاه لتدور بأخلاقهم، وكان يستحدث هذه الصور في بعض الأحيان بطريقة غاية في التوضيح، فإن قصته «بلد العميان» تجديد متشائم بلغة العصر لأسطورة الكهف عند أفلاطون. وطوبياته المتعددة، وإن كان ينقصها صمود التركيب، إنما تهدف إلى ابتعاث تيار فكري قد يؤتي أكلاً مفيداً. وهو دائماً متمسك بالعقل متجنب

صور الطيرة المختلفة التي يقع فيها العقل الحديث، مؤمن بالمنهج العلمي إيماناً سليماً حافزاً، وتفاؤله في جملته - وإن حالت ظروف العالم دون التمسك به - ربما يؤدي إلى نتائج أطيب بكثير مما يؤدي إليه التشاؤم القعيد الذي أخذ يسيطر على الناس. وأظن، على الرغم من بعض التحفظات، أن المرء ينبغي أن يرى في ويلز قوة دافعة كبيرة نحو تفكير سليم بناء سواء في نظم المجتمع أو في علاقات الأفراد، وأرجو أن يكون له خلفاء، وإن كنت لا أرى منهم في الوقت الحاضر أحداً.



جوزيف كونراد

تعرفت على جوزيف كونراد في سبتمبر ١٩١٣، حيث قدمتنى إليه صديقة الطرفين اللادي أوتولين موريل، وكنت معجبًا بكتبه قبل ذلك بسنوات، ولكنني ما كنت لأغامر بالتعرف عليه لولا أن يقدمني أحد، فلما تم التعارف سافرت إلى منزله قريبًا من آشفورد بمقاطعة «كنت» وأنا على شيء من الלהفة والقلق، فكان أول ما طبعه في نفسي شعور بالاستغراب. كان يتكلم الإنجليزية ولكنه أجنبية واضحة جدًا ولم يكن يظهر على سلوكه أي أثر يوحى بالبحر. كان أرستقراطيًا بولنديًا إلى أطراف أصابعه وكان شعوره نحو البحر ونحو إنجلترا أشبه بالحب الرومانتيكي، يتباعد إلى درجة تتيح للحب ألا تشوبه شائبة، وقد بدأ حبه للبحر وهو بعد صغير جدًا، فلما قال لوالديه إنه يرغب في العمل في البحر دفعوه إلى البحرية النمساوية؛ إلا أنه كان يريد المغامرة في البحار الحارة والأنهار الغريبة المحفوفة بالغابات المظلمة، وهذا ما لا تتيحه له البحرية النمساوية، وقد تلقى أبواه بالفزع نبأ بحثه عن عمل في البحرية التجارية الإنجليزية، ولكنه لم يكثر ولم ينش عن عزمه.

وقد كان كونراد، كما يظهر لكل من يقرأ كتبه، متنطسًا في الأخلاق، قليل العطف على الثوريين في السياسة، ولم تكن على أتم وفاق في معظم آرائنا، ولكننا كنا، في شيء أساسي جدًا، متحدين بشكل غريب.

ولا تشبه علاقتي بجوزيف كونراد أي علاقة لي مع أحد من الناس؛ إذ قلما كنت أراه، ولم تطل العلاقة فترة طويلة من السنين، وكنا في ظاهر نشاطنا في الحياة غريبين، ولكننا كنا نشترك في نظرة معينة للحياة الإنسانية ومصير الإنسان اشتراكاً ربط بيننا من الوهلة الأولى برباط غاية في المتانة، ولعل القارئ يغفر لي أن أقتبس جملة من أحد خطاباتهِ التي كتبها لي في أول تعارفنا، أشعر بأن التواضع يملِي عليّ ألا أقتبسها لولا أنها تعبر أصدق تعبير عما شعرت به نحوه، فكان الشعور الذي عبر عنه، والذي شعرت به بعينه نحوه هو «عاطفة إعجاب عميق لو لم يقدر لك أن تراني بعد اليوم وقدر أن تنساني غداً لظَلَّتْ العاطفة قائمة لك عندي بلا تغيير إلى الأبد».

ولم يستحوذ على إعجابي في كل ما كتب شيء أكثر من «قلب الظلمات»، يدفع فيه رجل مثالي على شيء من الضعف إلى الجنون، بفعل الرعب في الغابات الحارة والوحدة بين قوم متوحشين، وهي قصة فيما أعتقد تعبر عن فلسفته في الحياة أكمل تعبير. وقد شعرت، وإن لم أكن على علم بأنه كان يقبل هذه الصورة أو يرفضها، أنه يتصور الحياة الإنسانية المتحضرة المتخلقة تشبه نزهة خطيرة على قشرة رقيقة من طفع البراكين التي بردت ولما تكد، ويمكن أن تنكسر في أي لحظة فيغرق من عليها في أعماق من النيران؛ إذ قد كان على وعي بكل صور الجنون المندفع الذي يصاب به الإنسان، وكان هذا هو الذي جعله يؤمن إيماناً عميقاً بضرورة النظام، وربما أمكنني أن أصور وجهة نظره بأنها، على نقيض فكرة روسو^(١)، تقول: «إن الإنسان قد وُلِدَ مصفّداً بالأغلال، ولكن بإمكانه أن يتحرر» وأعتقد أن كونراد يرى أنه يتحرر لا بانفلات البواعث، ولا بالانطلاق بغير اكتراث ولا رباط، ولكن بإخضاع البواعث الجامحة لغرض مسيطر.

(١) جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨): نبي الثورة الفرنسية وكاتب إنجيلها [العقد الاجتماعي] وباعث الحركة الرومانتيكية في كل مجالات الأدب والفلسفة والسياسة.

ولم يكن كونراد يهتم كثيرًا للأنظمة السياسية وإن كان يشعر ببعض المشاعر السياسية القوية، وأقوى هذه المشاعر عنده حبه لإنجلترا وكرهيته لروسيا، وهما العاطفتان اللتان عبر عنهما في «العميل السري»، كما بسط كراهيته لروسيا، سواء القيصرية والثورية، بقوة كبيرة في «تحت عيون الغرب» وكان مقته لروسيا هو المقت التقليدي في بولندا، وكان يتطرق فيه حتى لا يرى فضلًا لتولستوي ودوستوفسكي، أما تورجنييف^(١) فقد قال مرة إنه القصاص الروسي الوحيد الذي يعجبه.

وفيما عدا حبه لإنجلترا وكرهيته لروسيا لم تكن السياسة تهمة كثيرًا، بل كان ما يهمه هو روح الفرد البشري الذي تواجهه الطبيعة بقلّة الاكتراث ويقابله الإنسان بالعداء. والذي يتعرض لمصارع العواطف الداخلية الصالحة والفاصلة صراعًا يؤدي به إلى التلف. وكانت مآسي الوحدة تشغل جانبًا كبيرًا من تفكيره وشعوره، وقصته «التيفون» نموذجية في هذا؛ إذ تصور قبطانًا بسيطًا يسلم بسفينة من العاصفة بشجاعة لا تتداعى وعزم وإصرار شديدين، ثم يكتب خطابًا مطولًا لزوجته بعد هدوء العاصفة يصفها فيه ويصور دوره في قصته كأنه شيء بسيط للغاية لا يعدو مجرد قيامه بواجب القبطان كما يتوقعه الجميع طبعًا، ولكن القارئ يشعر من سياق قصته بكل ما فعل وكل ما تجاسر عليه وبكل ما احتمل، ويطلع خادمه سرًا على الخطاب قبل إرساله ولكنه لا يحظى بقارئ سواء لأنه عند الزوجة ممل يُلقى به بغير اطلاع.

ويبدو أن أكبر ما كان يشغل خيال كونراد شيئان: الوحدة، وخوف غير المألوف، فتصور قصته «طريد الجزر» خوف الغربة كما صورتها قصته «قلب الظلمات» وكلا الشاغلين يظهران في القصة المستجيشة التي أسماها «آمي فوستر»، ففيها أن فلاحًا سلافيًا من الجنوب ينجو وحده من حطام سفينته الذاهبة إلى أمريكا ويلقى به في

(١) ليو تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠) وفودور دوستوفسكي (١٨٢٢ - ١٨٨١) وإيفان تورجنييف (١٨١٨ - ١٨٨٣) هم أكبر القصاصين الروس ذوي الشهرة العالمية.

مقاطعة «كنت» فتخافه القرية كلها وتسيء معاملته إلا آمي فوستر، الفتاة الساذجة الغبية التي تأتيه بالخبز حينما يتضور جوعاً ثم تتزوج به آخر الأمر، إلا أنها هي الأخرى تحمل طفلها وتهرب منه عندما تسمعه في نوبة من نوبات الحمى يتكلم بلسان قومه، فيسيطر عليها الخوف من غربته، ولكم تساءلت عن مدى أثر هذه الوحدة على نفس كونراد وهو يعيش بين الإنجليز، وكيف تغلب عليه بمجهود إرادي صارم.

ولم تكن نظرة كونراد نظرة حديثة، ففي العالم الحديث فلسفتان: واحدة تنجم من روسو وتكتسح النظام لأنه غير ضروري، والأخرى هي التي تتمثل بتمامها في المذاهب الدكتاتورية التي ترى وجوب فرض النظام على الإنسان من خارجه، أما كونراد، فإنه يأخذ جانب التقاليد العريقة التي ترى أن النظام يجب أن ينبع من داخل النفس، فقد كان يزدري قلة النظام كما كان يكره النظام المفروض.

في هذا كنت أراني على أتم اتفاق معه، فقد تحدثنا في أول لقاء بيننا حديثاً يزداد ألفة مع كل جملة، وبدا كأننا نغوص طبقة بعد طبقة تحت السطح حتى وصلنا آخر الأمر إلى النار المركزية، وكانت تجربة تختلف عن كل ما جربت من قبل. كنا ننظر في أعين بعضنا بعضاً ويفزعنا ويسكرنا أن نجد أنفسنا معاً في هذا المحيط، وكانت العاطفة عارمة كالعشق، شاملة كل الكيان، تركتني مرتبكاً لا أكاد أستبين طريقي في شؤون الحياة المألوفة.

ولم أرَ كونراد في أثناء الحرب العالمية ولا بعدها حتى عدت من الصين في عام ١٩٢١، فلما ولد أول أبنائي في تلك السنة، رغبت أن يكون كونراد له أقرب ما يكون من أب العماد، ولكن بغير احتفال رسمي، فكتبت إليه أقول، إنني أرغب بعد استئذائك، أن أطلق على ابني اسم «جون كونراد» فاسم أبي جون واسم جدي جون واسم جدي الأكبر جون، وكونراد اسم أرى له فضلاً. «فقبل العرض وأهدى بعد ذلك إلى ابني الكأس المعتادة في مثل هذه المناسبات».

ولم أكن أراه كثيرًا؛ إذ كنت أسكن معظم العام في كورنول، وكانت صحته تتدهور، ولكنني كنت أتلقى منه رسائل ساحرة، أخص بالذكر منها رسالة عن كتابي عن الصين كتب يقول فيها: «لقد كنت دائمًا أحب الصينيين حتى من حاول منهم أن يقتلني (ويقتل آخرين) في فناء منزل خاص في شانتاه بون، وحتى ذلك الذي سرق كل نقودي (ولكن على درجة أقل) في إحدى الليالي في بانجكوك، ولم ينس أن ينفذ ويطوي ملابس طيًا أنيقًا لكي ألبسها في الصباح قبل أن يتوارى في أعماق سيام، ولكم تلقيت العطف والعون من مختلف الصينيين. هذا، وحديث ليلة كاملة مع سكرتير صاحب السعادة تسنج Tseng في شرفة أحد الفنادق، ودراسة متصنعة لقصيدة «الصيني الوثني» هو كل ما أعلمه عن الصينيين، ولكن بعد قراءة كتابك المشوق للغاية عن مشكلة الصين، أراني أنظر نظرة قاتمة إلى مستقبل هذه البلاد». ثم استطرد يقول: «إن آرائي في مستقبل الصين توقع القشعريرة في النفس - لا سيما وقد علقت آمالي على الاشتراكية الدولية - ذلك الشيء الذي لا يمكنني أن أتصور له أي معنى ذي حدود، فما أمكنني قط أن أجده في كتاب أي كاتب أو حديث أي محدث شيئًا مقنعًا يكفي للوقوف لحظة واحدة أمام شعوري العميق بالقدر المسيطر على عالم الإنسان». ثم انتقل إلى القول بأن الإنسان الذي صار يطير: «لا يطير كما تطير النسور بل كما تطير الخنافس! ولعلك ترى كم يقبح وكم يدعو للسخرية وزرابة البلاهة أن تطير الخنافس»، وقد شعرت أنه يصدر هذه الملاحظات المتشائمة عن حكمة أعمق مما صدرت أنا في آمالي الزائفة نوعًا ما في مستقبل سعيد للصين، وينبغي أن يقال هنا إن الحوادث إلى الآن تؤيده.

هذا الخطاب هو آخر عهدي به، فما رأيته بعدها ولا حادثته، رأيته مرة على الجانب الآخر من الطريق يتحدث في شغف ظاهر مع رجل لا أعرفه، وكانا واقفين أمام باب منزل كان يومًا ما منزل جدتي ثم أصبح بعد موتها «نادي الفنون»، ولم أستحسن أن

أقاطعهما في حديث يبدو على جانب كبير من الأهمية والخطر فمضيت في طريقي، فلما مات بعد ذلك بقليل أسفت أن لم أكن أجراً مما كنت. فأما ذلك المنزل فقد ذهب؛ إذ سواه بالأرض هتلر^(١)، وأما كونراد فإنه فيما أفترض في طريقه إلى النسيان، ولكن نبلة الدافئ الكبير يسطع في ذاكرتي كما يسطع النجم في عين رجل في قاع بئر، ولكم أتمنى لو استطعت أن أجعل ضيائه تسطع على غيري كما تسطع عليّ.



(١) أدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥): زعيم النازية ودكتاتور ألمانيا منذ ١٩٣٣، ومشعل الحرب العالمية الثانية ليحقق بعض الأهداف الاستعمارية التافهة لألمانيا، ففشل في تحقيقها ونجح في جر الخراب عليها وعلى العالم أجمع.

جورج سانتايانا

لقيت سانتايانا أول ما لقيته في تمبل جاردنز ذات أصيل في يونيو سنة ١٨٩٣؛ إذ أمتست الحرارة بعد يوم صائف قائظ لذيدة، وكان منظر لندن مسكرًا، وكنت قد انتهيت لتوى من امتحان الدرجة في الرياضة بعد عشر سنوات من الإعداد المضني، وكنت على وشك النزول لميدان الفلسفة، وكان أخي الذي عرفت سانتايانا عن طريقه قد أخبرني أنه فيلسوف، فنظرت إليه بتجلّة وإكبار، لا سيما وأني كنت في حالة تدعوني إلى شعور بالانشراح المنطلق.

كانت له حينئذ عينان براقتان ذواتا جمال كبير، وأنصت إليه باحترام لأنه بدا لي تجسيدًا لمزيج صعب من الأمريكية والإسبانية، إلا أنني على كل حال لا أذكر شيئًا من حديث تلك المناسبة.

فلما ازددت به معرفة، وجدتهني أشاركه في أشياء وأختلف معه في كثير. كان يبدو على شيء من الترفع وقلة التحزب، وإن لم يكن في ذلك مخلصًا كل الإخلاص. فبالرغم من أن أبويه كليهما كانا إسبانيين، إلا أنه نشأ في بوسطن ودرس الفلسفة في هارفارد، ومع ذلك كان دائمًا يحس إحساس المنفي من إسبانيا، لهذا كان يتحمس

للإسبان في الحرب الأمريكية الإسبانية، وهو أمر لا يدعو للاستغراب؛ إذ إن أباه كان محافظاً مانيللاً، وكان كلما أثير شعوره الوطني الإسباني يلقي بتصنع التباعد والتعالي جانباً. وتعود أن يقضي الصيف في بيت أخته في مدينة إفيلا القديمة، وروى لي مرة أن السيدات هناك يجلسن في النوافذ يغزلن المارة من معارفهن، ثم يستغفرن عن هذا العبث بعد ذلك بالاعتراف، فتهورت في ملاحظة قتلها هي: «إن هذا النوع من الحياة يبدو ماسحاً بآخاً»، عندئذ اعتدل وأجابني بحدة: «إنهن يقضين حياتهن في أعظم شيء في الحياة: الحب والدين».

وكان في وسعه أن يطوي في إعجابه الإغريق الأقدمين والإيطاليين المحدثين حتى موسوليني^(١)، ولكنه يعجز عن الشعور المخلص بالاحترام لكائن من كان من أبناء شمال الألب، فقد كان يعتقد أن شعوب البحر الأبيض وحدهم هم القادرون على التأمل والتفكير، وأنهم وحدهم هم الذين يمكنهم أن يكونوا فلاسفة. أما الفلسفة الألمانية والبريطانية فكان يراها محاولات متعثرة لأجناس ناقصة النضج. ولم يكن يعجبه من أبناء الشمال إلا الرياضيون ورجال الأعمال. وكان صديقاً حميماً لأخي الذي لم يكن يندفع في محاولات طائشة لاستطلاع الأسرار، أما بالنسبة لي فقد كانت نظرتي إليَّ شأن نظرتي إلى سائر فلاسفة الشمال، نظرة الرثاء اللطيف لمن يحاولون مرتقى أعلى مما يطيقون، على أن هذه النظرة لم تعكر قط صفو علاقاتنا؛ لأن ثقتي الذاتية بوطني مساوية تمام المساواة لثقته.

وكان سانتايانا في حياته الخاصة على تمام الشبه بما يبدو منه في كتبه، دمث الخلق متنطساً في دقته، قليل الهياج. قال لي قبيل معركة المارن بأيام حينما بدا أن

(١) بنيتو أميلكاري آندريا موسوليني (١٨٨٣ - ١٩٤٥): الدوتشي أو القائد والزعيم للحزب الفاشستي الذي استولى على الحكومة الإيطالية وحكمها حكماً دكتاتورياً منذ ١٩٢٣ إلى ١٩٤٣، وقد قتل أبشع قتلة في شمال إيطاليا في سنة ١٩٤٥.

سقوط باريس في يد الألمان أمر قريب الوقوع:

«أظن أنه يحسن أن أذهب إلى باريس لأن بها ملابسني الداخلية الشتوية ولا أحب أن تقع في يد الألمان، ولأنني تركت بها مخطوط كتاب ظللت أعمل فيه السنوات العشر الأخيرة، وإن كان هذا لا يهمني كثيرًا»، وعلى أي حال أبعدت معركة المارن عنه ضرورة الذهاب.

وفي ذات أصيل في كمبريدج، وكنت أراه كل يوم في ذلك الحين، قال لي: «إنني ذاهب إلى إشبيلية غدًا؛ لأنني أحب أن أكون في مكان لا يكبح الناس فيه عواطفهم» وهو موقف لا يستغرب في ظني من رجل قلت عنده العواطف التي تكبح.

حكى في «تاريخ حياته» عن مناسبة استطاع فيها أخي أن يستفزه إلى درجة محدودة من حرارة الشعور، فقد كان لأخي يخت دعا سانتايانا ليصحه عليه، وكان اليخت راسيًا على شاطئ ضحل ولا يمكن الوصول إليه إلا على مرقاة ضيقة جدًا اجتازها أخي بخفة، ولكن سانتايانا خشي الوقوع في الطين، فمد أخي يده إليه، ولكن سوء الحظ أخل بتوازن سانتايانا فسقطا معًا في بركة من الوحل اللازب على شاطئ النهر، ويقول سانتايانا بشيء من الفزع إن هذه المناسبة قد أطلقت لسان أخي بكلام لم يكن يتوقع أن يعرفه إيرل.

وكان ثمة شيء كالتكلف في شخصية سانتايانا، كانت ملابسه على الدوام أنيقة، وكان ينتعل -حتى في حوارى الريف- حذاء من الجلد اللامع ذا أزرار، وأظن أن امرأً على نصيب كافٍ من الذكاء ربما يستطيع أن يستنتج هذه الخصائص من أسلوبه الأدبي.

وعلى الرغم من عدم إيمانه بالكاثوليكية دينًا، كان يناصر الكاثوليكية سياسيًا واجتماعيًا، ولم يكن يرى داعيًا أن يؤمن الناس بشيء حقيقي، بل يرى أن يعطي

الناس خرافة يمكنه أن يوافق عليها جماليًا، وهذا بطبيعة الحال ما أثار فيه العداء للبروتستانتية وجعل الذين لهم نظرة بروتستانتية في الحياة يرمقونه بعين الانتقاد. فقد حكم وليم جيمس^(١) على رسالته في الدكتوراه بأنها «كمال التعفن»، وظلا ما ظلا من عدد سنين زميلين لم ينجح أحدهما في إحسان الظن بصاحبه.

أما أنا فما استطعت في حياتي أن أحمله محمل الجد على أنه فيلسوف بالمعنى الاصطلاحي، وإن كنت أعتقد أنه يقوم بعمل مفيد حين يعمل ناقدًا يقرب ويرجع وجهات نظر غير شائعة في الوقت الحاضر. إن الزبي الأمريكي الذي تظهر فيه كتاباته يخفي إلى حد ما طريقة تفكيره المتطرفة في الرجعية، فلم يكن وهو الإسباني يتخذ جانب الكنيسة في السياسة في كل محاولاتها لإرساء التقاليد القديمة في تلك البلاد وحسب، ولكنه حتى وهو فيلسوف كان يتردد إلى حد كبير إلى مدرسي القرن السادس عشر، ولم يسط هذه النظرية بصراحة كما يفعل التوميون المحدثون^(٢)، ولكنه كان يخفيها تحت أسماء مستعارة مختلفة حتى ليضل قارئه بسهولة عن مصدر هذه الآراء. على أنه ليس من العدل أن ندعي أن آراءه جميعًا ترجع إلى مدرسي العصر الوسيط، ولعله أخذ من أفلاطون أكثر مما أخذه القديس توماس منه، ولكني أعتقد أنه لو التقى بالقديس توماس فإنهما سيتفاهمان أحسن تفاهم.

وكتابه الرئيسان في الفلسفة المحضة هما «حياة الحجا» الذي نشر سنة ١٩٠٥، و«مجالات الوجود» الذي نشر بين عامي ١٩٢٧ و ١٩٤٠، ويعالج سانتاينا حياة الحجا في خمسة عناوين هي:

-
- (١) وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠): فيلسوف أمريكي اشتهر بمذهبه في البراجماتزم التي تعد الفلسفة العملية التي تصور الروح الأمريكية الشعبية الشائعة التي تتميز بها شخصية الأمريكان.
- (٢) هم مجددو فلسفة القديس توماس الأكويني (١٢٢٦ - ١٢٧٤) فيلسوف الكنيسة الكاثوليكية المعتمد في العصور الوسطى.

الحجا في المعقول، وفي المجتمع، وفي الدين، وفي الفن، وفي العلم.

ولست أشعر شخصياً أن هذا الكتاب يحتمل أن يجذب القارئ إلى نوع الحياة التي يعتبرها سانتاينا حياة رشيدة، فهي حياة أهدأ مما يجب، تغالي في موقف المتفرج وتتطرف في عزوفها عن العاطفة التي مهما يبلغ من وجوب ضبطها تبدو لي، أنا على الأقل، عنصرًا جوهريًا في أي حياة تستحق عناءها. أما «مجالات الوجود» -آخر عمل فلسفي مهم قام به- فيعالج الماهية والمادة والحقيقة والروح على هذا الترتيب. وهو لا يهتم في هذا الكتاب كشأنه في سائر كتبه بأن يجادل، وكثير من كلامه، ولا سيما فيما يتعلق بالماهية، يتجاهل كثيرًا من الفلسفات التي يعدها معظم الفلاسفة المحدثين واجبة الاعتبار، وهو يتغافل كل التغافل عن المنطق الحديث الذي ألقى ضوءًا جديدًا على مشكلة «الكليات» القديمة التي شغلت جانبًا كبيرًا من اهتمام المدرسين، ويبدو أن «مجال الجوهر» يفترض بمعنى من المعاني حقيقة وجود الكليات، ومن الطيش أن نحكم بأن هذه النظرية باطلة، ولكن الذي يمتاز به سانتاينا هو أنه يفترض صدقها دون أن يكلف نفسه عناء إقامة الحجة عليها.

وعلى الرغم من أنه أنفق حياته العاملة أستاذًا للفلسفة في هارفارد، إلا أن أهميته الأدبية ترجح أهميته الفلسفية؛ فأسلوبه ليس كما يجب أن يكون عليه الأسلوب حسبما أفهم، فهو كحذائه الجلدي اللماع أنعم وأنصع مما يليق، يطبع على نفس قارئه إحساس المنزلق على جدول رقراق عريض، بعد شاطئيه عن بصره، حتى إذا ما ظهر فيه رأس ناتئ، خُيِّل إليه أنه نهر غير النهر، وأنه لم يكن من قبل يدرية. ولقد أجد نفسي أوافق على كل جملة أقرأها بشعور مخامر كشعور من يمشي وهو نائم، ولكني لا يتأتى لي بعد المضي بضع صفحات أن أذكر فيم كانت وعلى أي معنى تدور.

ولكني مع هذا أدين له ببعض الديون الفلسفية؛ فقد كنت وأنا صغير لا أزال أوافق

ح. أ. مور على اعتقاده في موضوعية الخير والشر، ولكن نقد سانتايانا لها في كتابه «رياح العقائد» جعلني أهجر هذه النظرة، وإن لم أستطع قط أن أستنيم مستريحاً بهذا كما كان يستريح.

ولقد كتب الكثير في النقد الأدبي، وكان بعض ما كتبه ممتازاً، وله كتاب يسميه «ثلاثة شعراء فلاسفة» كتبه عن لوكريتيوس^(١) ودانتي^(٢) وجوته، وقد جرحه رأيي أنه كان أحسن في كتاباته عن الشاعرين الإيطاليين منه عن الشاعر الألماني، فقد بدت لي كتاباته عن جوته كسياحة المقسور لا يفتأ يصطدم فيها استحسانه العقلي بنفوره المزاجي الدفين من الشاعر الشمالي، ووجدت هذا النفور أكثر تشويقاً من الاستحسان، وتمنيت لو أطلق له العنان.

وكان يشعر بالكثير من المودة لإنجلترا، وكتابه «النجوى في إنجلترا» كتاب يقرؤه أي إنجليزي وطني بلذة وسرور، كما كتب قصة يلعب فيها أخي (وكان يوده كثيراً) دور الشرير، وكتب تاريخ حياته في عدة أجزاء أشوق ما يشوق فيها عرضه للصدام بين مزاجه الإسباني وبيئته البوسطونية، وكان يتباهى بأن أمه، وهي أرملة في بوسطن، كانت تثير قلق أصدقائها في إنجلترا الجديدة لأنها لا تشغل بشيء قط، فلما وفدوا عليها يسألونها كيف تقطع الوقت أجابتهم: «حسناً، سأقول لكم: إني في الصيف أبترد وفي الشتاء أستدفئ». فكان يمنعه الإعجاب بهذا الجواب أن يألف إنجلترا الجديدة.

وقد كتب كثيراً عن ثقافة أمريكا التي لا ينظر إليها نظرة عالية، وألقى خطابه في جامعة كاليفورنيا بعنوان «التقاليد المهيبة في الفلسفة الأمريكية» محوره أن أمريكا

(١) تيتوس لوكريتيوس كاروس (٩٩-٥٥ ق.م): شاعر روماني اشتهر بقصيدته «في مظاهر الطبيعة» التي تحدث فيها عن الطبيعة حديثاً أبيقورياً واضحاً.

(٢) دانتي الليجييري (١٢٦٥-١٣٢١): شاعر إيطالي من فلورنسا صاحب الكوميديا الإلهية.

الأكاديمية غريبة عن روح البلاد القوية العارمة -على قوله- وإن كانت نفعية واطئة. وقد تراءى لي في جولاتي في الجامعات الأمريكية أنها تكون أكثر اتساقاً مع روح البلاد، لو أن مبانيها ناطحات سحب بدلاً من مبان تشبه البناء القوطي منتظمة حول باحة كبيرة، وهذا هو ما كان يراه سانتايانا أيضاً. إلا أنني شعرت كذلك بشيء من الاختلاف معه؛ إذ إنه كان يستمتع بالتعالى والازدراء، بينما كنت أشعر -إذا اضطررت لمثل هذا الموقف- بالألم البالغ.

لقد كان التعالي والازدراء الميسور نقيصتيه وهما السبب في أنه -وإن كان حقيقاً بالإعجاب- كان شخصاً يصعب حبه.

ولكن من العدل أن أعدل هذا الحكم بحكمه عليّ فهو يقول:

«حتى حين تكون بصيرة رسل على أحدها وأنفذها، فإن كداسة بصره تركزها أكثر مما يجب، فتكون البؤرة مجهرية، فيرى شيئاً واحداً بوضوح غريب أو يرى خطأ واحداً من التاريخ والسياسة، فيعميه الوضوح الحي لهذا الشيء الجزئي عن رؤية الباقي».

كما أنه يتهمني -ويا له من اتهام- بالمحافظة الدينية، وهو حكم أترك للقارئ أن يكون رأيه فيه.

ولا يبدو أن سانتايانا قد شعر لمحة عين أن ولاءه للماضي، وإن أمكنه أن ينشره ويعممه، قد يستحدث عالماً لا حياة فيه ولا يتاح لشيء طيب جديد أن ينمو فيه، فلو أنه عاش في زمن جاليليو^(١)، لكان قد أظهر تخلفه في الكتابة الأدبية عن

(١) جاليليو جاليلي (١٥٦٤ - ١٦٤٢): عالم الطبيعة والفلك الإيطالي الشهير، ومحدث الثورة الكبرى في الفكر الإنساني، حين قلب نظام أرسطوطاليس الفلكي رأساً على عقب، ويعد إحدى كبريات علامات الطريق على بداية العصر الحديث.

لوكريتيوس، ولكن لوكريتيوس كان يبسط نظرية يرجع تاريخها إلى بضعة قرون قبله. وإني لأشك في أن كتابات ديمقريطس^(١) وأبيقور^(٢)، اللذين بسطا هذه النظرية في حداثتها تبلغ في جمالها ولذتها ما بلغته أشعار لوكريتيوس، ولكن كتاباتهما، لحسن حفظهما فيما يبدو، قد فقدت، فيبقى رأيي على ذلك من قبيل التخمين. ولكن الذي لا شك فيه هو أن الجديد لا يمكن أن يكون مصقولاً كصقل القديم، وإن عبادة الصقل على هذا لا تتمشى مع الامتياز الجديد. وهذا هو السبب في أن فضل سانتايانا أدبي لا فلسفي.



(١) ديمقريطس (٤٦٠ ق. م): فيلسوف إغريقي عرف بالنظرية الذرية التي أخذها أصلاً عن أستاذه ليوسيبيس.
(٢) أبيقور (٣٤٢ - ٢٧٠ ق. م): فيلسوف إغريقي أقام مذهبه على طلب اللذة بأكبر قدر مع أقل قدر ممكن من الألم المصاحب.

ألفريد نورث هوايتهد

كان أول اتصالي بهوايتهد، أو على الأصح بأبيه، في سنة ١٨٧٧. قيل لي يومها إن الأرض كروية، ولكنني ثقة مني بشهادة الحواس، رفضت تصديق هذا الزعم، فاستدعى قسيس الأبرشية، والد هوايتهد، ليقنعني بصحته. وكانت السلطة الكنسية متغلبة في نفسي حتى ذلك الحين، مما جعلني أعتقد أن التجربة تستحق القيام بها، فأخذت في حفر حفرة لعلني أخرج منها إلى الطرف الآخر من الأرض، فلما قيل لي إن هذا عمل لا فائدة منه عادت إليّ شكوكي.

وانقطع اتصالي بهوايتهد بعدها حتى سنة ١٨٩٠؛ إذ دخلت كمبريدج مستجداً وحضرت له محاضرات في «الثوابت»، وطلب من طلاب الفرقة أن يستذكروا المقالة ٣٥ في الكتاب المدرسي، ثم التفت إليّ وقال: «لا حاجة بك إلى استذكارها فأنت تعلمها سلفاً». وكنت قد استشهدت بها وبأرقامها في امتحان الإعانة المدرسية قبل ذلك بعشرة أشهر، فكان أن استحوذ على قلبي بتذكره هذه الحقيقة، ولم يقف عطفه عليّ عند هذا الحد، فقد أخبر جميع النوابغ من الطلبة أن يبحثوا عني بدعوى امتحان الإعانة المدرسية، فيسر لي بذلك أن أتعرف في خلال أسبوع واحد بهم جميعاً، ومنهم من ارتبطت بصداقته طول العمر، وكثير ما هم.

وقد استفدت من إرشاد هوايتهد في خلال النقلة التدريجية من طالب إلى كاتب مستقل، وكانت نقطة التحول هي رسالة الزمالة في سنة ١٨٩٥؛ إذ ذهبت إليه قبل ظهور النتيجة بيوم فانتقد رسالتي بشيء من العنت وإن كان بحق، فتهاويت وقررت أن أبرح كمبريدج دون انتظار لإعلان النتيجة في غدي (ولكنني غيرت رأيي على كل حال حينما سمعت الثناء على الرسالة من جيمس وارد)، فلما علمت باختياري زميلاً، ألزمته زوجته بأن يصلح ما كان من قسوة نقده، فدافع عن نفسه بقوله إنها كانت آخر مرة يستطيع فيها الكلام إليّ وأنا تلميذ. فلما أصبحت لي في سنة ١٩٠٠ آراء خاصة بي، كان من حسن طالعي أن أقنعه بأنها ليست عديمة الفائدة. فكان هذا أساس التعاون عشر سنوات في سفر ضخّم ليس فيه جزء واحد يرجع الفضل فيه لأي منا على حدة في جملة.

وكانت إنجلترا تنظر إلى هوايتهد على أنه رياضي فقط، تاركة فضل اكتشافه فيلسوفاً وأمريكا، وكنا على خلاف في الفلسفة إلى درجة يستحيل معها التعاون في العمل، فلما ذهب إلى أمريكا قلّت جدّاً مقابلاتي له بطبيعة الحال. وقد بدأ التيار يفترق بنا في الحرب العالمية الأولى؛ إذ كان يخالفني كل المخالفة في موقفي المسالم، ولكنه كان في هذا الخلاف أكثر تسامحاً مني، وإن الجانب الأكبر من الخطأ ليقع عليّ في أن هذا الخلاف قد أدى إلى أن هاضمت روابط الصداقة بيننا.

وقد حدث في الشهور الأخيرة للحرب أن قُتل ابنه الأصغر تو بلوغه الثامنة عشرة، فكان ذلك مصدر حزن مريع له لم يستطع أن يواصل معه العمل إلا بمجهود جبار من الترويض الروحي، وكان لهذا الألم أثر كبير جدّاً في تحويل أفكاره نحو الفلسفة وبحثه عن مهرب من الاعتقاد في عالم آلي محض.

وكانت فلسفته غامضة للغاية، وفيها كثير لم أنجح قط في فهمه، وكان يميل كثيراً إلى «كانط» الذي لا أحسن الرأي فيه، فلما أخذ في تفتيق فلسفته تأثر إلى حد كبير

بيرجسون؛ إذ أخذه مظهر الوحدة في الكون، واعتقد أن هذه الوحدة وحدها هي المبرر للاستنتاج العلمي. أما أنا فقد كان مزاجي يقودني إلى الاتجاه المضاد، وإن كنت أشك في قدرة العقل المحض على أن يفصل في الخلاف وأن يحكم أينما على الصواب. ولقد يحلو للأخذين بنظرته أن يقولوا إنه يستجلب الراحة للبسطاء، بينما أستنزل أنا القلق على الفلاسفة، وربما يحلو لمن يأخذ بوجهة نظري أن يرد على ذلك بأنه، حيث يدخل هو السرور على الفلاسفة، أسلي أنا البسطاء، على كل حال مضى كل منا في طريقه واستطردت المودة بيننا إلى النهاية.

ولقد كان هوايتهد على شغف واسع بمسائل كثيرة إلى حد غريب، وكان علمه بالتاريخ يذهلني، وفي ذات مرة اكتشفت بالمصادفة أنه يتخذ كتاب باولو ساربي^(١) «تاريخ مجلس ترنت» - ذلك السفر الجاد البعيد عن طريقه - خدين للفراش، وكان على الدوام يستطيع أن يورد في أي موضوع متعلق بالتاريخ بيئة جلية، كارتباط آراء بيرك السياسية بمصالحه في دوائر المال والأعمال، أو كعلاقة مروق الهوسيين^(٢) بمناجم الفضة في بوهيميا، وهذا شيء لم يذكره أحد لي بعد ذلك حتى وصل إليّ منذ سنوات قليلة مخطوط علمي في هذا الموضوع، ولست أدري من أين حصل هوايتهد على معلوماته هذه، ولكنني سمعت مؤخرًا من المستر جون كينير بيل أن ربما استقاها من كتاب الكونت لوتزوف^(٣) «بوهيميا: صورة تخطيطية لتاريخها». وقد كان لهوايتهد سخرية ممتعة ولطف عظيم، فلما كنت طالبًا، أطلق عليه لقب

(١) باولو ساربي (١٥٥٢ - ١٦٢٣): مؤرخ ولاهوتي إيطالي عارض البابا واعتبر مجلس مدينة ترنت انتصارًا لطغيان البابوية.

(٢) أنصار جون هوس المصلح الديني في بوهيميا (١٣٧٣ - ١٤١٥) الذين قاموا بالحرب ضد سيجيز منذ ملك بوهيميا سنة ١٤١٩ وانتصروا محققين بذلك آراءهم الإصلاحية في الكنيسة والسياسة التي وصفوا من أجلها بالمروق والإلحاد.

(٣) فرانز هينريك لوتزوف (١٨٤٩ - ١٩١٦): مؤرخ بوهيمي من أم إنجليزية كان يكتب بالإنجليزية وعاش أطول مدته في إنجلترا.

«الطفل الملائكي» وهو لقب ربما لم يكن فيه تبجيل كبير له في سنه المتقدمة، ولكنه كان يناسبه تمامًا في ذلك الحين، وأسرته من «كنت»، ظلوا في خدمة الكنيسة منذ نزول القديس أوغسطين^(١) في تلك المقاطعة تقريبًا، ويذكر لوسيان برايس، في كتاب له يسجل محادثاته في أمريكا^(٢)، أن هوايتهد وصف انتشار التهريب في جزيرة ثانيت في مطلع القرن التاسع عشر حينما كان البراندي والنبذ يخبآن في أقبية الكنائس بالاتفاق مع القساوسة، قال: «وفي أكثر من مرة كانت تأتي الأخبار، بأن الضباط قادمون على الطريق في أثناء الصلاة، فيؤجل المصلون الصلاة حتى يخبئوا الخمر بمساعدة القس، وهذا شاهد على وثوق الصلة بين الكنيسة والأمة في حياتها اليومية»^(٣).

ولقد سيطرت جزيرة ثانيت على هوايتهد الذي عرفته؛ إذ هاجر إليها جده من جزيرة شيببي ويقال - كما سمعت من هوايتهد - إن أصدقاءه يروون عنه أنه أَلَفَ نشيدًا كنسيًا يحتوي على هذه المقطوعة الجليلة:

رب الحمل ورب الأسود

رب أورشليم وجبل صهيون

رب المذنب والكواكب

رب شيببي وجزيرة ثانيت

ولشد ما يسرني أن لقائي الأول معه كان في جزيرة ثانيت؛ لأنها أوثق قربًا بكيانه من كمبريدج، وأعتقد أن كتاب لوسيان برايس كان يجدر أن يُسمَّى «هوايتهد في

(١) القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠): من أكبر اللاهوتيين في الكنيسة اللاتينية.

(٢) ترجم هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ الكبير محمود محمود ونشرته مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر تحت عنوان «محاورات ألفريد نورث هوايتهد».

(٣) المحاورات ٢٧.

الغربة»، حيث تدل كلمة «الغربة» لا على كل شيء خارج إنجلترا، بل على كل شيء خارج جزيرة ثايت.

وكان يقص عليّ في كثير من التسلي أن جدي، الذي كان يضيق بانتشار الكاثوليكية الرومانية، كان يلح على أخت هوايتهد ألا تهجر الكنيسة الأسقفية (كنيسة إنجلترا)، ومصدر التسلية في هذا أن احتمال هجرها كنيسة إنجلترا بعيد بعيد. ولم تكن آراء هوايتهد اللاهوتية خالصة، إلا أن شيئاً من جو الأبرشية قد بقي عالماً بمشاعره وظهر أخيراً في كتاباته الفلسفية المتأخرة.

وكان شديد التواضع، وأبعد ما وصل به التباهي قوله أنه حاول فعلاً أن يتحلى ويزدهي بنقائصه، ولم يكن يعبأ بتأتا بأن ينتقص نفسه في حكاياته. كانت في كمبريدج أختان عجوزان توحى آدابهما أنهما قدمتا توأ من «كرانفورد»، وكانتا في الواقع تقدميتين، بل وجسوريتين في آرائهما، وكانتا في طبيعة كل حركة إصلاحية، ولكن هوايتهد يحكي بشيء من الندم كيف أنه في أول لقاء له معهما قد ضلله مظهرهما فظن أن يتسلى باستفزازهما قليلاً، فلما اقترح عليهما رأياً على شيء من الراديكالية (التحريرية الجذرية) قالتا له:

«هيه، يا مستر هوايتهد، لكم يسرنا أن نسمعك أنت تقول هذا». فأظهرتاه بهذا الرأي عنه كأنه قطب من أقطاب الرجعية.

وقدرته على التركيز في العمل غريبة حقاً، ففي يوم صائف -وكنت أنزل ضيفاً عليه في جرانشستر- حضر صديقنا كرومبتون دافيز، فاصطحبته إلى الحديقة ليلقي بالتحية إلى مضيفه، وكان يكتب شيئاً في الرياضة، فوقفنا أمامه على بعد لا يزيد على الياردة، وأخذنا نرقبه يطوي بالصفحة تلو الصفحة مغطاة بالرموز دون أن يشعر بوجودنا، فلما انقضت فترة، ذهبنا لطيتنا يخامرنا شعور بالهية نحو هذا الرجل.

والذين يعرفون هوايتهم معرفة جيدة، يعرفون عنه الكثير مما لا يبدو لذي الصلة العابرة، فلقد يبدو، من وجهة اجتماعية، رحيماً رشيداً لا يُستثار، ولكنه لم يكن في الحقيقة مالكا جاشه لا يُستثار، ولا كان بكل تأكيد ذلك الوحش اللا إنساني الذي يقال له: «الإنسان الرشيد»، فقد كان توفره على حب زوجه وأولاده عميقاً حاراً، وكان على الدوام يعي أهمية الدين وعياً عميقاً، وقد أوشك وهو صغير أن يترد إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تحت تأثير الكاردينال نيومان^(١)، وقد هيأت له فلسفته المتأخرة شيئاً من حاجته إلى الدين. وكان كسائر من يحيون حياة مروضة غاية الترويض عرضة للنجوى المقبضة، فكان إذا ظن أنه وحيد يعيب نفسه بما يفترض فيها من عجز وقصور. ولقد تلبدت سني زواجه الأولى بالمتاعب المالية. ولكنه وإن يكن قد وجد صعوبة في تحمل هذه الحال، إلا أنه لم يحد قط عن عمل مهم لأنه غير مريح.

وكانت له قدرات عملية لم تجد منفذاً كبيراً لها في الوقت الذي عرفته فيه خير معرفة. فقد كان على نوع من الحصافة مدهش مكنه من الانتصار لرأيه في اللجان بأسلوب أذهل أولئك الذين رأوه تجريدياً محضاً لا واقعية فيه، ولربما كان يمكنه أن يكون مديراً قديراً لولا نقيصة واحدة فيه هي عدم القدرة المطلق على إجابة الخطابات. كتبت له مرة في شأن رياضي أطلب عليه ردّاً عاجلاً جداً أحتاج إليه في مقال ضد بوانكاريه فلم يرد، فكتبت ثانية فلم يرد فأبرقت، فلما ظل على سكوته أرسلت برقية خالصة الرد، وأخيراً اضطررت للسفر بنفسي إلى برود ستيرز للحصول على الجواب. وقد أخذ أصدقاؤه يتعودون هذه الخليفة فيه، فإذا وقعت مناسبة تلقى فيها أحدهم خطاباً منه، كانوا يجتمعون جميعاً لتهنئة المخاطب، وكان يبرر هذا

(١) جون هنري نيومان (١٨٠١ - ١٨٩٠): كاردينال تحول من الكنيسة الأبرشية إلى الكاثوليكية وله أستاذية في الأسلوب والبلاغة، وله أورا دنيّة من ألمعها ورده الذي مطلعته: «رشدك الهادي أياً نوراً رحيماً». كان زميلاً في كمبريدج ثم عين كاردينالاً.

بقوله إنه لو أجاب كل خطاب فلن يبقى لديه وقت للعمل الأصيل، وأظن أن هذا تبرير كامل لا يرد عليه.

وكان هوايته مدرّسًا كاملاً بشكل غير مألوف، فكان يهتم اهتمامًا شخصيًا بمن يتعامل معهم، ويعرف نقاط قوتهم وضعفهم على السواء، فيستخلص من الطالب خير ما يعطيه. ولم يكن قط قماراً ولا مشهوراً ولا متعاليّاً، ولا يتصف بأي صفة مما يحب أن يتصف بها الأذنون من المدرسين. وأظن أنه قد طبع على نفوس جميع الأكفاء الصغار الذين اتصل بهم، كما طبع على نفسي شعوراً بالمودّة الصادقة الدائمة.



سدني وبياتريس وب

سدني وبياتريس وب، اللذان توثقت المعرفة بينهما وبينى عدة سنين، حتى لقد شاطرتهما السكن زمنًا؛ هما أكمل زوجين تزوجا فيمن عرفت من الناس، ولكنهما على أي حال كانا يزويان أعينهما عن كل نظرة رومانتيكية إلى الحب والزواج، فالزواج عندهما نظام اجتماعي يسبك الغريزة في إطار شرعي، وكانت المسز وب في خلال السنوات العشر الأولى للزواج لا تفتأ تقول بين الفينة والفينة:

«إن الزواج، حسب قول سدني دائماً عنه، هو سلة نفايات العواطف» ولكن طرأ شيء قليل من التغير على هذه النظرة في السنوات الأخيرة، فكانا على الدوام يدعوان زوجين من أصدقائهما لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، ثم يخرجون جميعاً في أصائل الأحد لنزهة طويلة يصطحب فيها سدني الضيفة وتصطحب بياتريس الضيف، وعند نقطة معينة يلقي سدني بملاحظة يقول فيها:

«أنا أعلم بالتحديد ما تقوله بياتريس في هذه اللحظة، إنها تقول إن الزواج حسب قول سدني دائماً عنه، هو سلة نفايات العواطف»، ولا سبيل إلى التيقن من أن سدني قد قال هذا الرأي فعلاً أو لم يقله.

عرفت سدني قبل زواجه، ولكنه كان حينئذ أقل بكثير من نصف ما أصبح هو وزوجته بعد الزواج، فقد كان تعاونهما متلابسًا تمام التلابس، وكنت أظن دائمًا، وإن كان هذا في رأيي تبسيطًا مخلًا، إنها صاحبة الأفكار وأنه صاحب التنفيذ، ولعله أشد الناس الذين عرفتهم جلدًا على العمل، فكانا حين كتابتهما كتابًا عن الحكومة المحلية يرسلان رسائل دورية إلى جميع موظفي الحكومة المحلية في طول البلاد وعرضها سائلين عن أشياء، مبينين أن الموظف المعني يمكنه أن يشتري الكتاب عند صدوره بطريقة قانونية من حساب الأرباح، فلما أجرت لهما منزلي حار ساعي البريد في أمره وكان اشتراكًا راسخ الاعتقاد، أكان يشرفه أن يخدمهما أم يضايقه تسليمها آلاف الخطابات التي ترد إليهما يوميًا ردًا على نشراتهما الدورية. وكان سدني أصلًا كاتبًا في القسم الثاني من الخدمة المدنية ولكنه نجح باجتهاده الضخم أن يرتفع إلى القسم الأول. كان متزمتًا إلى حد ما، لا يحب التفكه في الموضوعات المقدسة كالنظرية السياسية. قلت له مرة إن للديموقراطية ميزة واحدة على الأقل هي أن عضو البرلمان لا يمكن أن يكون أغبى من ناخبيه؛ لأنه كلما ازداد غباء فاقوه في الغباء بانتخابه، فتضايق وب بشكل خطير وقال بلهجة قاسية: «هذا هو نوع الكلام الذي لا أحبه».

وكانت دائرة اهتمام المسز وب أوسع بكثير من دائرة اهتمام زوجها؛ إذ كانت تهتم اهتمامًا كبيرًا بأفراد البشر، ولا يحدث ذلك منها فقط حينما يكونون مفيدين، وكانت عميقة التدين دون أن تنتمي إلى أي مذهب بعينه، وإن كانت بحكم كونها اشتراكية تفضل «كنيسة إنجلترا» لأنها مؤسسة قومية، وهي إحدى تسع أخوات لأب عاصمي يقال له بوتر، كَوْن ثروته من بناء الأكواخ لرجال الجيش في القرم، وكان يتلمذ على هربرت سبنسر^(١) فجاءت مسز وب أوضح نتائج لنظريات هذا الفيلسوف في التعليم،

(١) هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣): من أكبر الفلاسفة التطوريين الإنجليز، وكعبة الأحرار في كل العالم في عصره، وصاحب فلسفة التطور (في مقابل علم التطور)؛ إذ بسط هذه الفلسفة في الوجود والأخلاق والتعليم، وقد التقى به الشيخ محمد عبده وناقشه في الدين وأساسه، وعبر كل منهما عن إعجابه بصاحبه.

ويؤسفني أن أقول إن والدتي -وكانت جارتها في الريف- كانت تصنفها بأنها «فراشة اجتماعية»، ولكن ربما كانت تعدل عن حكمها هذا لو أنها رأتها في شطر حياتها الأخير، فلما أخذت تهتم بالاشتراكية قررت أن تصنف الفابيين، ولا سيما ألمع ثلاثة منهم وهم وب وشو وجراهام والاس^(١). فكانت في حكمها على شيء من الشبه بحكم باريس^(٢) مع تغيير الجنس، وكان سدني هو الذي ذهب بدور أفروديت.

وكان وب يعتمد كل الاعتماد على كسب يده بينما ورثت بياتريس عن أبيها ما يكفيها. وكانت عقليتها من نمط عقلية الطبقة الحاكمة، على خلاف عقلية سدني. فلما تبينا أنهما يستطيعان العيش من دون حاجة إلى التكسب، قررا أن يتفرغا للبحث وشؤون الدعاية العليا، فكانا في كلا الشاغلين مفلحين إلى درجة مدهشة، وإن كتبهما لتشهد على جدوى جهدهما، كما أن مدرسة الاقتصاد شاهد على مهارة سدني، ولست أظن أن مقدرة سدني كانت تثمر ما أثمرت ولا قريباً مما أثمرت لولا أن أيدتها ثقة بياتريس بنفسها. سألتها مرة: هل شعرت بالاستحياء والتردد مرة في شبابها؟ فقالت:

«كلا.. كنت إذا وجدت نفسي على وشك الشعور بالخجل والخوف عند دخول حجرة مليئة بالناس، أقول لنفسي: إنك أمهر أبناء أمهر أسرة من أمهر طبقة في أمهر أمة في العالم، فقيم الخوف إذن؟».

وكنت أود المسز وب وأعجب بها، وإن كنت أخالفها في كثير من المسائل المهمة. كان يعجبني منها أولاً وقبل كل شيء مقدرتها التي كانت غاية في العظمة، ثم كنت أعجب لكمالها. عاشت للأغراض العامة ولم تزغ عنها قط وراء المطاعم

(١) جراهام والاس (١٨٥٨ - ١٩٣٢): أحد المفكرين السياسيين والاجتماعيين.

(٢) باريس هو ابن بريام ملك طروادة الذي طلب منه زيوس كبير الآلهة أن يفاضل بين هيرا وأثينا وأفروديت، ففضل أفروديت فكانت سبباً في حرب طروادة.

الشخصية وإن لم تكن تخلو من هذه المطامع خلواً تاماً. وكنت أودها لأنها صديق حار عطوف لمن تحمل لهم في نفسها عاطفة شخصية، ولكنني كنت أخالفها في أمر الدين وأمر الاستعمار وأمر عبادة الدولة، وهي من الأسس الجوهرية للحركة الفابية، وهي التي دفعتها هي وزوجها ودفعت شو أيضاً إلى ما اعتبرته التسامح الفياض غير المستحق إزاء موسوليني وهتلر، وإلى التقديس السخيف للحكومة السوفيتية آخر الأمر.

إلا أن المرء ليس كاملاً تمام الكمال، ولا حتى آل وب، فقد لمحت مرة لشو أن وب يبدو لي على شيء من ضحالة العاطفة، فأجابني بقوله: «كلا، بل أنت مخطئ تماماً، لقد كنا مرة في مركبة ترام في هولندا وكنا نأكل «بسكويّتاً» من حقيبة، إذ دخل علينا المركبة مجرم مكبل يحيط به الشرطة، وإذا جمع الركاب يفزعون منه إلا وب الذي قام إليه يقدم له شيئاً من البسكويّت»، فصرت أذكر هذه الأحدثاة كلما أسرفت في انتقاد وب أو شو.

ومن الناس من كان يكرههم وب وزوجه، فكانا يكرهان ويلز لأنه جرح المسز وب في مثلها الأخلاقية الفيكتورية ولأنه كذلك حاول أن يخلع وب عن عرش الجماعة الفابية. وكانا أيضاً يكرهان رمزي مكدونالد^(١) منذ وقت بعيد، فكان أخف ما سمعته من أيهما طعنًا فيه عند تأليفه أول وزارة عمالية هو قول المسز وب إنه يصلح بديلاً طيباً جداً للرئيس.

وكان تاريخهما السياسي على شيء من الغرابة، فقد عملا أول الأمر مع المحافظين؛ لأن المسز وب سرها أن آرثر بالفور كان على استعداد لأن يمنح المزيد من الأموال العامة للمدارس الكنسية، فلما سقط المحافظون سنة ١٩٠٦، حاول

(١) جيمس رمزي ماكدونالد (١٨٦٦ - ١٩٢٧): أول رئيس وزراء عمالي يرأس الوزارة البريطانية.

وب وزوجه بعض المحاولة أن يتعاونوا مع الأحرار، ولكن عنّ لهما في النهاية أنهما قد يزدادان راحة في حزب العمال لأنهما اشتراكيان، وقد صارا في سنيهما الأخيرة من أعضائه الموالين.

وقد ظلت المسز وب مدمنة على الصيام عدة سنوات لأسباب بعضها صحي وبعضها ديني، فكانت لا تفطر، وتتعشى عشاء هزيلًا جدًّا، وكانت وجبتها الوحيدة الكاملة هي الغداء، وكانت دائمًا تستضيف على غداؤها عددًا من البارزين، ولكنها كانت تشعر بالجوع الشديد، حتى ما يكاد يعلن عن إعداد المائدة حتى تتقدم ضيوفها وتبدأ في الأكل، ولكنها تعتقد على كل حال أن الجوع يزيد من روحانيتها. ذكرت لي مرة أنه يكشف لها عن رؤيا أخاذه فأجبتها قائلاً: «نعم، فإنك إن أكلت قليلاً رأيت الرؤى، وإن شربت كثيرًا رأيت الأفاعي». وأخشى أن تكون قد ظنت بملاحظتي هذه أنها «تطاول» لا يغتفر. ولم يكن وب يشاظرها الجانب الديني من طبيعتها، ولكنه لم يكن على أي درجة من العداء له، على الرغم من أنها كانت تسبب له المضايقة أحيانًا، فلما كنا نزلاء فندق في نورمانديا، كانت تظل في حجرتها بدعوى أنها لا تحتمل منظرنا المؤلم ونحن نفطر، وكان سدي ينزل لتناول الفطائر والقهوة. وقد بعثت مع الخادمة برسالة في أول صباح لنا تقول فيها: «نحن لا نطلب زبدًا لإفطار سدي». فكان استعمالها لكلمة «نحن» متعة الأصدقاء.

وكان كلاهما -في جوهرهما- غير ديموقراطيين ويريان أن وظيفة السياسي هي خداع الجمهور وإرهابه. وقد تبينت مصادر أفكار المسز وب عن الحكومة حينما أعادت على مسمعي وصف أبيها لمؤتمرات المساهمين في الشركات، حيث وظيفة المديرين المعترف بها أن يلزموا المساهمين حدودهم، وكان هذا هو رأيها في ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الحكومة والناخبين.

ولم تكن حكايات أبيها عن تاريخ حياته لتغرس في نفسها أي احترام زائد

للعظماء، فبعد أن بنى الأكواخ للمعسكرات الشتوية للجيش الفرنسي في القرم، ذهب إلى باريس ليتقاضى حقوقه، وكان قد أنفق كل ماله في بناء الأكواخ وأصبح الدفع مهمًا حيويًا عنده، ولكن على الرغم من اعتراف الجميع بالدين لم يأتِ الصك، وأخيرًا التقى باللورد براسي الذي كان قد قدم باريس لغرض مماثل، فلما شرح له المستر بوتر مشكلته، ضحك اللورد براسي منه، وقال: «يا صديقي العزيز، إنك لا تعرف الحبال الموصلة. أعط الوزير خمسين جنيهًا وأعط كل مرؤوس من مرؤوسيه خمسة». ففعل، فتسلم الصك في اليوم التالي.

ولم يكن سدني يتردد في استعمال بعض المراوغات التي يراها غيره بعيدة عن الاستقامة، فمثلاً أخبرني أنه إذا أراد أن يحصل على موافقة لجنة ما على أمر معين تقف أغلبية اللجنة ضده، كان يقدم مشروعًا بقرار إلى اللجنة ينص على هذا الأمر المختلف عليه مرتين، ويجادل كثيرًا عنه في المرة الأولى ثم يتنازل عنه بكياسة، وفي تسع مرات من عشر -حسب قوله- لم يكن يلحظ أحد أن الأمر نفسه قد تكرر بعد ذلك في القرار نفسه.

وقد عمل وب وزوجته الكثير ليقموا للاشتراكية الإنجليزية «عمودها الفقري العقلي» فكان ما فعلاه يشبه، على شيء من التفاوت، ما فعله البتناميون في وقت مضى للراديكاليين، وكان آل وب والبتناميون يشتركون في قسط من الجفاف والبرود والاعتقاد بأن سلة النفائات هي المكان المناسب للعواطف. ولكن كلا الفريقين كانا يعظان المتحمسين، فاستطاع بتنام^(١) وروبرت أوين^(٢) أن يعقبا خلفًا عقليًا متوازنًا، وكذلك فعل آل وب وكير هارودي^(٣)، ولا يصح أن يطلب من أي امرئ كل شيء له قيمة للحياة البشرية، وكل ما يصح أن يطلب منه أن يكون على بعضها بقسط كبير،

(١) جيريمي بتنام (١٧٤٨ - ١٨٣٢): مؤسس المذهب النفعي.

(٢) روبرت أوين (١٧٧١ - ١٨٥٨): مؤسس الاشتراكية التعاونية في إسكتلندا.

(٣) كير هارودي (١٨٥٦ - ١٩١٥): زعيم إسكتلندي للعمال.

وإن آل وب ليجتازان هذا الامتحان. ولا شك في أن حزب العمال البريطاني كان يزداد جلافة وشعثاً إلى حد كبير لو لم يوجد أبداً، فقد تدثر السير ستافورد كريس^(١)، ابن أخي المسز وب، بدثارهما، ولا أظن أن الديموقراطية البريطانية لولاها كانت تتحمل بمثل ما تحملت من الصبر سنوات الشدة التي كنا نجتازها.



(١) السير ستافورد كريس (١٨٨٩ - ١٩٥٢): سفير إنجلترا في روسيا في أثناء الحرب العالمية وأحد الوزراء الكبار في حزب العمال.

د. هـ. لورانس

كانت معرفتي بلورانس موجزة محمومة، لم تدم أكثر من عام واحد، فقد جمعنا اللادي أوتولين موريل التي كانت معجبة بنا كلينا وتظن أنه ينبغي أن يعجب أحدنا بالآخر. وكانت «المسالمة» قد أحدثت في نفسي حالة من الثورة المرة، ووجدت لورانس مفعماً بالثورة، فجعلتنا هذه الحال نعتقد أول الأمر أن بيننا قدرًا كبيرًا من الاتفاق تبينا بالتدريج خطأه، وأنا في الواقع مختلفان أحدا عن الآخر أكبر من اختلاف أي منا عن القيصر.

كان لورانس في ذلك الوقت يقف من الحرب موقفين: فمن ناحية لم يكن في طوقه أن ينصرف بقلبه إلى «الوطنية» لأن زوجته الألمانية، ولكنه كان من ناحية أخرى يكره الإنسانية كرهاً جعله يحق كلاً من الجانبين بمقدار ما يكره هذا الجانب خصمه الآخر. فلما علمت بهذين الموقفين، رأيت أنهما لا يوافقاني، ولكن هذا الشعور بالاختلاف قد جاء بالتدريج عند كل منا، فكانت لذلك علاقتنا في مبدئها مرحلة كأجراس الزواج. دعوته لزيارتي في كمبريدج حيث قدمته إلي كينز وعدد آخر من الأشخاص فكان يكرههم كراهة حارة ويقول: «إنهم أموات، أموات، أموات» وظننت فترة من الزمن أنه ربما كان على حق، فقد أحببت تأججه وجموح عواطفه ومشاعره واعتقاده أن الحاجة ماسة إلى شيء أساسي جداً لإصلاح العالم، ووافقت

على أن السياسة لا يمكن أن تنفصل عن السيكولوجيا الفردية، وأحسست أنه رجل على نوع من العبقرية الخصبة، وعندما بدأت أجنح إلى الخلاف معه، ظننت أن ربما كانت بصيرته في الطبيعة الإنسانية أعمق وأنفذ من بصيرتي، ولكنني أخذت أشعر شيئاً فشيئاً إنه قوة فعالة في الشر، وأخذ هو يشعر نحوي بمثل هذا الشعور.

وكنت في ذلك الوقت أعد سلسلة من المحاضرات نشرت فيما بعد بعنوان، «مبادئ إعادة بناء المجتمع»، وكان هو أيضاً يود أن يحاضر، وبدا حيناً من الدهر أن من الممكن لنا أن نتعاون بنوع من التعاون غير الوثيق، فتبادلنا عددًا من الخطابات، فأما خطاباتي فقد فقدت، وأما خطاباته فقد نشرت، وفي خطاباته هذه يمكن أن يُقتفى أثر التطور التدريجي لشعورنا بما بيننا من خلاف في الجوهر والأساس، فأنا من ناحية وثيق الإيمان بالديموقراطية، بينما هو قد بسط الفلسفة الفاشية كلها قبل أن يفكر فيها السياسيون. كتب مرة يقول:

«لست مؤمناً بالحكم الديموقراطي، فقد يستطيع العامل أن ينتخب الحكام أو الملاحظين حسب ظروفه الراهنة ولا زيادة، وعليك أن تراجع الناخبين مراجعة كاملة، لأن العامل له أن ينتخب رؤساء لما يعنيه مباشرة من الأمور وحسب، ثم تنتخب الحكام الأعلى طبقات أخرى أعلى منهم، وهكذا حتى يصل الأمر في ذروته إلى الرأس الحقيقي كما هو شأن كل بنية عضوية. ليست جمهوريات حمقاء يرأسها رؤساء حمقى، ولكن ملك منتخب، شيء ما من قبيل يوليوس قيصر».

وكان في خياله بالتأكيد يفترض أن لو استقرت الدكتاتورية فسيكون هو يوليوس قيصر ما، وهو جانب من سمات تفكيره الحالم، فما كان قط يدع نفسه ترتطم بقاع الحقيقة، بل كان يهذي مدداً طويلة عن كيفية ادعاء «الحق» لدى الجماهير، ولم يكن يبدو عليه أدنى شك أن الجماهير ستستمع له.

سألته عن المنهج الذي سيأخذ به، هل سيضع فلسفته السياسية في كتاب؟ فقال كلا.. ففي مجتمعنا الفاسد ليست الكلمة المكتوبة إلا كذبًا.

فهل سيذهب إلى هايد بارك ليعلن «الحقيقة» من أحد منا برها؟ ولا هذا، فإنه أخطر مما ينبغي بكثير (كانت تنجم منه بعض لفتات شاذة من الحكمة بين حين وآخر). إذن فماذا هو فاعل؟ فكان عند هذا الطور بغير موضوع الحديث.

واكتشفت قليلًا قليلًا أنه لم تكن عنده الرغبة الصادقة في تحسين العالم، بل يكفي أن يغرق في مناجاة بليغة عن دى سوئه، فإذا تسمع أحد نجواه فنعمًا هي، ولكنها مقصودة أصلاً لجمع نفر من التابعين المخلصين يروق لهم أن يقعدوا في صحراوات المكسيك الجديدة ويشعروا بالقداسة: وقد اطلعت على كل هذا في لغة دكتاتور فاشي على أنه هو ما يجب عليّ أن أبشر به، وتحت «يجب» ثلاثة عشر خطأ. وأخذت خطاباته تزداد عدا. كتب مرة يقول:

«ما نفع حياة كحياتك؟ لست أعتقد أن محاضراتك حسنة، ألعلمها قد انتهت؟ ما فائدة التشبث بالسفينة الملعونة والطين الدائم في آذان التجار المسافرين بلسانهم؟ ولماذا لا تلقي بنفسك من ظهرها؟ لماذا لا تبعد عن مكان العرض كله؟ ليحسن بالمرء في هذه الأيام أن يكون مدرسًا أو واعظًا».

وكان هذا يبدو لي خطابة على الورق لا أكثر، فقد كنت أكثر خروجًا على القانون مما كان في أي وقت من حياته، ولا أرى أساسًا لشكواه مني، ولكنه كان يصوغ شكواه صياغات تختلف باختلاف الزمن. ففي مناسبة أخرى كتب يقول:-

«إنني لأحب أن أسألك أن تترك لي في وصيتك ما يكفي أن أعيش عليه. أريدك أن تعيش مخلصًا ولكنني أريدك أن تجعلني وريثك في شيء ما». وكانت الصعوبة الوحيدة في هذا الأمر هو أنني لو أخذت به لما بقي عندي شيء أتركه لو ارث.

وكانت له فلسفة صوفية عن «الدم» نفرت منها فقد قال:

«ثمة مكان آخر للوعي غير المخ، وغير الأعصاب. هناك الوعي الدموي الذي يوجد فينا مستقلاً عن الوعي العقلي العادي. إن المرء يعيش ويعرف ويستشعر وجوده في الدم دون الرجوع إلى الأعصاب والمخ، وهذا نصف الحياة قابع في الظلام. إنني حينما أصطحب امرأة يكون الإدراك الدموي على أعلى ما يكون، وتكون معرفتي الدموية طاغية، وعلينا أن نتبين أن لنا وجوداً دموياً ووعياً دموياً وروحاً دموية كاملة مستقلة عن الوعي العقلي والعصبي». وقد بدت لي هذه الفلسفة بصراحة من السقوط ورفضتها بقوة وإن لم أكن أعلم عندئذ إنها تقود مباشرة إلى آوشفيتز^(١).

وكان دائماً يهتاج إذا زعم أن إنساناً يحمل في طياته عواطف رحيمة نحو إنسان آخر، وكان يتهمني عندما اعترضت على الحرب على أساس ما تسببه من الشقاء بأنني منافق ويقول:

«ليس هناك ذرة من الصدق في أنك، في أعماق نفسك، تريد السلام الدائم، إنما أنت ترضي بعملك هذا ولعك بالطعن والصراع بطريقة غير مباشرة ومزيفة، فإما أن ترضي هذا الولع صراحة وبطريقة شريفة فتعلن قائلاً: إنني أكرهكم أيها الكذابون الخنازير وإني فاتك بكم، أو أن تظل في رياضياتك حيث يتأتى لك الصدق، أما أن تطلع علينا بثياب ملك السلام، فكلا يا صاحبي، إنني أفضل تيربتز^(٢) في هذا الدور ألف مرة».

ومن الصعب عليّ الآن أن أسبر ما كان لهذا الخطاب من أثر ناسف محطم عليّ، فقد كنت أميل إلى الاعتقاد عندئذ أن لهذا الرجل بصيرة نافذة ليست لي، وأنه لا بد

(١) معسكر الاعتقال النازي حيث يقال إن آوشفيتز قتل حوالي أربعة ملايين بين يهودي وغير يهودي من أعداء النازية، وسمي المعسكر باسمه.

(٢) ألفريد بيتر فردريك فون تيربتز (١٨٤٩ - ١٩٣٠): أميرال ألماني كان وزيراً للحربية في النصف الأول من الحرب العالمية الأولى.

على صواب في قوله إن «مسالمتي تكمن في الولع بالدم»، وظللت أربعًا وعشرين ساعة بعد تسلم هذا الخطاب أظن أنني لست جديرًا بالحياة وأني ينبغي أن أنتحر، ولكن ما إن انتهت تلك الفترة حتى استقر في روعي شيء أصح، وقررت أن أكتفي بما تجرعت من هذا المرض والشذوذ. فلما أوجب عليّ أن أنشر له آراءه بدلًا من آرائي، ثرت عليه وأخبرته أن عليه أن يتذكر أنه لم يعد ناظر مدرسة، وأني لم أعد تلميذه فيها، وكان قد كتب إليّ من قبل يقول: «أنت عدو البشر أجمعين، مفعم بشهوة العدا، إنك لا تستوحي كراهة الزيف، بل كراهة الناس من دم ولحم، إنها ولع عقلي بالدم معوج. ليس غريبًا أن يكمن هذا الشعور فيك. لنكن غرباء كما كنا من قبل، فإني أعتقد أن هذا أحسن»، وكنت من جانبي أعتقد ذلك أيضًا، ولكنه كان يجد متعة في التنديد بي، وظل شهورًا يكتب لي خطابات فيها من المودة ما يكفي لاستمرار تبادلها، ثم أخذت تخفت وتغيب حتى انقطعت بغير نهاية حاسمة.

كان ما جذبني أولاً إلى لورانس صفة دافعة معينة، وعادة تحدي الافتراضات الجاهزة التي يميل المرء إلى أخذها تسليمًا، وكنت قد تعودت أن أسمع الاتهام بالعبودية الضارية للعقل، فظننت أن ربما أعطاني جرعة محيية من اللا معقول، وقد حصلت منه في الواقع على حافز ما، وأعتقد أن الكتاب الذي وضعته، على الرغم من سعي تشنيعه، كان يمكن أن يكون على صورة أفضل لو لم أكن قد عرفته.

ولكن ليس معنى هذا أن في أفكاره شيئًا من الحسن؛ ولا أراها الآن بالنظرة الراجعة ذات فضل، فقد كانت آراء طاغية لم يقدر له وجود، غضب على العالم لأنه لم يستجب له طواعية، فلما تبين أن في الكون أناسًا غيره كرههم، ولكنه قضى معظم حياته وحيدًا في عالم من نسج خياله تسكنه أشباح على ما يهوى هو من الوحشية. وكان تأكيد الزائد عن الحد على الجنس راجعًا إلى أن الجنس وحده هو الذي كان يقسره على الاعتراف بأنه ليس الإنسان الوحيد في هذا الكون، لكن هذا الاعتراف

وما فيه من غصة، هو الذي جعله يتصور العلاقات الجنسية صراعًا دائمًا يحاول فيه كل من الجنسين أن يقضي على صاحبه.

كان عالم ما بين الحربين مأخوذًا بالجنون، وكانت النازية أشد تعبير عن هذه الفتنة، وكان لورانس أنسب عارض لهذه الثقافة المجنونة. ولست على يقين من أن ما يتميز به ستالين^(١) من تعقل بارد لا آدمي يمكن أن يعد تحسينًا لهذا النوع من الجنون.



(١) هو يوسف فيسار يونوفتش طوجا شفيللي ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٠): طاغية الشيوعية، دكتاتور روسيا من بعد لينين إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

لورد جون رسل

ولد جدي، الذي ما زالت صورته حية في ذاكرتي، في الثامن عشر من أغسطس سنة ١٧٩٢، بعد خمسة عشر يومًا من مولد شيللي^(١) الشاعر الذي انتهت حياته في سنة ١٨٢٢. وفي اللحظة التي ولد فيها جدي، كانت الثورة الفرنسية قد استوت لتوها على الطريق، فكان سقوط الملكية في الشهر الذي ولد فيه نفسه، وكان عمره شهرًا واحدًا عندما أفزعت مذابح سبتمبر^(٢) أنصار الملكية في إنجلترا، وعندما وقعت موقعة فالمي التي افتتحت اثنين وعشرين عامًا من حروب الثورة ضد الرجعية.

وكان موقف جدي من هذه الحروب موقفًا يليق بأحد أتباع فوكس، وهو ذلك النوع من المواقف الذي نطلق عليه الآن اسم «رفقة الطريق»، وكان أول كتاب له (غير مطبوع) يحمل إهداء ساخرًا إلى بت^(٣) الذي كان رئيسًا للوزراء. وقد تجول في إسبانيا في أثناء حرب شبه الجزيرة، على غير نية الحرب ضد نابليون، ثم زار نابليون في إلبا، حيث شد الرجل العظيم أذنه كما هي العادة. فلما رجع نابليون من إلبا، وكان جدي عضوًا في البرلمان منذ عامين، ألقى خطابًا في المجلس يستحث فيه الحكومة ألا تقف في سبيله. إلا أن الحكومة التي كانت في يد المحافظين قررت غير هذا، وتمخضت عن تلك السياسة موقعة ووترلو.

(١) بيرسي بوشي شيللي (١٧٩٢ - ١٨٢٢): أجمل وأعذب الشعراء الرومانتيكيين الإنجليز.

(٢) المعروفة عندنا في تاريخ الثورة الفرنسية باسم «الإرهاب الأصغر».

(٣) وليم بت الأصغر (١٧٥٩ - ١٨٠٦): تولى رئاسة الوزراء وهو في الخامسة والعشرين.

غير أن أعظم أعمال جدي هو تنفيذ قانون الإصلاح^(١) في سنة ١٨٣٢، ذلك القانون الذي وضع بريطانيا على أول الطريق إلى الديمقراطية الكاملة، وقد كانت معارضة المحافظين لهذا القانون عنيفة للغاية وأوشكت أن تؤدي إلى حرب أهلية، وكان الصدام في ذلك الوقت هو المعركة الفاصلة بين الرجعيين والتقدميين في إنجلترا، فكان النصر السلمي في هذه الواقعة هو الذي أنقذ إنجلترا، وكان جدي صاحب الدور الأكبر في إحراز هذا النصر. وظل جدي بعد هذا في ميدان السياسة فترة طويلة، وتولى رئاسة الوزارة مرتين وإن لم تعرض له فرصة لقيادة الأمة في أزمة حاسمة، وفي أواخر أيامه أصبح معتدلاً في تحرره إلا في أمر واحد هو كراهته للقيود الدينية، ففي صغره كان من لا ينتمي لكنيسة إنجلترا يعاني تقييداً سياسياً خطيراً، وكان اليهود على الخصوص محرمًا عليهم دخول مجلسي البرلمان وكثير من المناصب؛ بحكم القسم الواجب الذي لا يستطيع أن يقسمه إلا المسيحيون. وما زلت أذكر بوضوح أنني رأيت جمعاً كبيراً من المتحمسين اجتمعوا على أرض الفناء أمام منزلنا في يوم ٩ مايو سنة ١٨٧٨ قبل موته بأيام، وكانوا يهتفون، وكان طبعياً أن أسأل بم يهتفون، فأخبرت أنهم كبار «المنشقين»^(٢) أتوا يهنئونه في الذكرى الخمسينية ليوم نصره العظيم يوم إلغاء قانوني الاختبار والمؤسسات اللذين يستبعدان «المنشقين» من المناصب والبرلمان، وبهذه الأحداث وبعلم التاريخ الذي يلقي عليهم الضوء، غرس حب الحرية المدنية والدينية في نفسي غرساً عميقاً، وظل يلزمني هذا الحب في أثناء العهود الاستبدادية المختلفة التي خدعت كثيراً من أصدقائي اليمينيين واليساريين على السواء.

(١) القانون الذي قضى على حقوق ملاك الأرض في مقاعد مجلس العموم وقرر تعميم حق الانتخاب على أساس صوت لكل فرد.

(٢) طائفة ممن ينتمون للكنيسة الأسقفية الإنجليزية، ويسمون «بغير المنسجمين» أو «غير أولي الوفاق» Non Conformists.

وإذ قد مات والدائي، فقد كفّلني جدي في منزله في الستين الأخيرتين من عمره، وكانت قواه الجسمية حتى في بداية هذه الكفالة مضعضة إلى حد كبير، وإنّي لأذكره يتمشى خارج المنزل على كرسي ذي عجل، كما أذكره جالساً يقرأ في حجرة الجلوس، ولا يصح طبعاً أن يعتمد على ذاكرتي كل الاعتماد، لكنني أذكر أنه كان دائماً يقرأ المضابط البرلمانية التي كانت مجلداتها تغطي جدران الردهة الكبرى، وكان في هذا الوقت -الذي أستعيده الآن- يفكر في عمل متعلق بالحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٦، ولكن حال دون ذلك سوء صحته.

وكان كثيراً ما يتهم بالبرود في الحياة العامة، ولكنه كان في غاية الدفء والعطف والرحمة في الحياة المنزلية، وكان يحب الأطفال، ولست أذكر قط أنه أمرني بالكف عن الضوضاء أو زجرني كما يزجر الكبار الصغار، وكان لغوياً مجداً ولا يجد صعوبة في الخطابة بالفرنسية والإسبانية والإيطالية، وكثيراً ما كان يقهقه وهو يقرأ «دون كيشوت» في الأصل الإسباني، وكان كسائر أحرار زمنه يحب إيطاليا حباً رومانتيكياً، وقد أهدت إليه الحكومة الإيطالية تمثالاً يمثل إيطاليا؛ اعترافاً بخدماته نحو تحقيق الوحدة الإيطالية. وقد ظل هذا التمثال قائماً في قاعة جلوسه، وكان يثير شغفي واهتمامي إلى حد كبير.

وينتمي جدي إلى نمط من الناس اندثر تماماً في الوقت الحاضر، نمط المصلح الأرستقراطي الذي يستمد حماسه للإصلاح من السلف -من ديمو ستيونيس^(١) وتاسيتوس^(٢) لا من أي مصدر بعدهما، نمط يعبد إلهة تسمى «الحرية» وإن كانت غامضة الملامح. ولهذه العبادة شيطانها أيضاً وهو «الاستبداد»، وهو محدد الملامح نوعاً ما أكثر من إلهتها؛ إذ يمثله الملوك والقساوسة والشرطة، لا سيما إذا كانوا

(١) خطيب أثيني (٣٨٤-٣٢٢ ق. م).

(٢) بوليوس كورنيليوس تاسيتوس (٥٥-١٢٠ م): مؤرخ روماني.

أجانب، وهي العبادة التي كانت تلهم الثوار الفرنسيين، وإن وجدت فيها مدام رولان^(١) وهي على المقصلة تبسيطاً مخلاً، وهي العبادة التي ألهمت بيرون^(٢) ودفعته إلى الحرب في صفوف اليونانيين. وهي العبادة التي ألهمت ماتسيني^(٣) وغاريبلدي^(٤) والمعجبين بهما من الإنجليز، كانت عبادة أدبية شاعرية رومانتيكية لا تعباً بحقائق الاقتصاد القاسية التي تسيطر على التفكير السياسي الحديث، وكان مربى جدي في صغره هو الدكتور كارترت^(٥) مخترع النول الذي يدار بقوة الماء والذي كان أحد العوامل الرئيسة في الانقلاب الصناعي، ولم يكن جدي يعلم بهذا الاختراع، ولكنه كان يعجب بمربيه للاتينية الأنيقة ولعلو مشاعره الأخلاقية، ولأنه أخ لأحد مشاهير المهيجين الراديكاليين.

وكان جدي من أنصار الديمقراطية مثلاً وفكرة، ولكنه لم يكن بأي حال متوفراً للإسراع في تطبيقها، بل كان يؤثر توسيع حقوق الانتخاب تدريجاً، وأعتقد أنه كان مقتنعاً أنه مهما يتسع حق الانتخاب فستظل الأحزاب الإصلاحية الإنجليزية تلتمس قوادها في أبناء أسر الهويج الكبيرة. ولست أقصد بهذا أنه كان اقتناعاً واعياً بل أقصد أنه كان جزءاً من الهواء الذي يتنفسه، وشيئاً يمكن أن يسلم به بغير مناقشة.

وبمبروك لودج، حيث كان يقطن جدي، منزل يتوسط ريتشموند بارك، ويبعد حوالي عشرة أميال عن مركز لندن، وهو هدية من الملكة أهدته إلى جدي ما عاش وما عاشت جدتي، وفيه انعقد مجلس الوزراء مراراً، وزاره كثير من المشاهير، وقد

(١) إحدى زعيمات الجيرونند اشتهرت بكلمتها التاريخية وهي على المقصلة إذ قالت: «أيتها الحرية! كم من الدماء تسفك باسمك النبيل».

(٢) البارون جوردون بيرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤): أشهر الشعراء الرومانتيكيين الإنجليز.

(٣) جيوسيبي ماتسيني (١٨٠٧ - ١٨٧٢): رسول الوحدة الإيطالية.

(٤) جيوسيبي غاريبلدي (١٨٠٧ - ١٨٨٢): القائد المتطوع المظفر الذي حقق الوحدة الإيطالية.

(٥) آدموند كارترت (١٧٤٣ - ١٨٢٣): مخترع النول المائي الذي بدأ به عصر الانقلاب الصناعي.

زاره فيمن زاره شاه العجم، فاعتذر له جدي عن صغره فأجاب الشاه في أدب جم:

«نعم إنه منزل صغير، ولكنه يضم رجلًا كبيرًا». وفي هذا البيت قابلت الملكة فيكتوريا وكنت في الثانية من عمري. وقد اهتمت جدًا بزيارة ثلاثة من الدبلوماسيين الصينيين في أزيائهم الرسمية الكاملة، وبزيارة مبعوثين من زنج ليريا. وكان في حجرة استقباله منضدة يابانية مرصعة ترصيعًا أخاذًا أهدتها إلى جدي الحكومة اليابانية، وكان على صوانات الأدوات بحجرة الطعام زهرتان ضخمتان من الخزف أهداهما إليه ملك سكسونيا، وكانت هناك فسحة ضيقة بين منضدة وبين صوان صيني حرم عليّ تحريمًا قاطعًا أن انحشر فيها، وكانت تُسمّى بالدردنيل، فقد كانت كل زاوية وكل ركن في البيت يتسمى باسم حادثة أو مؤسسة من حوادث ومؤسسات القرن التاسع عشر تبدو الآن ضاربة في التاريخ والقدم كحمام الدودو^(١).

إن كل شيء كان في طفولتي قد أصبح اليوم جزءًا من عالم اختفى تمامًا. فالمنزل الفيكتوري الفسيح لم يعد من هدايا الملك، بل تحول إلى مشرب شاي، والحديقة التي كانت تفيض بالخمائل والمنسربات التي يختبئ فيها الأطفال أصبحت الآن مفتوحة المصاريح للجمهور، ووجهاء الدبلوماسيين الذين يمثلون ملوك دول، تلاشت دولهم اليوم أو أصبحت جمهوريات، والأدباء الموقرون المتعاضمون الذين كانوا يرون في كل ثروة وجعجعة شيئًا عميقًا، وفوق كل هذا إيمانهم بالاستقرار ذلك الإيمان المطلق الذي جعلهم يعتقدون أن عدم التغيير في جميع أنحاء العالم بديهية لا مرأى فيها إلا ما كان من قبيل التطور التدريجي المنتظر نحو دستور يشبه دستور إنجلترا تمام الشبه. هل مر على الإنسانية في عمرها عهد بورك له بالعمى عن المستقبل كهذا العهد؟ لقد تنبأت كاساندر^(٢) عن حق بالكارثة فلم يصدقوها،

(١) فصيلة انقرضت من فصائل الحمام.

(٢) قضي عليها أن تصدق نبوءتها وألا يصدقها أحد فلقيت العنت من أعداء طروادة عند الهزيمة.

وتنبأ معاصرو جدي باطلاً بالرخاء وخيره وصدقهم الناس. ولو أن جدي بعث في أيامنا هذه لأذهله ما يراه أضعاف ما قد يذهل ويحير جده^(١) ما يراه لو عاد إلى القرن التاسع عشر. إن التكيف مع أحوال عالمنا الحاضر يصعب غاية الصعوبة على من نشأوا في ظل التقاليد القوية، والانتباه إلى هذه الصعوبة يمكننا من أن نفهم كيف انداحت ودالت في الزمن الماضي والزمن الحاضر إمبراطوريات عظيمة ومؤسسات راسخة ظلت قائمة دهوراً، لأن التجارب السياسية التي تجسدها وتقوم عليها قد فقدت فائدتها فجأة وتعذر تطبيقها، لهذا السبب يذهل الكثيرون ويحارون في عهدنا هذا، ولكنه عهد يفتح مجالاً جديداً ربما كان مثمراً مفيداً لمن أوتوا القدرة على الابتداع وخصوبة الخيال.



(١) هو جون رسل دوق بدفورد (١٧١٠ - ١٧٧١).

جُونِ ستيولارت مل

ليس من السهل أن نقوم أهمية جون ستيوارت مل في إنجلترا في القرن التاسع عشر، فإن ما وفق إليه يعتمد على سموه الأخلاقي وتقديره المحكم لغايات الحياة أكثر مما يعتمد على المزايا العقلية المحضة.

وكان نفوذه في السياسة وفي تكوين الآراء عن المسائل الأخلاقية عظيمًا جدًا. وكان في مجموعته، حسبما أعتقد، طيبًا، وكان كسائر عظماء العصر الفيكتوري يجمع بين الامتياز العقلي والشخصية المعجبة، وهذا الامتياز العقلي هو الذي كان يعطي آراءه رجاحة يبدو أعظم ما يبدو للنظرة الراجعة، وهناك اتجاهات حديثة مختلفة ضد نظرياته الأخلاقية والتقويمية، ولكني لا أشعر أن العالم في هذه الاتجاهات قد تقدم أي تقدم منذ أيامه. وكان مل سيئ الحظ عقليًا في تاريخ ميلاده، فأسلافه رواد منهج وطريق وخلفاؤه رواد منهج غيره وطريق سواه. وكان الأساس الذي بنيت عليه آراؤه هو الأساس الذي وضعه له في شبابه أبوه بشخصيته الطاغية، ولكن ما بناه كان أضخم مما يتحمله هذا الأساس. قيل لي إن ناطحات السحاب لا يمكن بناؤها في لندن لأنها تقتضي أساسًا صخريًا، وكذلك آراء مل كانت كناطحات سحاب مقاومة على أساس من الطفل، تظل مهزوزة لأن أساسها غائر على الدوام، فكانت الأدوار التي أضافها على بنائه تحت تأثير كارليل^(١) والمسر تيلور غير مأمونة

(١) توماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١): فيلسوف ومؤرخ إسكتلندي متشائم.

عقليًا، أو بعبارة أخرى كان العقل والأخلاق عنده في صراع دائم، تتمثل الأخلاق في المسز تيلور ويتمثل العقل في أبيه، فإن كان أحدهما أهدش مما يجب فقد كان الآخر أفض مما ينبغي، وكان المزج بينهما مفيدًا من الوجهة العملية غير منسق نوعًا ما من الوجهة النظرية.

أول كتاب مهم لمل هو «المنطق» الذي تمثل في خاطره دعوة للمنهج العلمي في مقابل المنهج اللدني فكان بهذا مفيدًا وإن لم يكن أصيلًا جدًّا إذ لم يستطع أن يتنبأ بالتطور الضخم المدهش في المنطق الاستنباطي الذي بدأ بكتاب بول Boole^(١) «قوانين الفكر» في سنة ١٨٥٤ وثبتت أهميته بعد هذا التاريخ بزمن طويل. فكان كل ما ذكره مل في منطقته عن مسائل غير مسائل الاستدلال الاستقرائي تقليديًا يفتقر إلى الحماس، فهو يقرر مثلاً أن الحقيقة تتكون من جمع اسمين أحدهما موضوع والآخر محمول وهي فكرة تراءى له يقينًا أنها حقيقة سليمة، وإن كانت في الواقع مرجع خطأ خطير على مدى ألفي سنة. فكان ما قاله في موضع الأسماء، الذي اهتم به المنطق الحديث اهتمامًا كبيرًا، غير وافٍ بتاتًا ولا هو يبلغ في الواقع ما بلغه قول دونس سكوتس، ووليم الأوكامي. وكان زعمه المشهور أن القياس الباربارا^(٢) مصادرة على المطلوب وأن الاستنتاج في حقيقته استطراد من جزئيات إلى جزئيات ربما يصح في بعض الحالات ولكنه لا يمكن أن يصح في كل الحالات، فهو يعتقد مثلاً أن القضية «كل إنسان فان» تقرر أن «الدوق ولنجتون»^(٣)، فان، حتى ولو لم يسمع قائلها بالدوق ولنجتون طول حياته، ومن الواضح أن هذا غير مقبول؛ فإن من

(١) جورج بول (١٨١٥ - ١٨٦٤): عالم رياضيات نشر كتابًا عن «المعادلات التفاضلية».

(٢) باربارا، هو القياس الذي يتكون من مقدمتين كليتين موجبتين تنتج عنهما نتيجة كلية موجبة.

وجوهانس دونس سكوتس (١٢٦٥ أو ١٢٧٤ - ١٣٠٨): أحد فلاسفة الاسمين الإنجليز. ووليم الأوكامي

(١٢٩٠ - ١٣٤٩): كذلك من الفلاسفة الاسمين الإنجليز واشتهر بما سمي «نصل أوكام» الذي يدعو لعدم

تعدد الموجودات بغير ضرورة.

(٣) الدوق ولنجتون (١٧٦٩ - ١٨٥٢): القائد الإنجليزي الذي هزم نابليون.

يعرف معنى كلمة «إنسان» وكلمة «فان» يمكنه أن يفهم معنى القضية «كل إنسان فان» ولكن لن يتأتى له أن يستنتج شيئاً عن رجل لم يسمع به من قبل، بينما لا يتأتى، إن صح رأي مل في الدوق ولنجتون، أن يفهم هذا التقرير إلا إذا عرف قائمة جميع الناس الذين وجدوا والذين سيوجدون. وإذن فاعتقاده أن الاستقراء استنتاج جزئي من جزئي يصح نفسانياً إذا طبق على ما أسميه «الاستقراء الحيواني» ولا يصح منطقاً أبداً. فاستنتاج فناء من لم يموتوا بعد من فناء من ماتوا في الماضي، لا يصح عقلاً إلا مع وجود مبدأ عام للاستقراء، وعلى العموم لا يمكن استنتاج نتيجة كلية إلا من مقدمة كلية، والمقدمة الكلية وحدها هي التي تبيح لنا استنتاج نتيجة كلية من إحصاء ناقص للجزئيات. وفوق هذا توجد قضايا كلية لا يمكن الشك في صدقها وإن لم يكن من الممكن إيراد مثل جزئي واحد عليها. خذ مثلاً هذه القضية: «كل الأعداد الصحيحة التي لم يفكر فيها أحد قبل سنة ٢٠٠٠ ميلادية تزيد على المليون»، فهي قضية لا يمكنك إيراد شاهد واحد عليها دون أن تناقض نفسك، كما لا يمكنك ادعاء أن جميع الأعداد الصحيحة قد طرأت على بال واحد أو آخر من الناس. لقد كان للفلاسفة التجريبيين البريطانيين منذ عهد لوك^(١) نظريات في المعرفة لا يمكن تطبيقها على الرياضة، بينما أنتج فلاسفة القارة - باستثناء «الفيلسوف»^(٢) الفرنسيين - مذاهب ميتافيزيقية واغلة نجمت عن عنايتهم الزائدة بالرياضة ولم تحدد دائرة التجريبية عن الرياضة والمنطق إلا بعد زمن مل، فأمكن بعدئذ أن يتحقق بينهما التعايش السلمي. وقد قرأت «منطق» مل وأنا في الثامنة عشرة فتكونت في نفسي له في ذلك الوقت عصبية قوية، ولكنني لم أستطع أن أومن حتى في ذلك الوقت أن القضية «اثنتان واثنان أربع» هي تعميم تجريبي، وكنت في حيرة فعلاً في مصدر هذه المعرفة، ولكنني كنت أشعر بفارق حاسم بينها وبين قضية مثل «كل البجع أبيض»

(١) جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤): أحد كبار الفلاسفة السياسيين والإبستمولوجيين.

(٢) هي الكلمة الفرنسية التي تقابل «الفلاسفة» يعني بهم رسل فلاسفة الثورة الفرنسية.

التي يمكن للتجربة كما قد أمكن فعلاً أن تنقضها؛ ولم يكن يبدو لي قط أن مثلاً جديداً على الحصول على أربعة من جمع اثنين واثنين يؤثر في اعتقادي بصدق القضية أي تأثير. ولكنه التطور الجديد في المنطق الرياضي هو الذي مكّني من تبرير هذه المشاعر الباكّة ومن وضع المعرفة الرياضية والمعرفة التجريبية في إطار وحيد.

ولم يتعلم مل قط كيف يفكر تفكيراً رياضياً على ما له من بعض علم بالرياضة، فلم يكن قانون السببية عنده هو الذي يستخدمه علم الطبيعة الرياضي بل كان مبدأً عملياً يستخدمه البدائيون والفلاسفة في شؤون حياتهم اليومية، ولا يستخدمه في الطبيعة أي امرئ على علم بالحساب، فإن قوانين الطبيعة لا تقرر أبداً ما تقرره قوانين سببية مل من أن «أ» تتبعها دائماً «ب»، وكل ما يقررونه هو أنه إذا حدثت «أ» فسيحدث اتجاه معين من التغيرات: ولما كانت «أ» متغيرة أيضاً فإن اتجاهات التغير ذاتها متغيرة باستمرار أن فكرة أن قوانين السببية على نمط «أ تحدث ب» فكرة ذرية أكثر مما ينبغي، وما كان لأحد أن يعتنقها إذا هو فهم بخصوبة خياله استمرار الغير.

ولكن لا نكون دجماطيين متطرفين، فمن الناس من يقول إن التغيرات الطبيعية ليست استمرارية بل انفجارية، ولكن هذا النفر من الناس يقول أيضاً إن الأحداث الفردية لا تخضع لأي اطراد عليّ وإن الاطراد الظاهري لهذا العالم إنما يرجع لقوانين المتوسطات. ولست على يقين من أمر هذه النظرية أهى صحيحة أم خاطئة، ولكنها على كل حال مخالفة لرأي مل تمام الخلاف.

والواقع أن قانون مل في السببية صادق صدقاً تقريبياً بمعنى يومي غير علمي، ومع ذلك فهو يعتقد أنه قائم على استقراء يراه في موضع آخر استقراء مهزوزاً، وذلك هو الاستقراء بالإحصاء البسيط، وهو إجراء ليس مهزوزاً فحسب، ولكن يمكن بكل تحديد إظهار أنه يقود إلى نتائج كاذبة أكثر مما يقود إلى نتائج صادقة، فإنك إن عثرت على س من الأشياء التي تتصف بصفيتين: أ، ب ثم عثرت على شيء

آخر يتصف بصفة أ، فما أسهل ما يمكن التدليل على أنه يحتمل ألا يكون متصفاً بالصفة ب، ولكن هذا مستتر عن الحس المشترك وراء نزعتنا الحيوانية التي تقصر نظرنا إلى الاستقراء على الحالات التي يعطينا فيها نتائج صادقة. خذ مثلاً على استقراء لا يقول به أحد قولنا:

«كل الخراف التي رأها كانت في حدود عشرة أميال من كونجزبرج»^(١)، ولكنه (أي كانط) لم يشعر بأي ميل لاستنتاج أن كل الخراف تعيش في حدود عشرة أميال من كونجزبرج».

إن الطبيعة الحديثة لا تستعمل الاستقراء بمعناه القديم بتاتاً، بل تضع نظريات ضخمة بغير أن تتظاهر بصدقها على أي معنى محكم مضبوط، وتقصر استعمالها على أساس فرضي حتى تظهر وقائع جديدة تقتضي التغيير في النظريات. وكل ما يدعيه العالم الطبيعي المحدث لنظريته هو أنها تطرد مع الوقائع المعروفة وأنه لهذا لا يمكن دحضها في الوقت الحاضر. وقد ترك معظم الطبيعيين النظريين مشكلة الاستقراء في صورتها التقليدية على إنها لا حل لها، وأني وإن لم أكن مقتنعاً أدنى اقتناع أنهم مصيبون في هذا إلا أنني أظن أنه من الممكن إقامة البرهان القاطع على أن المشكلة شيء يختلف كل الاختلاف عما ظنه مل.

ومن المدهش إلى حد ما أن مل لم يتأثر إلا قليلاً بدارون ونظريته في التطور، ويزيد الأمر غرابة أنه كان دائم الاستشهاد بهربرت سبنسر. ويبدو أنه كان يقبل نظرية دارون دون أن يستكنه مضامينها، فهو يتكلم في فصل «التصنيف» من كتاب المنطق عن «الأنواع الطبيعية» على نهج ما قبل دارون كلية، بل ويفترض أن الأنواع المعروفة

(١) هي مدينة «عمانويل كانط» التي لزمها طول عمره، ولم يبارحها أكثر من مرتين خلال الثمانين عاماً التي عاشها، ولم يتعد في خروجه منها في الحاليتين عشرة أميال.

من الحيوانات والنباتات أنواع سفلى بالمعنى المدرسي القديم^(١) على الرغم من أن كتاب دارون «أصل الأنواع» قد برهن على عدم صحة هذا الرأي، ومن الطبيعي ألا يحسب حساب نظرية التطور في طبعة «المنطق» الأولى التي ظهرت في سنة ١٨٤٣، ولكن الشذوذ ألا يعدل فيه ويحور في طبعاته التالية، ولعل الأدهش من هذا أنه في «ثلاث مقالات عن الدين» التي كتبت في وقت متأخر جدًا من حياته، لا يرفض حجة «النظام» المرتكزة على تكيف الحيوانات والنباتات مع بيئتها وأنه لا يناقش تعليل دارون لهذا التكيف، ولا أظن أنه نظر أبدًا إلى الإنسان بعين الخيال على أنه حيوان بين الحيوانات، ولا تخلص من اعتقاد القرن الثامن عشر أن الإنسان أساسًا ناطق، وهو ظن لا أقصد به ما قاله صراحة أو ادعاه بوضوح، بل ما كان يفترضه دون وعي حينما يكون على سجيته بغير احتراس، وأغلبنا يمضي في الحياة بمثل هذه الافتراضات الباطنية الدفينة التي تؤثر في معتقداتنا أكثر من الحجج الصريحة، والتي تتكون عند معظمنا في حدود سن الخامسة والعشرين. أما في حالة مل فإن المسز تيلور قد أحدثت فيه بعض التغيير، ولكنه ليس تغييرًا في حدود العقل المحض، ففي هذا المحيط ظل جيمس^(٢) الحاكم الأعلى على وعي ابنه الباطن.



(١) النوع السافل أو نوع الأنواع، حسب تقسيم فورفوربوس (ملك الصوري) للأجناس والأنواع، هو آخر نوع في السلسلة وتليه الأفراد.

(٢) جيمس مل، أبو جون ستيوارت مل (١٧٧٣ - ١٨٣٦).

وثاني كتب مل الكبرى هو «مبادئ الاقتصاد السياسي». وقد ظهرت طبعته الأولى سنة ١٨٤٨ ولكنها أُتِبَت في السنة التالية بطبعة معدلة تعديلاً جوهرياً، وقد ذكر المستر باك Packe في كتابه المعجب عن تاريخ حياة مل كل ما هو خليق بالذكر في أمر الاختلاف بين الطبعتين، فقد انحصر الاختلاف على مسألة الاشتراكية التي نقدت في الطبعة الأولى من وجهة النظر التقليدية المتزمته Orthodox، وهو نقد صمدت له المسز تيلور وأوعزت إلى مل أن يجري فيه تعديلاً كبيراً في الطبعة القادمة. فإن من أعظم الفضائل القيمة في كتاب باك أنه هياً لنا آخر الأمر أن نرى المسز تيلور في ضوء غير متحزب وأن نتفهم منابع نفوذها على مل، إلا أنني أظن أن باك كان شديد القسوة نوعاً ما في نقد مل على تغييراته الخاصة بالاشتراكية، فما أظن إلا أن المسز تيلور قد فتحت له طريق التفكير بما تمليه عليه طبيعته بدلاً مما يمليه عليه تعليمه، فلم يكن موقفه نحو الاشتراكية، كما ظهر في الطبعات المتأخرة للكتاب، بريئاً من النقد، فإنه لا يزال يشعر بوجود صعوبات لم يواجهها الاشتراكيون كما ينبغي، فيقول مثلاً:

«من الخطأ الشائع بين الاشتراكيين أنهم يتغاضون عن التراخي الطبيعي في بني الإنسان».

وهو لهذا يخشى أن يصاب المجتمع الاشتراكي بالجمود، فلقد عاش في عهد أسعد من عهدنا، ولربما نشعر بشيء من النشوة والمرح لو أننا استطعنا أن ندع الأمل يراودنا في راحة كراحة الجمود.

ويسط لنا مل في فصل «المستقبل المنظور للطبقات العاملة» مدينة فاضلة يتشوف إليها، فهو يتمنى أن يرى الإنتاج في أيدي جمعيات اختيارية للعمال، وليس في يد الدولة كما يريد الاشتراكيون الماركسيون، فإن اشتراكية مل هي اشتراكية سان سيمون^(١) وفورييه^(٢) (أما روبرت أوين فيبدو لي أنه قليل الرجاحة في اعتبار مل) وهي الاشتراكية التي تنطبع بطابع الاشتراكية السابقة على ماركس والتي لا تهدف إلى زيادة قوة الدولة، فإن مل يصر على أن التنافس حتى في الاقتصاد الاشتراكي يجب أن يستمر وأن يتحول إلى تنافس بين الجمعيات العمالية المتناظرة بدلاً من تنافس الرأسماليين، كما أنه يميل إلى الاعتقاد أن الإنتاج في نظام اشتراكي كالذي يدعو إليه، ربما قل عما هو عليه في النظام الرأسمالي، ولكنه لا يرى في ذلك ضيراً كبيراً ما دام النظام يسمح براحة الجميع.

ولقد يصعب على القارئ الحديث الذي تعود أن يفهم أن من معاني الاشتراكية إحلال الدولة محل رأس المال الفردي أن يتفادى سوء فهم مل، فلقد احتفظ مل بكل سوء الظن بالدولة الذي أوجده مدرسته مائشستر في صراعها مع عليّة الإقطاع، وأرغد سوء ظنه هذا بالدولة رافد من عقيدته العارمة في الحرية فهو يقول إن قوة الحكومات دائماً خطيرة، وكان على ثقة أنها آخذة في الزوال وأن الأجيال المستقبلية لن تعهد للحكومات بكل هذا القدر من التدخل القائم في وقته، وكم يؤلم المرء منا

(١) كلود هنري دي روفروي كونت دي سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) أستاذ أوجست كونت.

(٢) فرانسوا ماري شارلز فورييه (١٧٧٢ - ١٨٣٧) صاحب مبدأ الاشتراكية التعاونية التي حاول تنفيذها في سنة ١٨٢٥ وفشل.

أن يقرأ شيئاً كهذا، لأنه يفتح عينيه على استحالة التنبؤ حتى في الخطوط العريضة بتطورات المستقبل، فإن الكاتب الوحيد من كتاب القرن التاسع عشر الذي اقترب تنبؤه بالمستقبل من الدقة هو نيتشه^(١)، ولم يصدق تنبؤ نيتشه لأنه كان أحكم وأحصف من غيره، ولكن لأن كل كربه حدث قد كان هو عين ما يوده وبيتغيه، ولم يحدث إلا في عهدنا هذا الذي انجابت غشاوته أن وجد المتنبئون الذين يندرون بما يخشون مثل أورويل^(٢) بدلاً من الذين يبشرون بما يرجون.

لقد ضل مل في تنبؤاته وآماله على السواء، إذ لم يتنبأ بالقوة المتزايدة للمنظمات الكبيرة، ولا يصدق هذا في الاقتصاد وحده ولكنه يصدق أيضاً في غيره من المجالات، فهو يعتقد مثلاً أن من واجبات الدولة أن تصر على نشر التعليم، على ألا تتولاه هي بنفسها، ولم يتبين قط أن البديل الوحيد من الدولة هو الكنيسة، على الأقل فيما يتعلق بالتعليم الابتدائي، وهو شيء لا يكاد يؤثره أو يرتضيه.

ومل يميز بين الشيوعية والاشتراكية، ويؤثر الثانية على الأولى، وإن لم يلعن الشيوعية كل اللعنة؛ إذ لم يكن الحد الفاصل بين المذهبين واضحاً كما أصبح واضحاً بعد زمانه، فإن التمييز بين المذهبين - كما يشرحه مل في عمومه - هو أن الشيوعيين يعترضون على الملكية الفردية اعتراضاً مطلقاً، بينما يرى الاشتراكيون «أن الأرض وأدوات الإنتاج يجب أن تكون ملكاً للجماعات أو الهيئات أو الحكومة لا للأفراد». وهو يعبر عن رأيه في الشيوعية في مقال مشهور فيقول:

«فإذا وجب الاختيار إذن بين الشيوعية بكل فرصها واحتمالاتها وبين الحالة الراهنة للمجتمع بكل شقائه ومظالمه، وإذا تحتم أن ينتج عن نظام الملكية الفردية أن يوزع محصول العمل بالنسبة التي نشاهدها الآن، وهي التناسب العكسي تقريباً

(١) فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) فيلسوف القوة والسوبر مان.

(٢) جورج أورويل، الاسم المستعار للكاتب الإنجليزي أريك بليز (١٩٠٣ - ١٩٥٠).

بين العامل وبين نصيبه من محصوله، فيذهب الجزء الأكبر من المحصول لمن لا يعملون شيئاً، ويذهب الجزء الذي يليه مباشرة في الكبر إلى من يقومون بعمل اسمي ظاهري تقريباً، وهكذا في ترتيب تنازلي تقل فيه الحصيلة بمقدار ما يزداد المجهود مشقة وألماً حتى يصل في النهاية إلى أن من يبذل أضعافاً مضاعفة لا يستطيع أن يطمئن حتى على حصوله على ضرورات الحياة، إذا كان هذا أو الشيوعية فإن جميع مصاعب الشيوعية كبيرها وصغيرها لا تعدل في الميزان أكثر من الهباء، ولكن لكي تصح المقارنة يجب أن نوازن بين الشيوعية في أحسن حالاتها وبين الملكية الفردية كما يمكن أن تكون لا كما هي بوضعها الراهن. إن مبدأ الملكية الفردية لم يجرب حتى الآن تجربة كافية في أي بلد من البلاد، وربما كانت تجربته في هذه البلاد أقل من تجربته في غيرها».

إن تاريخ الكلمات شيء عجيب، فما من أحد في عصر مل، باستثناء ماركس على الأكثر، كان يمكنه أن يخمن أن كلمة «الشيوعية» ستعني في المستقبل طغيان القلة عسكرياً وإدارياً وقضائياً، غير تاركة للعمال من حصيلة عملهم إلا ما يكفي لكي يمنعهم من الثورة الجائحة ولا يزيد، وإن ماركس الذي نراه الآن صاحب التأثير الأكبر من بين معاصري مل لم يذكر اسمه في كل ما اطلعت عليه من كتابات مل، ومن المحتمل جداً أن مل لم يسمع به قط، وقد نشر «البيان الشيوعي» في ذات السنة التي ظهر فيها كتاب مل «الاقتصاد السياسي» ولكن قادة الفكر في وقته لم يعلموا به، ولست أدري أي مغمور في وقتنا الحاضر سيكون بعد مائة عام من الآن هو الشبح المسيطر على ذلك الزمان.

أما فيما عدا ما حواه كتاب الاقتصاد السياسي عن الاشتراكية والشيوعية فإنه غير مهم؛ لأن مبادئه مستمدة من سابقه المتزمتين بتعديل بسيط، فنظرية ريكاردو^(١)

(١) دافيد ريكاردو (١٧٧٢ - ١٨٣٢) اقتصادي يهودي إنجليزي من أصل هولندي أهم نظرياته نظرية (الريع).

في القيمة، التي يتفق معها مل على الجملة قد أدخلت مكانها لنظرية جيفونز^(١) في «المنفعة الحدية» التي تعد تقدمًا نظريًا كبيرًا، فقد كان مل في كتاب الاقتصاد كما كان في كتاب المنطق مستعدًا للسكن إلى اعتقاد تقليدي عتيق ما دام لا يشعر بأي ضير عملي من اعتناقه.

* * *

-٣-

أهم من كل مطولات مل بكثير كتاباه القصيران: «حول إخضاع النساء» و«في الحرية». فأما أولهما فقد سايره العالم كل المسائرة فيه، وأما ثانيهما فقد دابره فيه كل المدابرة.

إن من العار على الرجال والنساء على السواء أن ظل العالم طول هذا الزمن ينتظر ظهور أنصار مساواة النساء، إذ لم يول هذه المسألة التفاتًا أحد من المفكرين قبل الثورة الفرنسية إلا أفلاطون، فلما ارتفع بالدعوة صوت، اخترعت حجج مضحكة لا تصدق لتأييد الوضع القائم، ولم يكن الرجال وحدهم هم الداعين إلى عدم إشراك النساء في السياسة، بل اقتنع بهذا حتى النساء، ولا سيما السياسيات منهن كالمملكة فيكتوريا والمسز سدني وب، وقل من الناس من استطاع أن يتبين أن امتياز الرجل مبني على الامتياز للعضلي ليس إلا، فكانت النظرة إلى دعوة مساواة النساء نظرة السخرية، وظلت كذلك حتى قبيل نجاحها بسنوات ثلاث، فلما تحدثت في تأييد منح النساء حق الاقتراع قبل الحرب العالمية الأولى وفي تأييد المسالمة في أثناء الحرب. لقيت من المعارضة في أولى الدعوتين ما هو أشد وأوسع بكثير جدًا مما

(١) وليم ستانلي جيفونز (١٨٣٥ - ١٨٨٢) أحد ثلاثة نشرُوا نظرية المنفعة الحدية في وقت واحد تقريبًا هم منجر النمسوي وولراس الفرنسي وجيفونز الإنجليزي.

لقيته في ثانيتهما. وقل أن سجل التاريخ في حوادثه ما هو أكثر غرابة من التسليم المفاجئ للنساء بالحقوق السياسية في كل البلاد المتحضرة ما عدا سويسرا. وأظن أن هذا التحول كان جزءاً من تحول أعم هو التحول من النظرة الحيوية (البيولوجية) إلى النظرة الآلية. فإن الآلة تنقص أهمية العضل، والصناعة أقل عناية بالمواسم من الزراعة، والديموقراطية نجحت في تحطيم الملكيات وقللت من الشعور باستمرار الأسرة، فبينما كان نابليون يود أن يخلفه ابنه على عرشه، لم يكن هذا الغرض يراود لينين أو ستالين أو هتلر، ولهذا أظن أنه لم يمكن التسليم للنساء بالمساواة إلا لأنهن لم يعدن ينظر إليهن نظرة حيوية. ويلاحظ مل أن الوحيديات من النساء الإنجليزيات اللاتي لسن في أسر الرق والاستعباد هن العاملات في المصانع، ولست أدري ما عذره في نسيان الملكة فيكتوريا، ولكن كلامه على كل حال يحمل بعض الصدق لأن عمل النساء في المصانع، على خلاف الحمل والولادة، عمل يمكن أن يقوم به الرجال. ومهما يبلغ أمر إنصاف النساء في ذاته من النبل والجدارة فإنه فيما يبدو، يجب أن يكون جزءاً من تغير اجتماعي أشمل وأعم، يعلي الصناعة على حساب الزراعة والمصنع على حساب حجرة الأطفال، والقوة على حساب المعاش، وأعتقد أن العالم قد تأرجح مسافة أطول مما ينبغي في هذا الاتجاه، وأنه لن يعود إلى صوابه حتى يتذكر الأوجه الحيوية للحياة الإنسانية. إلا أنني لا أرى داعياً، إذ حدث هذا، أن يجر معه إحياء إخضاع النساء.

وكتابه «في الحرية» أهم عندنا في الوقت الحاضر من كتابه «حول إخضاع النساء»؛ لأن دعوته كانت أقل نجاحاً. فالحرية في الجملة أقل كثيراً في العالم مما كانت منذ مائة عام، وليس ثمة ما يدعو إلى افتراض أن القيود المفروضة عليها ستقل في المستقبل المنظور.

ويذكر مل روسيا على أنها البلد الذي تسلطت عليه البيروقراطية حتى لم تدع

أحدًا، ولا الموظف الفرد، يتمتع بأي قسط من الحرية الشخصية. ولكن روسيا ذلك العهد، بعد إلغاء رقيق الأرض، كانت تتمتع بقسط من الحرية يزيد ألف ضعف على قسطها منها في الوقت الحاضر، فقد أظهرت في زمنه كُتَابًا عظيمًا قاوموا الحكم المطلق، وثوارًا شجعانًا استطاعوا أن يقوموا بالدعاية على الرغم من السجن والنفي، بل إنها أظهرت أحرارًا حتى بين المتسلطين أصحاب القوة كما يشهد بذلك إلغاء نظام رقيق الأرض، وكان ثمة ما يبشر بالأمل في تطور روسيا مع الزمن إلى ملكية دستورية تحقق، على خطوات، ذلك القدر من الحرية السياسية الذي كان في إنجلترا. كما كانت هناك شواهد على نمو الحرية في غيرها من البلاد، فألغى الرق في الولايات المتحدة بعد ظهور كتاب مل بوضع سنين، وانتهت ملكية نابليون الثالث^(١) في فرنسا، وهي الملكية التي كان يكرهها مل كل الكره، بعد ظهور كتابه بأحد عشر عامًا، وفي الوقت نفسه أعطى حق الانتخاب لجميع الرجال في ألمانيا. ولهذا لا أعتقد أن المستر باك كان على حق في قوله إن الاتجاه العام لذلك العهد كان اتجاهًا مديبرًا للحرية، كما لا أعتقد أن تفاؤل مل كان مبنياً على غير أساس معقول.

وإني لأجد نفسي على تمام الاتفاق مع قيم مل، وأظنه على تمام الصواب في تأكيد أهمية الفرد حيثما وضعت القيم في الاعتبار، بل إنني أعتقد أكثر من هذا أن التمسك بالنظرة التي كان يدعو لها أوجب في عصرنا هذا مما كانت في عصره لولا أن المعنيين بالحرية في يومنا يحاربون في جبهات تختلف عن جبهات القرن التاسع عشر، وعليهم إذن أن يتدعوا خططاً جديدة إذا قدر للحرية ألا تهلك. كانت «الحرية» فيما بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر كلمة السر عند الراديكاليين والثوريين، ولكنها في عالمنا الحاضر قد اغتصبها الرجعيون ومال إلى ازديادها والزراية بها من يظنون بأنفسهم أنهم أشد التقدميين تقدماً، فيصمون بها بأنها جزء من

(١) لويس نابليون (١٨٠٨ - ١٨٧٣) هو ابن أخي نابليون الأول.

«مثالية البرجوازية المتعفنة»، وإنها بدعة من بدع الطبقة المتوسطة تهم أولئك الذين ينعمون فعلاً بالثراء وحدهم. فإن كان هناك شخص واحد مسؤول عن هذا التغير فذلك هو ماركس الذي استبدل بالحرية النظام البروسي ليكون وسيلة وغاية للعمل الثوري، إلا أن ماركس ما كان ليصادف النجاح الذي صادفه لو لم يحدث تغيير كبير في التنظيم الاجتماعي وفي الوسائل والكيفيات التي تمشت مع مثله في مقابل مثل المصلحين السابقين.

إن الذي غير الحالة منذ عصر مل هو ما سبق أن لاحظته من الزيادة الضخمة في التنظيم. إن كل منظمة هي مجموعة أفراد يرتبطون بغرض معين، فإذا كان لهذا الغرض أن يتحقق فلا بد من خضوع الأفراد بعض الخضوع للمجموع. فإن كان الغرض من نوع يهتم به كل فرد غاية الاهتمام وكانت السلطة التنفيذية للمنظمة حائزة على الثقة، قل القسط المتنازل عنه من الحرية جدًّا، أما إن كان الغرض الذي وجدت من أجله المنظمة يهم السلطة التنفيذية وحدها، ويخضع لها فيه بقية الأعضاء، لأسباب ودواع غريبة عنهم، فإن ما تجره هذه الحالة من فقدان الحرية قد يزداد وينمو حتى يكتمل فقدانها تقريبًا. وكلما كبرت المنظمة زادت الهوة بين قوة من على القمة ومن على القاع، وزاد احتمال الضغط والاستبداد. والعالم الحديث، لأسباب صناعية فنية، أكثر تنظيمًا بكثير مما كان منذ مائة عام، فقد تضاعف عدد الأعمال التي يمكن أن يقوم بها الفرد لمجرد هواه، وكبر وتفاقم عدد ما يُقصر أو يُدفع إلى القيام به بحكم سلطة من السلطات. ولا شك أن الفوائد الناجمة عن التنظيم أعظم وأوضح من أن نتمنى زوالها والعودة إلى حالة سابقة، ولكن الذين يشعرون بالفوائد وحدها خليقون أن يغفلوا عن المخاطر، وهي مخاطر حقيقية قوية التهديد.

فلنتمثل بالزراعة أولاً. كان في السنوات التي تلت نشر كتاب مل «في الحرية» مباشرة تطور ضخم نحو ارتياد الوسط الغربي من الولايات المتحدة، وكان الرواد

يتباهون «بفرديتهم» الجلفة واستقروا في مناطق تفيض بالغابات وبالمياه وتمتاز بخصوبة طبيعية كبيرة، فلم يجهدوا جهداً كبيراً في استئصال الغابات والحصول على الأخشاب اللازمة للأكواخ والوقود، وتحصلوا بعد توطئة الأرض على محصول غني من الحبوب. ولكن كانت ثمة حية في ذلك الفردوس الفردي، تلك هي السكة الحديدية التي لا مندوحة عنها لتوصيل الحبوب إلى السوق، فكانت مظهرًا لتكديس عظيم لرأس المال، وإنفاق ضخّم في العمل، وتجميع لعدد كبير من الناس قل من بينهم الزارعون، فاستاء الرواد لفقدانهم استقلالهم، وأنتج استيائهم هذا حركة «البويولست» التي لم تصادف أي نجاح على ما اتسمت به من الحرارة. وعلى كل حال لم يكن ثمة إلا عدو واحد للاستقلال الفردي في هذه الحالة. ولقد بدھني الفارق بين هؤلاء وبين الرواد الأستراليين عندما التقيت بهم، فقد كان استئصال الأراضي الجديدة للزراعة في أستراليا يعتمد على مشاريع للري طافحة الغلاء، وأكبر من أن نطبق نفقاتها الولايات المحلية، ولا معدى عن أن تتولاها الحكومة المركزية، وحتى إذا ما تحصل المرء على قطعة من الأرض، لم يكن يجد بها خشب البناء، وعليه أن يستورد كل مواد البناء والوقود من مسافات بعيدة، ولم يكن يمكن أن تتوافر العناية الطبية لشخصه ولأسرته إلا حسب شبكة واسعة دقيقة من الطائرات واللاسلكي، وكانت حياته تعتمد على التصدير الذي يزدهر وينكمش حسب تقلبات حكومات بعيدة، وكان لا يزال بعقلية «الفرد الجلف» وذوقه ومشاعره كما كانت منذ مائة عام، ولكن ظروفه مختلفة كل الاختلاف، فمهما تراوده الثورة على الدولة فإنه محكوم مكبوح بقوى خارجة عنه كل الخروج، وربما أمكنه أن يحافظ على حريته الفكرية، أما حريته الاقتصادية فقد أصبحت حلمًا في منام.

إلا أن حياة الرائد الأسترالي جنة سماوية إذا قيست بحياة الفلاح في الدول الشيوعية الذي أصبح أكثر رقاءً للأرض مما كان في أسوأ أيام القيصرية، فلم يعد يملك

الأرض، ولا حق له فيما ينتجه بعمله، ولا تسمح له الدولة إلا بالكفاف، والشكوى قد ترسبه في معسكر للسخرة. إن الدولة المستبدة هي آخر خطوة في التنظيم، وهي النهاية التي قد تنتهي إليها جميع الدول المتقدمة إذا لم تحترس لنفسها.

لقد ظن الاشتراكيون أن قوة الرأسماليين ستتحول إلى الخير والمنفعة إذا تولتها الدولة، وهذا حق إلى حد ما دامت الدولة ديموقراطية، إلا أن الشيوعيين لسوء الحظ قد نسوا هذا الشرط فتمخض تحويل القوة الاقتصادية إلى دولة أوليجاركية عن جهاز للطغيان أربب وأوسع وأدق في الوقت نفسه من أي طغيان حدث في التاريخ، ولست أظن أن هذا هو ما كان في نية الثوار الروسيين ولكنه كان نتيجة أعمالهم، التي تمخضت عن تغافلهم عن الحرية والشرور التي لا محيص منها في كل طغيان واستبداد.

ولكن الشرور التي ترى على أشبع صورها في البلاد الشيوعية توجد بدرجة أقل، ولا عاصم من أن تتفاقم، في البلاد التي تنتمي إلى ما يسمى هزلاً وفكاهة «بالعالم الحر». لقد أرسل فافيلوف^(١)، أعظم من أنجبت روسيا في عصرها الأخير من علماء النسلات (الوراثة) ليهلك في بؤس قارة أركتيكا^(٢) لأنه لم يقتنع برأي ستالين الجاهل في أن الصفات المكتسبة قابلة للتوريث، ولطخ أوبنهايمر^(٣) بالعار ومنع من مواصلة عمله لأنه شك في جدوى القنبلة الإيدروجينية في وقت كان الشك فيها معقولاً، ويرى مكتب المباحث الفيدرالي (F. B. I.) وهم لا يرتفعون عن المستوى العلمي الذي يتوقع في رجال البوليس، إنهم كفء لمنع تأشيرات الدخول عن أعلم علماء أوروبا على أسس يعلم كل قادر على فهم المسائل موضوع البحث أنها أسس مضحكة، وقد بلغ هذا الشر حدّاً تعذر معه إقامة المؤتمرات الدولية بين العلماء في

(١) فافيلوف (١٨٨٧ - ١٩٤٣) من أكبر علماء النبات والوراثة.

(٢) أركتيكا هي القارة الغارقة تحت طبقات الجليد الشمالي.

(٣) جون روبرت أوبنهايمر، عالم أمريكي من أصل يهودي ولد سنة ١٩٠٤ ويعد أبا القنبلة الذرية في أمريكا.

الولايات المتحدة. والغريب أن مل قلما يذكر البوليس على أنه خطر على الحرية وهم في يومنا هذا أسوأ أعدائها في أغلب البلاد المتحضرة.

* * *

-٤-

إنه لمن التخمين المشوق، وربما لم يكن كله تافهًا، أن نتخيل كيف كان مل يكتب كتابه لو أنه كتبه الآن. أظن أن كل ما قاله عن قيمة الحرية سيبقى بغير تغيير، فما دامت الحياة الإنسانية قائمة، فستظل الحرية شرطًا جوهريًا لتحقيق كثير من أحسن الطيبات التي تتاح لوجودنا الأرضي لأن لها ينبوعها العميق في أول أوليات غرائزنا. إن المواليدهم يهيجهم أشد الهياج أن نقيد أرجلهم وأيديهم، وبغير نوع الحرية المطلوب مع النمو وازدياد المعرفة، ولكن الحرية تظل منبعًا جوهريًا للسعادة البسيطة. وليست السعادة وحدها هي التي تفقد إذا افتتت على الحرية بغير داع، ولكن أنواع المنفعة التي تزيد في الأهمية والتعقيد تفقد أيضًا. فلقد تعرض الأفراد في كل رسالة عظيمة خدموا بها الإنسانية للعداء العنيف الذي قد يصل إلى حد الشهادة. وكل هذا قاله مل على أحسن ما يكون ولا يحتاج إلى التغيير إلا ما كان من إيراد أمثلة حديثة عليه.

ولكنني أظن أنه كان يستطرد إلى القول بأن الافتتات على الحرية إنما ينجم من مصدرين: أولهما قانون أخلاقي مستبد يقتضي من الناس أن يخضعوا لقواعد من السلوك لا يرضونها، والثاني وهو الأهم، ينجم من القوة الغاشمة.

فأما عن المصدر الأول، مصدر القانون الأخلاقي المتمتت فإن مل يورد عليه أمثلة مختلفة، وله مقالة قوية بليغة عن اضطهاد المورمون^(١) وهو مثل يناسب أغراضه

(١) فئة من الكاثوليك الأمريكيان تبيع تعدد الزوجات.

أحسن مناسبة، إذ لا يشك أحد في مقدار حسن ظنه بتعدد الزوجات. ومثل له آخر عن الافتئات بغير داع على الحرية باسم الدفاع عن القانون الأخلاقي هو مراعاة السبت^(١) الذي فقد جل أهميته بعد عهده، ولقد قضى والدي، وكان تلميذاً لمل، فترته القصيرة في البرلمان، في محاولة عقيمة لإقناع مجلس العموم بأن محاضرات ت. هـ. هكسلي^(٢) ليست ممتعة، لأنها إن أمكن وصفها بالإمتاع كان إلقاؤها في أيام الأحد خروجاً على القانون.

واعتقد أن لو كان مل يكتب الآن لاختر لمزيد من التمثيل مسألتين أبرزهما البوليس أخيراً وأكدهما، أولاهما مسألة الأدب «الخليع»، فإن القانون في هذه المسألة شديد الغموض. والحق أن أي قانون يمكن أن يوجد في هذا الشأن لا يمكن أن يتفادى الغموض؛ إذ الواقع العملي أن أي شيء يتصادف أن يجرح إحساس مأمور قضائي فهو «خليع»، بل إن ما لا يصدم مأموراً قضائياً ربما قدم للقضاء أيضاً إذا تصادف أن صدم إحساس شرطي جاهل كما حدث أخيراً في قضية «الديكاميرون»^(٣). إن الشر الذي ينجم عن أي قانون من هذا القبيل إنما يمنع نشر المعرفة المفيدة إذا كانت من نوع من المعرفة الذي لم يكن معروف الفائدة حينما كان المأمور طفلاً. ولقد ظن معظمنا أن الأمور في هذا الصدد آخذة في التحسن، ولكن التطورات الأخيرة قد أوقعت الشك في نفوسنا؛ إذ لا قبل لي بالاعتقاد بأن الشعور بالحياء الذي قد يشعر به كهل يوضع أمام شيء لم يتعوده سبب كاف للاتهام بالإجرام.

والمسألة الثانية التي تلحن بشأنها التشريعات القائمة في نظر مبادئ مل هي مسألة الشذوذ الجنسي. فإنه إذا اتصل راشدان بمحض اختيارهما مثل هذا الاتصال

(١) مراعاة السبت شعيرة يهودية معروفة والمقصود هنا هو عطلة نهاية الأسبوع وهي عادة يوم الأحد.

(٢) توماس هنري هكسلي (١٨٢٥ - ١٨٩٥): أحد أعمدة علم التاريخ الطبيعي البريطانيين.

(٣) الديكاميرون قصة من الأدب المكشوف ظهرت في إيطاليا في القرن الرابع عشر لمؤلفها جيوفاني بوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٨٥).

فإن الأمر يعنيهما وحدهما ولا يصح للمجتمع إذن أن يتدخل معهما، فإن وقر في الاعتقاد، كما حدث من قبل، أن التسامح مع مثل هذا السلوك يعرض المجموع لمصير سدوم وعمورة، فإن للمجموع الحق كل الحق في التدخل ولكن لا يحق له التدخل لمجرد ظنه أن هذا عمل دنيء، إذ يصح اللجوء إلى القانون الجنائي لمنع العنف والخديعة التي تقع على ضحايا مرغمين، ولكن لا يصح قط اللجوء إليه إذا كان كل الضرر الناجم واقعاً على الشركاء وحدهم ما داموا راشدين.

وأهم بكثير من متخلفات العصور الوسطى هذه في تشريعاتنا، مسألة القوة الظالمة، فهي المسألة التي تمخضت عنها حركة التحرر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إذ اعترض الأحرار على قوة الملوك وقوى الكنيسة في بلاد الاضطهاد الديني، كما اعترضوا على السيادة الأجنبية حينما اصطدمت بشعور وطني قوي. ولقد نجحت هذه الأغراض في جملتها، فحل رؤساء الجمهوريات محل الملوك، وكاد يختفي الاضطهاد الديني كلية، وفعلت معاهدة فرساي ما أطاقت أن تفعله للاعتراف بمبادئ الحرية القومية. ولكن على الرغم من كل هذا لم يصبح العالم فردوساً، ووجد محبو الحرية أنها أقل مما كانت لا أزيد، لأن الصيحات والخطط التي أدت إلى النصر في الماضي لم تعد صالحة للموقف الجديد بعد أن شعر الأحرار بأن قد هجرهم أنصار الصور الجديدة من الطغيان من التقدميين المزعومين. لقد أصبح الملوك والكهان والرأسماليون على الجملة غيلاناً من طراز عتيق، وإنما يتمثل الخطر الحديث في الموظفين الرسميين، وما أقل حيلة الأفراد منفردين إزاء هؤلاء، فما يفل المنظمات إلا المنظمات، وأظن أن علينا أن نحبي عقيدة مونتسكيو^(١) في فصل السلطات على صورة حديثة. تدبر مثلاً صراع العمال ضد رأس المال، ذلك الصراع الذي سيطر على عقول الاشتراكيين الذين تخيلوا أن الشرور التي يصارعونها ستزول إذا عهد للدولة

(١) مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥): فيلسوف فرنسي اشتهر بنظريته في فصل السلطات.

بقوة رأس المال، فلما حدث هذا في روسيا بموافقة المنظمات العمالية، حرمت نقابات العمال من استقلالها، ووجد العمال أنفسهم مستعبدين على وجه أتم وأكمل من كل استعباد سابق. ولا يوجد حل وحيد لهذه المشكلة لا يدع ثغرة في صرح الحرية. والحل الوحيد الممكن الذي يستطيع محب الحرية أن يؤيده ينبغي أن يكون حلاً تتنافس فيه القوى، ولا تكون أي واحدة منها مطلقة وتجبر كل منها في الأزمات على مراعاة الرأي العام. وهذا يعني في الواقع العملي أن نقابات العمال ينبغي أن تحافظ على استقلالها عن السلطة التنفيذية. نعم إن الحرية التي يتمتع بها شخص مضطر للانتماء إلى نقابة ما حتى يحصل على وظيفة أو عمل، هي حرية منقوصة غير كافية، ولكن يبدو أنها أحسن ما يمكن أن تسمح به ظروف الصناعة الحديثة.

والمجال الذي يواجه نصير الحرية بمصاعب من نوع خاص وغريب هو مجال التعليم. ولم يحدث أن فكر إنسان أن الأطفال يحق لهم أن يختاروا أن يتعلموا أو ألا يتعلموا، ولا يعتقد إنسان في الوقت الحاضر أن لآبائهم أنفسهم هذا الحق، وكان مل يعتقد أن من واجب الدولة أن تصر على أن تقوم هي بالتعليم، وإن لم يبين بوضوح كيف يكون، ومحاولتي الآن أن أتدبر ما قد كان يقوله لو أنه كان يكتب في عصرنا.

لنبداً بالتساؤل عن المبدأ. ما الذي يتمنى عاشق الحرية أن تقوم به المدارس؟ أظن أن الإجابة المثالية عن هذا السؤال، وإن كانت لها صبغة طوبية، هو أن يؤهل التلاميذ بقدر الإمكان بالقدرة على الحكم المعقول على المسائل المتنازع عليها التي يحتمل أن يضطروا لمراعاتها في سلوكها، وهذا يقتضي من ناحية تدريباً للملكة القضائية في التفكير، ويقتضي من ناحية أخرى تهيئة المصادر غير المتحيزة للمعرفة والمعلومات، وهذه هي الطريقة التي يعد بها الطفل لحرية الاختيار الحقيقية حين يبلغ الرشد، فما في طوقنا أن نعطي الطفل حريته، ولكن في الإمكان أن نعطيه استعداداً للحرية، وهذا ما ينبغي أن يقوم به التعليم.

ولكن هذه النظرية ليست هي النظرية السائدة في معظم أنحاء العالم، لأن النظرية التي سادت العالم هي نظرية الجزويت التي بلغ بها فخته Fichte^(١) حد الكمال. لقد كان رأي فخته أن هدف التعليم ينبغي أن يكون محو حرية الإرادة؛ إذ لماذا نرغب في حرية تتيح لنا اختيار الخطأ دون الصواب؟ إن فخته يعلم ما هو الصواب ويرغب في نظام مدرسي يضع الأطفال حينما يكبرون تحت إجبار باطني لاختيار ما يراه فخته صواباً. وقد أخذ بهذه النظرية في جملتها كل من الشيوعيين والكاثوليك، وأخذت بها إلى حد ما مدارس الدولة في كثير من البلاد، وهي نظرية تهدف إلى إنتاج عبيد عقليين سمعوا رأي جانب واحد في كل المسائل الملهية القائمة، وألقى في روعهم الفرع من رأي الجانب الآخر، ولم يختلفوا عن فخته إلا اختلافاً يسيراً، فقد تبنا رأيه كاملاً إلا في الآراء التي تختلف بين دولة ودولة وبين مذهب ومذهب، فإن ما كان يتمنى فخته تعليمه أساساً هو امتياز الأمة الألمانية على سائر الأمم، ولكن معظم تلاميذه اختلفوا معه في هذه النقطة الصغيرة، ونتج عن ذلك أن تعليم الدولة في البلاد الآخذة بمذهبه، ما دام ناجحاً، ينتج قطعاً من المتعصبين ذوي الجهالة، المستعدين لأن يشتبكوا في الحرب أو يقوموا بأعمال الاضطهاد عند صدور الأمر وحسب مقتضى الأحوال. ذلك ما يبلغ إليه هذا الشر من شأو، وليكون العالم (على الأقل في رأيي) عالمًا أسعد لو أن تعليم الدولة لم يقدر له وجود.

وهناك مبدأ عام يساعدني في تحديد أسئلة كثيرة حول المجال المناسب للحرية. إن الأشياء التي تحقق السعادة الفردية على العموم تنقسم إلى نوعين: نوع تملكه ممكن. ونوع تملكه غير ممكن، فإن الطعام الذي يأكله شخص لا يمكن أن يأكله شخص آخر، ولكن متعة شخص بقصيدة لا تعوق غيره أن يتمتع بها أيضاً. ونوع الطيبات التي يمكن فيها التملك الفردي على الجملة مادي، بينما النوع الآخر من

(١) فخته (١٧٦٢ - ١٨١٤): فيلسوف ألماني من أبرز تلاميذ عمانوئيل كانت وشارحي فلسفته.

الطبيات معنوي، فإن كان المتاح من الطبيات المادية ليس بغير حدود فينبغي أن توزع بالعدل، فلا يستحوذ شخص على أكثر من حاجته إن كان هذا مؤدياً إلى ألا يحصل آخر على كفايه، وهذا المبدأ في التوزيع لا يمكن أن ينتج عن الحرية المطلقة من كل الحدود، كتلك التي تؤدي إلى نظرية هوبز^(١) في حرب الجميع للجميع وتنتهي بانتصار الأقوى. ولكن الطبيات المعنوية كالمعرفة والاستمتاع بالجمال والصدقة والحب لا تنتزع من أحد ليغني بها سواه. وإذن فلا معنى لتحديد الحرية في هذا النطاق. إن الذين يحرمون أنواعاً معينة من المعرفة أو الذين يحرمون أنواعاً معينة من الشعر والموسيقى كأفلاطون وستالين، إنما يسمحون للحكومة أن تتدخل في ميادين لا شأن لها بها. ولست أبغي أن أتشدّد في تأكيد أهمية هذا المبدأ لأن كثيراً من الحالات يصعب فيها الفصل بين الطبيات المادية والمعنوية، من أوضاعها طباعة الكتب لأن الكتاب مادي كفالزوج البرقوق، ولكن الخير الذي تلمسه فيه عقلي معنوي، ولا يسهل وضع مبدأ سليم تستطيع أن تحكم بمقتضاه حتى أحكم السلطات، أي الكتب خالق بالنشر، ولا أعتقد أن من الممكن تحسين التنوع الحالي للناسرين، وحيثما وجدت سلطة، دينية أو دنيوية، يجب الحصول على إذنهما قبل طبع الكتاب، تكون النتيجة كارثة. ويصدق هذا أيضاً على الفنون؛ فما من إنسان، حتى الشيوعيون، بمستطيع أن يدعي الآن أن الموسيقى الروسية قد تحسنت بتدخل ستالين.

لقد استحق مل عظمتها التي تمتع بها في زمنه، لا بعقله ولكن بفضائله العقلية، فلم يكن فيلسوفاً كبيراً كديكارت وهيوم^(٢)، وكان في مجال الفلسفة يستمد أفكاره من هيوم وبنتم ووالده، ولكنه خفف حدة الراديكاليين الفلاسفة بشيء من الحركة

(١) توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) صاحب فلسفة العقد الاجتماعي والحكومة الدكتاتورية.

(٢) ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) الفيلسوف الإسكتلندي الذي أنكر مبدأ السببية.

الرومانتيكية التي استمدتها أولاً من كولردج^(١) وكارليل ثم من زوجته بعدهما. وكان يعقل ما يأخذه بعقله ويهضمه، ولم يكن لسخافات بعض الرومانتيكيين وعنفهم من أثر عليه. وكان كماله العقلي غير مشوب، فكان إذا دخل في نزاع ناقش بأدق المقاييس عدالة، وكان كل من وجه إليه قارعته يستحق قوارصه المهدبة التي وجهها إليه.

وعلى الرغم من قصوره في ميدان العقل الخالص، كان تأثيره ضخماً ومفيداً للغاية، فقد أدى بالنزعة العقلية وبالاشرائية إلى الاحترام، وإن كانت اشرائيته اشرائية ما قبل ماركس التي لا تعني زيادة سيطرة الدولة، ودعوته إلى مساواة النساء قد آمن بها العالم كله آخر الأمر، وأصبح كتابه «في الحرية»، من الأمهات، وعلى الرغم مما قد يلاحظ فيه من نقص، فإن قيمته ستظل تزداد كلما أوغل العالم في الاتجاه المضاد لتعاليمه. إن عالم اليوم يدهشه لو أنه رآه، ولكنه لا شك يكون عالماً أحسن مما هو الآن، لو أنه احترم مبادئه الأخلاقية أكثر من احترامه لها الآن.



(١) كولردج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) شاعر وفيلسوف إنجليزي كبير.

العقل وَالْهَادَة

بتأييد من الدين، قاد أفلاطون الإنسانية إلى قبول الفصل في العالم المعروف بين مقولتين: العقل والمادة. ولكن علم الطبيعة وعلم النفس كليهما بدأ يلقيان ظلاً من الشك على هذا الازدواج، فقد أخذت المادة تشف تدريجاً كقطة تشيشاير حتى لم يبق منها إلا الابتسامة الناجمة فيما يبدو من الضحك على من لا يزالون يظنون أنها موجودة. والعقل من ناحية أخرى، تحت تأثير جراحة المخ والفرص السعيدة التي هياتها الحرب لدراسة تأثير الرصاص المستكن في الأنسجة العصبية، قد أخذ يبدو شيئاً فشيئاً في صورة ناتج جانبي تافه ينتج من أنواع معينة من الظروف النفسية، يؤيد هذه النظرية الفرع العقلي من التأمل الباطني الذي يربك من يخشون أن ظهور خصوصيات حياتهم -مهما يكن نوعها- قد يجذب إليهم أنظار البوليس، وبهذا نجد أنفسنا في موقف متناقض غريب يذكرنا بالمبارزة بين هاملت ولايرتس، حيث أصبح دارسو علم الطبيعة مثاليين، وأصبح كثير من علماء النفس على حافة المادية. والحقيقة بالطبع أن العقل والمادة كليهما وهم، وهو ما يكتشفه علماء الطبيعة بدراسة المادة، ويكتشفه علماء النفس بدراسة العقل، ولكن كلا الفريقين يظل مقتنعاً أن موضوع الفريق الآخر لا بد أن يكون على شيء من الصمود، ومحاولتي في هذه المقالة هي أن أعيد وضع العلاقات بين العقل والمخ في حدود وكلمات لا تتضمن الإيحاء بوجود أيهما.

إن ما يمكن أن يسمى بالنظرة التقليدية المتعارف عليها لم يتغير إلا قليلاً منذ عهد الديكارتيين، فهناك المخ الذي يعمل حسب قوانين علم الطبيعة، وهناك العقل الذي يبدو أن له قوانينه الخاصة، ولكنه على الرغم من هذا يخضع لظروف كثيرة متعارضة لأحوال المخ الجسدية، وكان الديكارتيون يفترضون وجود تواز يتحدد بمقتضاه سلوك كل من العقل والمادة حسب القوانين الخاصة به وإن كان كل منهما متعلقاً بالآخر على نحو يجعل حدوث الحادثة في أحدهما يستتبع بالتأكيد حادثة متجاوبة معها في الآخر.

ولنضرب لهذه النظرة مثلاً بسيطاً:

افرض أن إنجليزيًا وفرنسيًا يقرآن «قانون الإيمان» بسرعة واحدة، أولهما بالإنجليزية والآخر بالفرنسية، فيمكنك إذن أن تستنتج مما يقوله أحدهما في لحظة بعينها ما يجري به لسان الآخر، ويتوازي التياران وإن لم يسبب أحدهما الآخر. ولكن هذه النظرية في جملتها لا تحظى الآن بكثير من المؤيدين؛ لأن إنكار التفاعل بين العقل والمخ يتناقض مع الحس المشترك، وما كان له في ماضيه من مؤيد إلا الحجج الميتافيزيقية، فكلنا يعلم أن المنبه المادي، كالضرب على الأنف، ربما يحدث أثرًا عقليًا - هو الألم هنا، وكلنا يعلم أن كل هذا التأثير العقلي المؤلم قد يتسبب في حركة جسمية، كحركة قبضة اليد مثلاً. وفي تعليل هذا توجد مدرستان ليستا فكريتين بقدر ما هما عمليتان تجريبيتان، إحداهما تتخذ مثالها حتمية مادية كاملة في عالم المادة، مصحوبة بقاموس ينص على كل حدث مادي وما يصاحبه دائمًا من حدث عقلي، والمدرسة الأخرى، التي يتبوأ فيها المحللون النفسيون أكبر مكان أثرًا، تبحث عن القوانين السيكلولوجية المحضة، ولا تهدف في البداية إلى تكوين هيكل سببي في علم الطبيعة. ويبدو الخلاف بينهما في تفسير الأحلام. فإذا أصابك كابوس، فستقول أولى المدرستين إنه ناتج عن أكلك أكثر مما تطيق من «سلطة الجنبري» بينما تقول

المدرسة الأخرى إنه ناتج من أنك دون وعي منك، تحب أمك، أبعد الله عني شر التحيز إلى أحد الجانبين في هذا النقاش المثير، فإن رأيي أن كلاً من التعليين صحيح حيث ينجح، والحق أنني أرى المسألة كلها بطريقة يتلاشى معها الاختلاف. ولكن قبل أن أشرح هذا الرأي أحتاج إلى كثير من التوضيح النظري.

يقول ديكارت، كما يعلم الجميع، «أنا أفكر، فأنا إذن موجود» ثم يستطرد مباشرة وكأنه لم يأت في ذلك بجديد، إلى القول «أنا كائن مفكر»، ولقد يصعب جداً أن نجمع كل هذا العدد الضخم من الأخطاء في هذا العدد النزر من الكلمات. ولنبدأ بقوله «أنا أفكر» لقد حشرت كلمة «أنا» هنا لتتمشى مع النحو، والنحو هو تجسيد الميتافيزيقا التي آمن بها أجدادنا الهندو أوروبيون وهم يتلعثمون حول نيران معسكراتهم، وإذن فينبغي أن نستأصل كلمة «أنا» تاركين كلمة «أفكر» بغير فاعل ما دام الفاعل تجسيدا للاعتقاد في الجوهر الذي يجب أن نغلق دونه أبواب أفكارنا. أما كلمات «إذن فأنا موجود» فإنها لا تكفي بإعادة الخطأ الميتافيزيقي المتمثل في كلمة «أنا»، بل تزيد عليه بارتكاب خطيئة لاقت أعنف التشهير في كل كتابات كارناب^(١)، Carnap، هي الخلط بين كلمة في علامات التنصيص وكلمة بغير علامات التنصيص، فإني حينما أقول «أنا موجود» أو «سقراط^(٢) موجود» أو أي قضية مشابهة، فإني في الحقيقة أقول شيئاً ما عن كلمة «أنا» أو كلمة «سقراط» -تقريباً في كل حالة تكون فيها هذه الكلمة اسم علم، لأن من الواضح أنك إن فكرت في كل الأشياء الموجودة في العالم، لوجدت أنها لا يمكن أن تنقسم إلى طائفتين: طائفة «الموجود» وطائفة «غير الموجود» فالواقع أن صفة عدم الوجود صفة نادرة، وكل امرئ يعرف قصة الفيلسوفين الألمانين المتشائمين إذ صاح أحدهما قائلاً:

(١) رودلف كارناب (١٨٩١ - ١٩٧٠): أحد أعمدة المنطق الوضعي.

(٢) سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م): فيلسوف أثينا الكبير وشهيد الفلسفة.

«ما كان أسعدنا لو أننا لم نوجد قط».

فأجابه صاحبه وهو يتنهد بقوله:

«نعم، ولكن ما أندر من يحظون بهذا الحظ السعيد».

فالحقيقة أنك لا يمكن أن تقول شيئاً ذا دلالة حين تقول عن شيء إنه موجود، وكل ما تستطيعه من الدلالة هو أن الكلمة التي تدل عليه تدل على شيء، وأن هذا لا يصدق على كلمة مثل «هاملت» لأن كل قضية عن «هاملت» في المسرحية تنطوي على قضية زائدة هي «هاملت اسم علم»، وهذا هو السبب في أنك لا تدخل المسرحية في التاريخ الدانمركي، وعلى ذلك فإن ديكارت حينما يقول «أنا موجود» فلا بد أنه يعني أن يقول «أنا اسم علم» - قضية لا شك أنها مشوقة جداً، ولكن ليس لها كل هذه النتائج الميتافيزيقية التي أراد ديكارت أن يستنتجها منها. على أن هذه ليست الأخطاء التي أبتغي تأكيدها في فلسفة ديكارت، لأن ما أريد تأكيده هو الخطأ الناجم من قوله «أنا كائن مفكر»، فإن هذا مبني على فلسفة الجوهر التي تفترض أن العالم مكون من أشياء ثابتة إلى حد يقترب ويبعد، لها حالات متغيرة، وقد ابتدع هذه النظرة الميتافيزيقيون الأولون الذين اخترعوا اللغة والذين بداهم جداً الاختلاف بين عدوهم في المعركة وبينه بعد ذبحه، وإن كانوا مقتنعين إنه هو الذي خافوه أول الأمر ثم أكلوه. ومن مثل هذه الأصول يستمد الحس المشترك أفكاره. وإني ليؤسفني أن أقرر أن عدداً أكبر مما ينبغي من أساتذة الفلسفة يرون أن من واجبه أن يتملقوا هذا الحس المشترك وأن ينحنوا احتراماً، بغير قصد ولا عمد طبعاً، للتطيرات الهمجية لآكلي لحوم البشر.

فما الذي ينبغي أن نستبدله باعتقاد ديكارت أنه شيء يفكر؟ هناك بالتأكيد ديكارتان، التمييز بينهما هو الذي أوجد المشكلة التي أريد أن أبحثها، أولهما

«ديكارت» عند نفسه والآخر ديكارت عند أصدقائه، وأولهما هو الذي يعنينا وهو لا يوصف أحسن وصف بأنه وحدة مفردة ذات حالات متغيرة، لأن الوحدة المفردة لا أهمية لها بتاتاً، وحسبنا الحالات المتغيرة. فقد يبدو ديكارت عند نفسه سلسلة من الأحداث كل منها يمكن أن يُسمّى فكرة على أوسع معاني هذه الكلمة. وأما ديكارت كما كان عند الآخرين فسأهمله مؤقتاً. هذه السلسلة من «الفكرات» هي التي كونت «عقل» ديكارت، ولكن عقله لا يعد وحدة منفصلة إلا كما يعد سكان نيويورك وحدة منفصلة تعلو وتتسامى على السكان العديدين. وإذن فبدلاً من أن نقول: «ديكارت يفكر» كان الأولى أن نقول: «ديكارت سلسلة حلقاتها أفكار»، وبدلاً من قولنا: «إذن فديكارت موجود» كان ينبغي أن نقول: «وما دام ديكارت هو اسم العلم على هذه السلسلة إذن فديكارت اسم علم»، أما عن قولنا: «ديكارت كائن يفكر» فلا يجب أن نستبدل بها شيئاً قط؛ لأنها لا تقرر غير تركيب لغوي معتل.

آن الأوان إذن للبحث فيما نعينه من «الفكرات» حينما نقول إن ديكارت «سلسلة من الأفكار»، وربما كان الأصح عرفاً، أن نقول إن عقل ديكارت سلسلة من الأفكار ما دمنا نفترض أن جسمه شيء آخر، فعقله هو ما كان «ديكارت عند نفسه» لا عند أحد سواه، بينما جسمه مبذول للجميع يراه الآخرون كما يراه هو. كان ديكارت يستعمل كلمة «الفكرات» بمعنى أوسع نوعاً ما من استعمالها الحديث، وربما تجنبنا الخلط إذا استبدلنا بها «الظواهر العقلية». فقبل أن نصل إلى ما نسميه في العادة «تفكيراً» هناك وقائع أولية تدرج تحت عنوان «الإحساس» و«الإدراك الحسي». ولقد يقول الحس المشترك إن للإدراك الحسي موضوعاً على الدوام، وإن موضوع الإدراك الحسي على العموم ليس عقلياً، فلا يصح في الكلام المتداول أن يحسب الإحساس والإدراك الحسي من «الفكرات»، بل تشتمل الأفكار على وقائع كالتذكر والاعتقاد والرغبة. وأحب قبل تدبر الفكر بهذا المعنى الضيق أن أثبت بضع

كلمات عن الإحساس والإدراك الحسي.

كلاهما تصور مختلط نوعاً ما، ويمكن الشك في حدوثهما كلية حسب تعريفهما المؤلف، فلتجنب من البداية استعمال هذه الكلمات ولنحاول أن نصف ما يحدث بأقل ما يمكن من الفروض التي يعترىها الشك.

كثيراً ما يحدث أن عددًا من الناس في بيئة واحدة تكون لهم تجارب متشابهة في أوقات متقاربة، فقد يسمع عدد منهم قعقة الرعد ذاتها، أو يسمعون خطبة سياسية معينة، وربما رأوا هم أنفسهم البرق أو رأوا السياسي يضغط بإبهامه على المنضدة، فنشعر بعد التأمل أن في بيئة هؤلاء الناس حدثاً لا يطابق ما سُمع وما رُئي، فالسياسي واحد ولكن الواقعة العقلية منفصلة متعددة بتعدد من يسمعون ومن يرون. ويميز التحليل النفسي في هذه الواقعة العقلية بين عنصرين، أحدهما راجع إلى أجزاء تركيب الفرد التي يشترك فيها كل فرد مع سواه من أفراد نوعه، والآخر يمثل نتائج خبراته السابقة، فربما استنطقت جملة معينة من خطاب السياسي أحد سامعيه إلى القول:

«إنها قد أحلت الأوغاد محلهم المناسب» بينما تستنطق سامعاً آخر إلى القول المخالف لهذا كل المخالفة، إذ يقول:

«لم يحدث في حياتي أن سمعت مثل هذا التهجم الشيطاني».

ولا يقتصر الخلاف على هذا النوع غير المباشر من الاستجابة، بل كثيراً ما يسمع الناس بالفعل كلمات مختلفات نتيجة لتحيزهم أو ماضي تجاربهم. كنت ذات مرة أحضر جلسة مجلس اللوردات، إذ عنّ لكينز أن يؤنب اللورد بيفر بروك على بعض الإحصاءات التي قدمها الصحفي النبيل للمجلس، فكان ما قاله كينز هو:

«لم أسمع قط بإحصاءات هائلة (أو هازلة) مثل هذه»^(١).

وانقسم المجلس إلى طائفتين، طائفة تظنه قال «هائلة» والطائفة الأخرى تظنها «هازلة»، وقد مات كينز بعد ذلك مباشرة تقريبًا، تاركًا الأمر بغير قرار. ولا شك أن الخبرة الماضية هي التي تحدد أي الكلمتين هي التي وقعت في سمع كل سامع، فمن كان منهم قد اتصل بأمريكا كثيرًا فقد سمعها (هائلة)؛ ومن قضى منهم حياته محتميًا من أمريكا، سمعها (هازلة) ولكن للخبرة السابقة في جميع الأحوال شأنًا أوثق من هذا بكثير.

إنك إن رأيت شيئًا جامدًا، فجموده موحٍ بقابليته للمس، وإن كنت تألف البيانو دون المذياع أو الحاكي، فستخيل عند سماعك الموسيقى البيانية أصابع الموقع على المفاتيح (مرت بي هذه التجربة وإن لم يكن يتعرض لها الصغار الآن) وإذا شممت في الصباح رائحة لحم الخنزير فستنشأ عندك صورة مذاقية لا محالة. فالمفروض إذن أن كلمة (الإحساس) تنطبق على ذلك الجزء من الوقائع العقلية التي لا ترجع إلى الخبرة الفردية السابقة، بينما تنطبق كلمة (الإدراك الحسي) على الإحساس وما يصاحبه ويلصق به، مما جعله التاريخ الماضي للفرد لا فكاك منه، ومن الواضح أن عزل الجزء الذي يصح أن يُسمَّى (إحساسًا) عن التجربة الكلية من شأن نظرية سيكولوجية واسعة النطاق. ولكن الذي نعرفه بغير نظرية هو الواقعة الكلية التي يطلق عليها (الإدراك الحسي).

إلا أن كلمة (الإدراك الحسي)، كما تستعمل في العادة، تشحذ التساؤل. افرض مثلاً أنني أرى كرسياً، أو على الأصح أن ثمة واقعة توصف في العادة بهذا الوصف. المعروف أن الجملة تعني أن ثمة (أنا) و ثمة (كرسيًا)، وأن الإدراك الحسي علاقة

(١) الكلمتان في الأصل هما: phony بمعنى «مصلصلة» و funny بمعنى «هازلة».

بين الاثنين، وقد انتهينا من بحث (أنا)، والكرسي ينتمي لعالم المادة الذي أحاول أن أتجاهله الآن مؤقتًا، فلا أزيد في هذه اللحظة عن أن أقول: إن الحس المشترك يفترض أن الكرسي الذي أدركه إدراكًا حسيًا سيظل موجودًا حين أتوقف عن إدراكه بإغلاق عيني مثلاً. وعلم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء فيما بينهما يؤكدان لي أن ما هو قائم هناك مستقلاً عن إبصاري شيء لا يشبه مطلقاً ما تصورته، بل هو رقصة جنونية ترقصها بلايين الكهيربات تحت تأثير بلايين التحولات الكمية، وعلاقتي بهذا الشيء غير مباشرة ولا تتأتى معرفتها إلا بالاستنتاج، بل ليست هي شيئاً أحسه مباشرة كلما حدثت الواقعة التي أدعوها (رؤية كرسي). والواقع أن كل ما يحدث عندما أكتسب الخبرة التي أدعوها (رؤية كرسي) إنما ينتمي لعالمي العقلي، فإن كان هناك كرسي خارج عالمي العقلي، كما أعتقد اعتقاداً ثابتاً، فإنه شيء ليس موضوعاً مباشراً لخبرتي، إنما يتوصل إليه بعد استنتاج طويل. هذه النتيجة لها توابع غريبة، فهي توجب أن نميز بين العالم المادي لعلم الطبيعة والعالم المادي المتمثل في خبرتنا اليومية. فأما العالم المادي لعلم الطبيعة والعالم المادي المتمثل في خبرتنا اليومية. فأما العالم المادي لعلم الطبيعة فهو موجود مستقل عن حياتي العقلية بفرض صحة علم الطبيعة، وهو صامد وقائم بنفسه من وجهة النظر الميتافيزيقية ويفترض على الدوام أن ثمة عالماً كهذا. أما العالم المادي في خبرتنا اليومية فهو على العكس جزء من حياتي العقلية، ويختلف عن العالم المادي لعلم الطبيعة في أنه غير صامد ولا قيام له أكثر من قيام العالم الذي أراه في الأحلام، وهو من ناحية أخرى ليس عرضة للشك فيه على غير ما عليه العالم المادي لعلم الطبيعة، لأن خبرة رؤية الكرسي ليست بالخبرة التي أستطيع أن أستبعداها بالتعليل، فقد حدثت لي هذه الخبرة بكل تأكيد حتى ولو كنت أحلم. أما كرسي علم الطبيعة فإنه وإن كان صامداً بالتأكيد، إلا أنه ربما كان غير موجود؛ إذ يكون غير موجود إن كنت أحلم، وربما لم يكن موجوداً حتى وأنا متيقظ إذ كانت هناك مهاو للخطأ في بعض أنواع الاستنتاج أنا معرض لها

وإن لم يكن عليها دليل. وباختصار، ربما كان العالم المادي لعلم الطبيعة، كما قد يتراءى للمستمر ميكوبر أن يقول، صامدًا، ولكنه غير معصوم من الشك فيه، بينما العالم المادي في الخبرة اليومية غير قابل للشك ولكنه ليس صامدًا، وفي هذا أعني بكلمة «صامد» معنى «الوجود مستقلاً عن حياتي العقلية».

ولنسأل أنفسنا سؤالاً أولياً جداً: ما الفرق بين ما يحدث للكائنات الحساسة وما يحدث للمادة غير الحية؟ من الواضح أن جميع أنواع الحوادث تقع للمادة الجماد، فهي تتحرك وتتغير مختلف التغيرات ولكنها لا تقع لها «خبرة» بهذه الوقائع. بينما نحن «نختبر» ما يحدث لنا. وقد عالج معظم الفلاسفة «الخبرة» على أنها شيء لا يمكن تحديده وإن كان معناه واضحاً، ولكنني أظن أن هذا خطأ، فليس معناها في اعتقادي واضحاً، ولا هو غير قابل للتحديد؛ لأن ما يميز الخبرة هو تأثير الوقائع الماضية على الاستجابات الحاضرة، فإنك إن وضعت قطعة من العملة في آلة أوتوماتيكية، فإنها تستجيب لها بالطريقة نفسها التي استجابت بها في المرات السابقة، ولا تتعلم أن وضع العملة يعني الرغبة في الحصول على تذكرة أو على أي شيء آخر، ولا تستجيب استجابتها بأسرع مما كانت تفعل من قبل. وعلى العكس من هذا يتعلم الإنسان الجالس إلى شبك التذاكر من خبرته أن يستجيب استجابة أسرع لمنبه أقل مباشرة، وهذا ما يدعو إلى وصفه بالذكاء وهذا هو الأصل في التذكر. فقد ترى شخصاً معيناً يلقي بملاحظة معينة، ثم تراه مرة ثانية فتتذكر ملاحظته، وهذا في جوهره مشابه لما يحدث حينما ترى شيئاً يبدو صلباً فتتوقع نوعاً معيناً من الإحساس اللمسي إذا لمستته، وهذا هو بعينه ما يميز الخبرة من مجرد الحدوث، فليس للآلة الأوتوماتيكية خبرة، ولكن الإنسان في شبك التذاكر ذو خبرة، ومعنى هذا أن منبهاً معيناً يحدث باطراد عين الاستجابة عند الآلة، ولكنه يحدث استجابات متفاوتة عند الإنسان، فربما قصصتك فكاهاة أو نادرة فأجابك سامعك قائلاً:

«لا بد أنك سمعت كم ضحكت عند سماعي قصتك أول مرة...».

أما لو ركبت آلة أوتوماتيكية تضحك لنكتة معينة، ففي إمكانك أن تطمئن إلى حدوث ضحكها كلما أسمعته إياها مهما تكرر سماعها لها من قبل، وربما استرحت إلى هذه الفكرة إذا كان يراودك أن تأخذ بفلسفة مادية محضة.

واعتقد أن العدالة تقتضي أن نقول إن أخص خصائص العقل هي التذكر، على أوسع معاني الكلمة، بحيث تشمل كل تأثير للخبرة السابقة على الاستجابة الحاضرة، فالذاكرة تشمل تلك المعرفة التي يشيع عليها اسم «معرفة الإدراك»؛ إذ إنك حينما ترى شيئاً ما مجرد رؤية، لا يكاد هذا يعد معرفة ولكنه يصبح معرفة حينما تحدث نفسك أنك تراه أو أنه موجود. وهذا تأمل في مجرد رؤية الشيء، وهو معرفة، ولأنه ممكن الحدوث، تعد الرؤية خبرة ولا تعد مجرد واقعة كما يقع الحجر. ويتجسم تأثير الخبرة السابقة في مبدأ الفعل المنعكس الشرطي الذي يقول إنه «في الظروف المناسبة، إذا كان أ يحدث أصلاً استجابة معينة، وأن أ يتكرر وقوعه في صحبة ب فإن ب وحدها ستحدث آخر الأمر الاستجابة التي كانت أ تحدثها أصلاً». فمثلاً إذا رغبت في تعليم الدببة الرقص، فضعها على «تخت» ساخن بحيث لا يسمح لها بأن تبقى عليه إحدى رجلها أكثر من هنيهة، واعزف في الوقت نفسه نشيد «احكمي يا بريطانيا»، وستجد بعد فترة من الزمن أن «احكمي يا بريطانيا» وحدها سترقص الدببة. وعلى هذا المبدأ قامت حياتنا العقلية حتى في أعلى ذراها.

والتمييز بين ما هو حي وما هو ميت، شأن كل تمييز سواه، ليس مطلقاً، فهناك من الميكروبات ما لم يستقر بشأنها رأي المتخصصين، أيعدونها حية أم ميتة. والفعل المنعكس الشرطي، وإن كان من خصائص الأحياء، إلا أن له في غير نطاق الأحياء أمثلة، فإنك إن فردت لفة من الورق، فإنها ستعود للالتفاف مرة ثانية بأسرع ما تستطيع. غير أننا على الرغم من هذه الحالات نستطيع أن نعتبر الفعل المنعكس

الشرطي من خصائص الحياة، خصوصًا في صوره العليا، ونعتبره فوق هذا من خصائص الذكاء البشري. وهنا تصل العلاقة بين العقل والمادة إلى النقطة الحازبة، فإن كان للمخ أي خاصية تقابل الذاكرة، فلا بد أن يتأثر بطريقة ما يحدث له بكيفية توحى بالتكرار عند وقوع المنبه المناسب، وهذا أيضًا يمكن التمثيل له في درجة أقل من هذه بسلوك المادة غير العضوية، فإن مجرى الماء الذي يظل جافًا معظم الوقت، يصير بالتدريج خندقًا يتأني له أن يحمل مياه القناة حين تفيض، والأمطار التالية تتبع المجرى ذاته الذي يذكر بالفيضانات السابقة، وإذن فتستطيع إن شئت أن تقول إن مجرى النهر «يتذكر» المناسبات السابقة حين اختبر الجداول الهادئة، ولكن هذا يعد جموحًا من الخيال، ولربما عدده أنت كذلك لأنك ترى أن الأنهار ومجري النهار لا تفكر، ولكن إذا كان التفكير هو إدخال تعديلات معينة على السلوك نتيجة للوقائع السابقة، فعلينا إذن أن نقول إن مجرى النهر يفكر، وإن كان تفكيره بدائيًا على نحو ما، فلا يمكن تعليمه جدول الضرب مهما يكن الجو ممطرًا.

عند هذا وأخشى أن تثور وأن تميل إلى القول: «ولكن يا سيدي العزيز كيف يمكنك أن تكون على هذا القدر من الغلظة؟ لا بد أنك تعلم أن الأفكار والملذات والآلام لا يمكن أن يقذف بها هنا وهناك ككرات «البلياردو» بينما يمكن فعل هذا بالمادة، والمادة تشغل فراغًا، ولا يمكن اختراقها، وهي صلبة (إذا لم تكن لينة)، أما الأفكار فليست كذلك، فما يمكنك أن تلعب البلياردو بأفكارك، ودفعك فكرة من رأسك عمل يخالف دفع البوليس إياك كل المخالفة» وستستطرد لا محالة قائلاً: «وأنت طبعًا فيلسوف تعلقو على مشاعر الآدميين، أما سائرنا فإننا نجرب الملذات والآلام، بينما لا تجربها الأحجار والأخشاب، وبناء على كل هذا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن تكون هكذا غبيًا حتى تحيل الفرق بين العقل والمادة سرًّا مغلقًا».

وجوابي عن هذا هو أنني أعلم عن المادة أقل مما تعلم أنت بكثير، فكل ما أعلمه عنها هو ما يمكنني استنتاجه بمساعدة بعض المسلمات المجردة عن الصفات المنطقية المحضة لتحيزها الزماني المكاني، وهذه لا تداني لأول وهلة على أي شيء كائنًا ما كان عن خصائصها الأخرى؛ وفوق هذا، فإن الدواعي التي تمنعني من الاعتراف بتصور الذات في حالة العقل هي بعينها الدواعي التي تمنعني من الاعتراف بتصور الجوهر في حالة المادة. لقد أنزلنا عقل ديكارت إلى سلسلة من الوقائع، وهذا ما يجب أن نفعله بجسمه أيضًا، فإن قطعة المادة سلسلة وقائع تربط فيما بينها قوانين طبيعية معينة، وهي قوانين تقريبية وغير دقيقة، والشخصية التي تحتفظ بها الجزيئات المادية في علم الطبيعة العتيق تختفي في علم الطبيعة الكمية الحديث. هبني أقول:

«إن هذا هو كرسي الأمس بعينه».

لا أظنك تتوقع أن أقول لك بالتحديد ما أعني لأن هذا يقتضيني مجلدات، ولكن ما أعنيه قد يعرب عنه تقريبًا هكذا: إن علم الطبيعة الكلاسيكي - وهو الآن مذهب مهجور - كان يقوم على افتراض الجزيئات التي تستمر على الزمن، وما دام هذا التصور قائمًا، فقد كان من الممكن أن يكون معنى قولي «إن هذا هو كرسي الأمس بعينه» هو أنه «يتكون من الجزيئات ذاتها» ولكن حتى قبل ظهور علم الطبيعة الكمية، كانت الجزيئات فكرة بالية؛ لأنها كانت تؤدي إلى فكرة الجوهر. إن هذا لم يكن يهم ما دام من الممكن تحديد الجزيء بأنه سلسلة معينة من الوقائع المادية ترتبط فيما بينها بقانون القصور الذاتي وما جرى من المبادئ مجراه، وحتى في أيام ذرة رذرفورد^(١) - بوهر^(٢) ظل من الممكن التمسك بهذه النظرة لأن ذرة رذرفورد -

(١) البارون ارنست رذرفورد (١٨٧١ - ١٩٣٧): من أكبر علماء الطبيعة النيوزيلنديين.

(٢) نيلز بوهر (١٨٨٥ - ١٩٦٢): عالم من أكبر علماء الطبيعة الدانمركيين.

بوهر تتكون من عدد معين من الكهيرات والبروتونات، وكانت الكهيرات تتصرف كالبراغيث تزحف حيناً ثم تقفز، والكهرب لا يزال يمكن التعرف عليه بعد قفزاته على أنه الكهرب نفسه الذي كان يزحف من قبل. ولكن الذرة، للأسف، قد شقيت بتحطيم الذرة، وكل ما أصبحنا نعلمه عنها حتى على فرض أكثر الفروض تفاؤلاً هو أنها كم من الطاقة تخضع لمختلف التقلبات المفاجئة، ولا سبيل إلى دليل إلا على هذه التقلبات؛ إذ لا إشعاع للطاقة دون حدوث التقلبات، ولا سبيل لحواسنا أن تتأثر بالطاقة إلا حين إشعاعها، ولا سبيل إلى معرفة ما يحدث إلا حين تتأثر حواسنا. ولقد كنا في الأيام السعيدة التي شهدت طفولة بوهر نفترض أننا نعلم ما يجري في لحظات السكون، فقد كانت هناك كهيرات تدور وتدور حول النواة كما تدور الكواكب حول الشمس، أما الآن فقد وجب علينا أن نعترف بالجهل التام المطلق الذي لا استئصال له أبد الدهر بما تفعله الذرة في لحظاتها الساكنة. لكنّها مسكونة بطائفة من المراسلين الصحفيين الذين لا يعتقدون أن الخبر يستحق أن يذكر إلا أن يكون ثورة أو انقلاباً، فيظل ما يحدث في غير زمن الثورات مغلقاً في الأستار والأسرار، وعلى هذا الأساس اختفت تماماً فكرة «النفسية»^(١). فإن أردت أن تشرح ما تعني في علم الطبيعة بقولك: «إن هذا هو كرسي الأمس نفسه» فعليك أن ترجع إلى علم الطبيعة السلفي، وعليك أن تقول: حينما لا تفرط الحرارة في الارتفاع، وحينما تكون الظروف الكيميائية عادية، تكون النتائج التي تحصل عليها الطبيعة السلفية صائبة في غير تدقيق، وحينما أقول «إن هذا هو كرسي الأمس نفسه» يكون ما أعنيه أن الطبيعة العتيقة كانت تقول إنه الكرسي نفسه، ولكنني على وعي تام أن هذا لا يزيد على أن يكون طريقة مريحة وغير دقيقة للكلام، وإن الواقع أن أصغر قطعة من الكرسي تفقد شخصيتها في ما يقرب من جزء من مائة ألف جزء من الثانية، والقول إنه كرسي

(١) مصدر صناعي من كلمة «نفس» التأكيديّة Sameness.

الأمس نفسه يشبه القول إن الإنجليز هم الأمة التي كانت على عهد الملكة إليزابث الأولى، أو على الأصح إنها تشبه ما قد كان يكون لو أن ملايين الأجيال قد انقطعت منذ موت الملكة «بس»^(١) الطيبة.

إننا لم نتعود بعد الكلام عن المخ الإنساني بدقة لغة علم الطبيعة الكمية، بل الحقيقة أن علمنا به أقل كثيرًا من أن يضطرنا إلى هذه اللغة. وأهم ما يتعلق من أسرار هذه النظرية بمشكلتنا هو ما تبديه لنا من قلة ما نعرفه عن المادة ولا سيما مخ الإنسان، فلا يزال بعض علماء وظائف الأعضاء يتخيلون أنهم قادرون على رؤية الأنسجة المخية خلال المجهر، وهذا ولا شك وهم متفائل، فإنك حين تنظر إلى كرسي لا ترى التحولات الكمية، بل تحصل على خبرة ذات اتصال عليّ طويل محكم بالكرسي المادي، اتصال ينتقل خلال الموجات الضوئية وحزم الأشعة ومخروط الضوء والعصب البصري إلى المخ، وكل هذه المراحل ضرورية إذا كان لك أن تحصل على الخبرة البصرية الي تُسمّى «رؤية الكرسي» وربما حجبت الموجات الضوئية بإغلاق عينيك، وربما ينقسم العصب البصري، وربما يتهتك الجزء المختص من المخ برصاصة، وإذا حدث لك أي من هذه الأشياء فلن ترى الكرسي، وما يصدق هنا يصدق على المخ الذي يعتقد عالم وظائف الأعضاء أنه يراه، فإن لديه خبرة لها اتصال على بعيد بالمخ الذي يظن أنه يراه، ولكن ما يستطيع أن يعلمه بصدد هذا المخ لا يعدو عناصر تكوينه التي ستنطبع في حسه البصري، أما عن الخصائص الأخرى غير خصائص التركيب فلا سبيل إلى معرفتها، ولا حق له في القول أن محتويات المخ تختلف عن محتويات العقل الذي يرتبط به لأنه إذ كان المخ حيًّا فستوفر لديه شواهد من الاستشهاد والتمثيل أن ثمة عقلًا يصاحبه، أما إن كان المخ ميتًا فلا شواهد على هذا ولا ذاك.

(١) اسم التذليل للملكة إليزابث.

وأحب أن أقترح نظرية، أعتبرها كفرض إجرائي بسيط وموحد وإن لم يكن عليه دليل، أوثرها على نظرية التجاوب الديكارتية. فقد اتفقنا على أن العقل والمادة كليهما سلاسل أحداث، واتفقنا كذلك أننا لا نعلم شيئاً عن الأحداث التي تكون المادة إلا في كيانها الزماني المكاني، والذي أقترحه هو أن الأحداث التي تكون المخ الحي هي نفسها التي تكون العقل المناظر له، وكل الدواعي التي قد تنشأ لديك بحكم الطبيعة لرفض هذه النظرة إنما تعتمد على الخلط بين الأشياء المادية وبين الأشياء التي تختبرها بالبصر واللمس، هذه الخبرات جزء من عقلك ومن الممكن أن أرى الآن، إذا سمحت لنفسني أن أتكلم بلغة الحس المشترك، أثاث حجرتي والأشجار المتمايلة مع الرياح والمنازل والسحب والسماء الزرقاء والشمس، وكلها أشياء يتوهم الحس المشترك إنها خارجة عني، وأؤمن أنا إنها مرتبطة ارتباطاً عليّاً بالأشياء الطبيعية الخارجة عني، ولكنني متى تبينت أن الأشياء الطبيعية لا بد أن تختلف عن خبرتي المباشرة اختلافاً مهماً، ومتى حسبت حساب التسلسل العلي الذي يستطرد من الشيء الطبيعي إلى مخي قبل حدوث الإحساسات، تبين لي من وجهة النظر العلية الطبيعية أن موضوعات الخبرة الحسية المباشرة في مخي لا في العالم الخارجي، وهكذا يصح رأي «كانط» حين يوجد بين السماء ذات النجوم وبين القانون الأخلاقي ما دام كل منهما قطعة من مخه.

فإذا صح قلبي فالخلاف بين العقل والمخ لا يكون في المادة الخام التي صُنعا منها، ولكن يكون في طريقة تجميعهما، فالعقل وقطعة المادة يتشابهان في أنهما مجموعتان أحداث أو على الأصح سلاسل مجموعات أحداث، فالأحداث التي تتجمع لتكون عقلاً ما حسب نظريتي هي بعينها الأحداث التي تتجمع لتكون مخه، أو ربما كان الأصح أن أقول إنها بعض الأحداث التي تكون المخ، والنقطة المهمة هي أن الاختلاف بين المخ والعقل ليس اختلافاً في الكيف ولكنه اختلاف في التصنيف

يشبه الاختلاف بين تصنيف الناس تصنيفاً جغرافياً وتصنيفهم حسب الحروف الأبجدية. وكلا التصنيفين معمول به في دليل البريد، فالناس في هذا التصنيف هم الناس في ذلك ولكن السياق يختلف، وكذلك السياق البصري هو في علم الطبيعة مادي وخارج المخ، وهو يرجع بك في الطريق الراجع إلى العين فالموجة الضوئية فالتحول الكمي في شيء بعيد، بينما يختلف عنه تماماً السياق البصري لعلم النفس. افرض مثلاً أن الإحساس البصري يتعلق ببرقية تدل أنك قد أفلست، فينشأ عنها في عقلك عدد من الأحداث تتفق مع قوانين السببية السيكلوجية، وقد ينقضي وقت طويل قبل حدوث نتيجة مادية صرف كتقطيع شعرك أو صياحك «يا خرابي».

وإذا صحت هذه النظرية فلا مهرب من بعض أنواع الاتصال بين العقل والمخ، فلا بد مثلاً أن يحدث في المخ بعض التعديل المادي بما يقابل الذاكرة، ولا بد أن تتصل الحياة العقلية بالخصائص المادية للأنسجة المخية، والواقع أن القضايا المادية والنفسية سينظر إليها، لو أن لنا مزيداً من المعرفة، على إنها مجرد اختلاف في طريقة النص على مضمون واحد. وهكذا تنكمش المسألة القديمة في اعتماد العقل على المخ أو المخ على العقل حتى تصير مجرد راحة لغوية، فيريحنا أن نرى العقل معتمداً على المخ حيث يزيد علمنا بالمخ على علمنا بالعقل، ويريحنا أن نرى المخ معتمداً على العقل حيث يزيد علمنا بالعقل على علمنا بالمخ، وفي كل من الحالتين تظل الحقائق الجوهرية هي هي ويظل الاختلاف اختلافاً في درجة علمنا ولا زيادة. ولا أظن، إن صح ما تقدم، أن نطلق القول إطلاقاً بأنه لا وجود لعقل غير مجسد، فمثل هذا العقل اللا متجسد قد يوجد، إذا تجمعت أحداث بحسب قوانين السيكلوجيا، ولا يبدو أن ثمة سبباً تلقائياً قلياً (a Priori) يمنع حدوث العكس، وكل ما يمكننا أن نقوله هو إنه لا يوجد شاهد تجريبي عليه، ولا حق لنا في أن نزيد.

ولقد أظهرتني الخبرة الطويلة على أن النظرية التي حاولت بسطها هنا من نوع
يحتمل سوء الفهم، فتصير إذا أسيء فهمها مضحكة، ولهذا فسألخص أهم نقاطها
عساها تقل غموضاً مع الأسلوب الجديد.

فأولاً: العالم مكون من أحداث لا من أشياء ذوات حالات تختلف، أو على
الأصح أن كل ما لنا الحق في وصف العالم به يمكن أن ينص عليه على افتراض أن
هناك أحداثاً لا أشياء. فالأشياء، بمعزل عن الأحداث، فرض لا ضرورة له، وهذا
ليس جديداً كل الجدة إذ قد قال به هرقلitus^(١)، وإن كانت نظرة هرقلitus قد
ضايقت أفلاطون فاعتبرت لهذا السبب منذ ذلك الحين نظرية غير لائقة، ولكن هذا
الاعتبار لا يصح أن يرعبنا في هذه الأيام الديمقراطية، فإذا قبلنا نظريته فسينحل
نوعان من الكيان المفترض: الأشخاص من جهة والأشياء المادية من جهة أخرى،
فالنحو يفترض أن «أنت» و«أنا» كيانان على درجة متفاوتة من الدوام لهما حالات
متغيرة ولكن الكيان الدائم فرض غير ضروري، وحسبنا الحالات المتغيرة لتكون
قد قلنا كل ما نعلمه في الموضوع، وهذا بالضبط ما نستطيع أن نقوله عن الماديات.
فإنك حينما تشتري رغيفاً من دكان ما تظن أنك قد اشتريت شيئاً «تستطيع أخذه
للمنزل»، ولكن الحقيقة أنك اشتريت سلسلة وقائع ترتبط حلقاتها حسب قوانين
سببية معينة.

وثانياً: إن موضوعات الحس كما نحسها مباشرة، أي هذا الذي نراه حين نرى
الكرسي والمناضد والشمس والقمر وما إلى ذلك، أجزاء من عقولنا، وأن ما نعتقد
أننا نراه ليس كل العالم المادي ولا بعضه وهذا أيضاً ليس جديداً؛ إذ قال به بركلي^(٢)
وأيده فيه هيوم، ولو أن الحجج التي عليه ليست حجج بركلي، فإني أرى أن لو نظر

(١) هرقلitus (٥٣٥ - ٤٧٥ ق. م): أحد الفلاسفة الطبيعيين اليونان القدماء.

(٢) بيشوب بركلي (١٦٨٥ - ١٧٥٣): فيلسوف إيرلندي يرى أن الوجود هو الإدراك.

عدد من الناس إلى شيء ما من وجهات مختلفة فإن انطباعهم البصري سيختلف حسب قوانين الرؤية وحسب كيفية سقوط الضوء، ولهذا فالانطباع منها هو ذلك الشيء «المحايد» الذي يظن كل منهم أنه يراه، وأرى أيضًا أن علم الطبيعة يقودنا إلى الإيمان بالتسلسل العلي الذي يظن كل منهم أنه يراه، وأرى أيضًا أن علم الطبيعة يقودنا إلى الإيمان بالتسلسل العلي الذي يبدأ من الأشياء ويصل إلى أعضائنا الحسية، وإنه لمن أغرب الغرائب أن تكون الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة العلية مطابقة للحلقة الأولى.

وثالثًا: ينبغي أن أعترف أنه قد لا يوجد شيء كعالم المادة متميز عن خبراتي، ولكنني يجب أن أبرز أن رفض الأدلة التي تثبت المادة تقتضي أيضًا رفض الأدلة التي تجعلني أؤمن بوجود ماضيّ العقلي، وأزيد على ذلك أنه ما من أحد يرفض مخلصًا هذه المعتقدات التي لا دليل عليها إلا هذه الأدلة، فإني أسلم أن ثمة أحداثًا لا أختبرها وإن كان بعض هذه الأحداث يمكن استخلاصه مما اختبرته فعلاً، والدلائل التي يمكنني أن أوردها على الأسباب الخارجية لخبراتي تختص بالتركيب وحده لا بالكيفية وذلك باستثناء ما يتعلق بالظواهر العقلية، ولا وجود للأدلة التي يمكن الأخذ بها إلا في علم الطبيعة النظري، فهي مجردة ورياضية ولا تشير أي إشارة إلى الخصائص الجوانية للماديات.

ورابعًا: إذا لقي ما سبق قوله القبول، فلا بد أن يكون ثمة نوعان للمكان أحدهما ما يعرف بالخبرة، وخصوصًا الخبرة البصرية، والآخر مكان علم الطبيعة الذي لا تتأني معرفه إلا استنتاجًا والذي يترابط بالقوانين العلية، وقد أدى عدم التمييز بين هذين النوعين للمكان إلى كثير من الخلط، وسأضرب مثلاً مرة ثانية بعالم وظائف الأعضاء الذي يجرب على مخ رجل آخر. هنا يفترض الحس المشترك أن هذا العالم يرى مخًا وأن ما يراه مادة، وما دام يراه شيئًا واضح الاختلاف عما يظنه المريض الذي

يفحصه فإن الناس يخلصون إلى أن العقل والمادة شيئان مختلفان كل اختلاف، فالمادة ما يراه النفساني، والعقل ما يظنه المريض. ولكن إذا صح ظني فإن كل هذه الأفكار كتلة مختلطة، لأن ما يراه العالم بوظائف الأعضاء، هو حادثة في عقله هو، إذا عينا بالرؤية شيئاً يقع في خبرته، وليس لها إلا اتصال عليّ معقد بالمخ الذي يتصور أنه يراه. وهذا ما يتضح لأول نظرة تلقيها على علم الطبيعة، ففي المخ الذي يعتقد أنه يراه تحدث تحولات كمية تشع موجات ضوئية تنتقل في المكان حتى تصطدم بعين العالم الفسيولوجي وهناك تتسبب في إحداث وقائع معقدة في الحدة والشبكية واضطراباً ينتقل في العصب البصري إلى المخ، وحينما يصل هذا الاهتزاز إلى المخ تقع للعالم الفسيولوجي الخبرة التي يدعوها رؤيته مخ الرجل الآخر، فإذا تدخل أي شيء في هذه السلسلة العلية، كأن يكون مخ الرجل الآخر في الظلام أو كأن يكون العالم قد أغلق عينيه أو كان أعمى أو استقرت رصاصة في المركز البصري من مخه فلن تقع له الخبرة التي يسميها رؤية مخ الرجل الآخر، بل ولا تقع له في الزمن نفسه الذي يظن أنه يرى فيه، لأنه إن كان اختلاف الزمن في رؤية الأشياء الأرضية تافهاً يمكن إهماله فإنه قد يكون في رؤية الأجسام السماوية كبيراً جداً قد يصل إلى ملايين السنين، وإذن فالعلاقة بين الخبرة البصرية وبين الشيء المادي التي يظن الحس المشترك إنها رؤية هي في الحقيقة علاقة سببية غير مباشرة، ولا داعي أبداً لافتراض الشبه الوثيق بينها وبين ما يتصور في الحس المشترك أنه موجود، وكل هذا يتصل اتصالاً وثيقاً بنوعي المكان اللذين تكلمت عنهما منذ لحظة. ولقد أفرغت الفلاسفة جميعاً بقولي إن أفكارهم في رؤوسهم، وراحوا يؤكدون لي في صوت واحد أن رؤوسهم ليس فيها أفكار قط ولكن الأدب يمنعني من قبول هذه القضية، وربما كان الأوفق أن أشرح ما أعنيه بالتحديد؛ إذ إن الفكرة مبتسرة، وما أعنيه بكل دقة هو ما يلي:

إن المكان المادي، على خلاف المكان الإحساسي، يقوم على أساس التجاور السببي، والمجاورات السببية للإدراكات الحسية تتصل بالمنبهات الطبيعية السابقة عليها مباشرة وبلاستجابات الطبيعة التالية لها مباشرة، وتحديد المكاني الدقيق في المكان الطبيعي لا ينتمي إلى الأحداث المفردة، بل إلى مجموعات الأحداث التي يعتبرها علم الطبيعة حالة موقوتة لقطعة من المادة لو أنه (علم الطبيعة) يستغرق في مثل هذه اللغة العتيقة. والفكرة حلقة من مجموعة أحداث ربما نحسب للأغراض العلمية الطبيعية منطقة من المخ، وإذن فالقول أن فكرة ما هي في المخ، هو في حقيقته اختصار للجملة التالية: «الفكرة حلقة من مجموعة أحداث متآنية^(١)» تكون في مجموعها منطقة في المخ» ولست بهذا أدعي أن الأفكار تتحيز في مكان سيكولوجي إلا في حالة الانطباعات الحسية (إذا صح أن تُسمّى هذه «أفكاراً»).

وخامساً: إن قطعة من المادة هي في حقيقتها مجموعة أحداث ترتبط بقوانين عليّة هي القوانين العلية الطبيعية، بينما العقل مجموعة أحداث ترتبط بقوانين عليّة هي القوانين العلية النفسية، وإذن فلا يصح وصف حادثة ما بأنها عقلية أو بأنها مادية لصفة في كيانها، بل توصف بهذا أو بذلك حسب سياقها العلي، فإنه من الممكن كل الإمكان للحادثة أن تتسق في كلا السياقين العليين، السياق الذي تختص به الطبيعة والسياق الذي تختص به السيكلوجيا، وفي هذه الحالة تكون الحادثة عقلية ومادية في وقت معاً، ولا صعوبة بعد اليوم في هذا أكثر من تصور إنسان ما خبازاً مرة وأباً مرة أخرى، وما دمنا لا نعلم شيئاً عن الصفة الكيانية للأحداث الطبيعية إلا حين تكون أحداثاً عقلية تقع لنا في خبرتنا مباشرة، فلن نستطيع أن نقول إن العالم المادي خارج رؤوسنا يختلف عن العالم العقلي أو لا يختلف. إن المشكلة المزعومة عن علاقة العقل والمادة إنما تنشأ من خطأ اعتبارهما «شيئين» بدلاً من اعتبارهما مجاميع

(١) متآنية أي تحدث معاً في آن واحد.

أحداث ولكن نظريتي التي أقترحها الآن تجعل المشكلة تتبخر وتتلاشى من أساسها.
وأهم ما يقال في صالح هذه النظرية التي أدعو إليها هو أنها تزيل غموضاً،
والغموض على الدوام يضايق، وينشأ عادة من نقص في التحليل الواضح. لقد ظلت
علاقة العقل بالمادة تحير الناس ردحاً طويلاً من الزمن، فإذا صح رأيي فيهما، فلا
حيرة في أمرهما بعد الآن.



عبادة الاستعمال الشائع

أشد المدارس الفلسفية في بريطانيا نفوذًا في الوقت الحاضر تتمسك برأي لغوي خاص لا أراني أستطيع مجاراتها فيه. ولست أبغي أن أشوه رأي هذه المدرسة، ولكنني أظن أن كل معارض لنظرية ما عرضة لأن يظن به محاولة تشويهها عند الآخذين بها. هذه النظرية - كما أفهمها - ترى أن لغة الحياة اليومية بكلماتها الدارجة على معانيها العادية تكفي الفلسفة التي ليس بها حاجة إلى مصطلحات أو إلى إخراج الكلمات الشائعة عن معناها العامي، وهذا ما أجدني عاجزًا كل العجز عن قبوله، وأعترض عليه:

(١) لأنه غير مخلص.

(٢) ولأنه يمكن من التماس العذر لمن لم يتعلموا إلا التعليم التقليدي في جهلهم بالرياضة والطبيعة والعصايات.

(٣) ولأنه يجري على لسان البعض في لهجة الاستقامة الأخلاقية البالغة، حتى لكأن معارضته خطيئة في حق الديموقراطية.

(٤) ولأنه يجعل الفلسفة تافهة.

(٥) ولأنه لا يدع مناصًا من استمرار الخلط في رؤوس الفلاسفة، ذلك الخلط الذي ورثوه عن الحس المشترك.

١ - عدم الإخلاص:

سأمثل لهذا بأقصوصة. أخذ رجال الشرطة أستاذ الفلسفة العقلية في نقالة حينما أصابه تشنج خطير نتيجة لنداء وصيفته له ذات صباح، فسمعت زميلاً مؤمناً «بالاستعمال الشائع» يسأل طبيب هذا الفيلسوف المسكين عما حدث له، فأجابه الطبيب أن الأستاذ قد أصابته نوبة مؤقتة من الاضطراب النفسي لم تلبث أن توارت متراخية بعد ساعة. ولما لم يكن لدى هذا المؤمن «بالاستعمال الشائع» أي اعتراض على لغة الطبيب، فقد أخذ يردد قوله لكل سائل، ولكن حدث أنني سمعت الحديث التالي بين الوصيفة ورجل الشرطة؛ إذ كنت أسكن غرفة على سلم بيت الأستاذ^(١).

الشرطي: هاي، عاوز كلمة معاك.

الوصيفة: تقصد إيه «بكلمة»؟ أنا معملتش حاجة.

الشرطي: ما هو ده السبب! كان لازم تعملي حاجة -أنت ما شفتيش أن الراجل المسكين كان «بعقله».

الوصيفة: شفت. ساعة بحالها كنا في «حالة مزمنة» لكن لما بيكونوا بعقلهم ما تقدرش تفهمهم حاجة.

في هذا الحوار البسيط استعملت كلمات: «كلمة» و«تقصد» و«بعقله» و«مزمّن» حسب الاستعمال الدارج. ولا يمكن استعمالها على هذه الصورة في صفحات «العقل» التي يكتبها من يدعون الإيمان بالاستعمال الشائع، فليس ما يؤمن به في الواقع هو الاستعمال العامي كما يتحدد بالملاحظة الشاملة والإحصاء والمتوسطات والانحرافات القاعدية وسائر هذا الجهاز، بل يؤمنون في استعمال أشخاص لهم ما

(١) الترجمة عامة لأن الأصل عامي مقصود أن يكون كذلك.

لهم هم من التعليم لا أكثر ولا أقل، لأن الأقل أمية ولأن الأكثر «حنشصة» وتصنع، وهذا ما يدفعوننا إلى أن نفهمه.

٢- تبرير الجهل:

كل سائق سيارة متعود على جهاز قياس السرعة وجهاز الإسراع، ولكن إذا لم تتوافر لديه معرفة بالرياضة، فلن يتحدد عنده معنى السرعة ومعنى الإسراع، وإذا حدث أن تحدد لديه معناهما، فسيعلم أن سرعته وإسراعه لا سبيل إلى معرفتهما في أي لحظة، وأنه إذا حكم عليه بالغرامة لتجاوزه حد السرعة، فلا بد أن الحكم قد أقيم على أدلة غير كافية إذا ذكر في الحثيات الوقت الذي يفترض أنه قد بدأ يسرع فيه. وفي هذا المجال أراني أتفق مع أنصار الاستعمال الشائع في أن كلمة «السرعة» إذا استعملت في الحياة اليومية، فلا بد أن تستعمل بمعناها اليومي لا بمعناها الرياضي، ولكن على أن نفهم بوضوح أن «السرعة» فكرة غامضة، وإن القضايا الثلاث الآتية في تصريح الفعل الشاذ كلها صادقة وهي:

- «كنت ساكناً» (السائق).

- «كنت تتحرك بسرعة ٢٠ ميلاً في الساعة» (صديق).

- «كان ينطلق بسرعة ٦٠ ميلاً في الساعة» (شرطي).

وإن الذي دفع الرياضيين إلى ترك الاستعمال العامي، هو ما يترتب على هذه الحالة من حيرة للمأمور.

٣- إن الذين يروجون للغة العامية في الفلسفة يتكلمون أحياناً بأسلوب يذكرنا بخرافة «الرجل العامي»، وربما اعترفوا بالحاجة إلى الألفاظ الطويلة في الكيمياء العضوية وأن الطبيعة الكمية قد تتطلب صيغاً يصعب نقلها إلى الإنجليزية العادية،

ولكن الفلسفة (في اعتقادهم) شيء آخر، فليس من مهامها فيما يرون، أن تقول شيئاً لا قبل للأُمي بمعرفته، بل مهمتها على العكس من ذلك أن تعلم الممتازين أنهم ليسوا ممتازين كما قد يتراءى لهم، وأن الممتازين حقاً هم الذين يمكنهم إظهار امتيازهم ومهارتهم في جعل الحس المشترك معقولاً.

لقد أصبح من العار المعيب في هذه الأيام أن يدَّعي الإنسان أي امتياز وعلو كعب إلا في الرياضة البدنية، والأفلام السينمائية والإثراء؛ غير أنني سأغامر بأن أقول إن الحس المشترك في القرون الماضية قد ارتكب أشياء نعتقد الآن أنها أخطاء، فقد كان من الأفكار الشائعة أن النصف الآخر (الجنوبي) من الكرة الأرضية غير مسكون، لأنه لو سكنه قوم لسقطوا من على الأرض، وإذا أمكنهم تفادي السقوط فسيصيبهم الدوار لوقوفهم على رؤوسهم، وكان من المضحك عندهم أن يقال إن الأرض تدور لأن كل امرئ يراها بنفسه ساكنة، فلما افترض لأول مرة أن الشمس تبلغ في العظمة حجم شبه جزيرة المورة هاج الحس المشترك وماج، ولكن كل هذا حدث منذ زمن بعيد، ولست أعلم بالتحديد في أي تاريخ أصبح الحس المشترك كامل الحكمة، ربما كان ذلك في سنة ١٧٧٦ أو ربما سنة ١٨٤٨، أو ربما مع إصدار قانون التعليم في سنة ١٨٧٠ أو، من يدري؟، ربما لم يحدث إلا حينما أخذ علماء وظائف الأعضاء من أمثال أدريان^(١) وشارنجتون^(٢) يتسربون إلى أفكار الفلاسفة المتعلقة بالإدراك الحسي.

(٤) الفلسفة كما تصورها المدرسة التي أناقشها تبدو لي تافهة غير مشوقة، وربما كان النقاش المتطاوّل في ما يعنيه سخفاء الناس من سخافاتهم شيئاً مسلياً، ولكنه لن يكون مهماً، هل يبدو البدر المكتمل في حجم نصف الجنيه أو في حجم طبق

(١) إدجار دجلاس أدريان (١٨٨٩ -): البارون أدريان الأول.

(٢) السير تشارلز سكوت شارنجتون (١٨٥٧ - ١٩٥٢).

الحساء؟ كلا الجوابين ممكن الإثبات بالتجربة، وإذن فلا بد أن في السؤال غموضاً، على الفيلسوف الحديث أن يجلوه بمنتهى العناية. ولكن لنأخذ مثلاً آخر أقل ظلماً من هذا، كمسألة الخلود. إن المسيحية الخالصة (الأورثوذكسية) تؤكد أننا نخلد بعد الموت، فما الذي تعنيه المسيحية بهذا التأكيد؟ وبأي معنى يصح هذا التأكيد إن كان له معنى على الإطلاق؟ إن الفلاسفة الذين أعينهم الآن سينظرون في السؤال الأول من هذين السؤالين ويقولون إن السؤال الثاني ليس من اختصاصهم، وأنا على تمام الاتفاق معهم أن مناقشة «ما الذي تعنيه» مهمة وضرورية إلى حد كبير استيضاحاً أولياً للسؤال الجوهرى، أما ألا يذكر شيء عن السؤال الجوهرى، فمناقشة معناه ومضمونه عبث وتضييع وقت، يذكرني الفلاسفة القائلون به بصاحب حانوت سألته ذات مرة أن يدلني على أقصر طريق إلى ونشستر، فنادى رجلاً آخر في داخل المحل قائلاً:

- سيد يود أن يعرف أقصر طريق إلى ونشستر.

- ونشستر؟

- نعم!

- الطريق إلى ونشستر؟

- نعم.

- أقصر طريق؟

- نعم.

- لست أعرفه.

أراد أن يستوضح طبيعة السؤال، ولكنه لم يهتم بالجواب، وهذا هو بالضبط ما تفعله الفلسفة الحديثة للباحث الجاد عن الحقيقة. فهل من المدهش أن ينحاز الشباب إلى دراسة أخرى غيرها؟

(٥) إن الحس المشترك وإن كن وافيًا بمقاصد الحياة اليومية ليسهل فيه الخلط حتى في الأسئلة البسيطة مثل «أين قوس قزح؟» وحين تسمع صوت الأسطوانة، أسمع المتكلم أم التسجيل؟ وحينما تشعر بألم في ساق بترت فأين الألم؟ إن قلت في رأسك، أكون في رأسك لو أن الساق لم تبت؟ فإن أجبت بالإيجاب فما الداعي إذن لزعمك أن لك ساقًا على الإطلاق؟ وهل جَرًا.

وليس ثمة من يرغب في تفسير لغة الحس المشترك أكثر من رغبتنا في التخلص من الكلام عن الشمس المشرقة والغاربة، ولكن الفلكيين يرون أن لغة مخالفة لهذه أوفق لهم، وأنا أعتقد كذلك أن لغة أخرى مخالفة أوفق للفلسفة.

لنضرب مثالًا: إن فلسفة كهذه تحتوي على هذا العنصر اللغوي الضخم في كيان تركيبها لا يمكنها الاعتراض على مثل هذا السؤال: ما معنى كلمة «الكلمة؟» ولكني لا أرى طريقة يجاب بها عن هذا السؤال بلغة الحس المشترك، فلنأخذ كلمة «قط» ولتكن الكلمة المكتوبة هي مثالنا بغية التحديد. من الواضح أن للكلمة أمثلة كثيرة لا واحد منها هو الكلمة. فإذا قلت: دعنا نناقش كلمة «قط»، فإن كلمة «قط» لا تدخل في سياق كلامي، لأنها مثل من أمثلة الكلمة، والكلمة نفسها ليست جزءًا من العالم المحسوس، فإن كانت شيئًا على الإطلاق فهي كيان أبدي فيما وراء الحس، في سماء أفلاطون، وإذن فلنا أن نقول إن الكلمة فئة من الأشكال المتشابهة، فهي كسائر الفئات خيال منطقي.

ولا تنتهي مصاعبنا بهذا لأن التشابه ليس ضروريًا ولا كافيًا لجعل شكلًا ما ضمن طائفة كلمة «قط» فقد تكتب الكلمة بالحروف الكبيرة أو الصغيرة، وقد تكتب واضحة القراءة أو غير مقروءة، وقد تكتب بخط أسود على صفحة بيضاء، أو بخط أبيض على سبورة سوداء. وإذا كتبت كلمة «قطار» فليس حرفاها الأولان مثالًا من أمثلة كلمة «قط»، وإذن فأهم صفة ضرورية في المثل على الكلمة هو «القصد» فإذا

تصادف أن عرقاً في قطعة رخام يرسم خطأً على شكل كلمة «قط»، فلا يصح أن نأخذ هذا على أنه مثل من أمثلة الكلمة.

وهكذا يبدو أننا لا نستطيع أن نحدد كلمة «الكلمة» من دون:

(أ) نظرية منطقية في الفئات.

(ب) وفهم سيكولوجي «للقصد».

وهذا أمران صعبان، ولهذا أخلص إلى أن الحس المشترك، صح أو لم يصح استعماله للكلمات، لا يعلم أقل علم ما هي الكلمات، ولكم أتمنى أن أومن أن هذه النتيجة ستخرسه عن الكلام.

ولنأخذ مشكلة أخرى، هي مشكلة الإدراك الحسي، ففي هذه المشكلة مزيج من المسائل الفلسفية والعملية، ولكنه مزيج لا معدى عنه في كثير من المسائل، وإذا لم يكن لا معدى عنه، فما لتجنبه سبيل، إلا أن نقصر أنفسنا على ما لا يبلغ في الأهمية شأنًا كبيرًا في موضوعنا.

وإليك الآن جملة من الأمثلة والإجابات:

س - حينما أرى منضدة، أیظل ما أراه موجودًا إن أغلقت عيني؟

ج - هذا يتوقف على المعنى الذي تعنيه بكلمة «أرى».

س - ما الذي يكون هناك حينما أغلق عيني؟

ج - وهذا أيضًا تجريبي فلا تزعجني به، واسأل عنه عالمًا طبيعيًا.

س - ما الشيء الذي يوجد إذا كانت عينا مفتوحتين، ولا يكون موجودًا إذا

أغلقتهما؟

ج - وهذا أيضًا تجريبي، ولكن مراعاة للفلاسفة السابقين سأجيبك: هو الأسطح الملونة.

س - أستنتج إذن أن هناك معنيين لكلمة «أرى» أولهما حينما «أرى» منضدة أرى شيئًا تخمينيًا يتصوره علم الطبيعة تصورًا غامضًا قد يكون خاطئًا، وثانيهما «أرى» أسطحًا ملونة تفقد وجودها عند إغلاق عيني؟

ج - يصح هذا إذا أردت أن تفكر تفكيرًا واضحًا، ولكن فلسفتنا لا تقتضي ضرورة التفكير الواضح، فتتجنب بالتذبذب بين المعنيين المفارقة والصدام، وهو أكثر مما نجح في تحقيقه أغلب الفلاسفة.



المعرفة والحكمة

ربما اتفق معظم الناس على أن عصرنا وإن تفوق على العصور الماضية كلها علمًا، لم يصحب زيادة علمه زيادة في حكمته، ولكن الاتفاق ينتهي عندما نحاول تحديد «الحكمة» وتدبر الوسائل التي تعين عليها، ولذا فإني أتساءل أولاً «ما الحكمة؟» وبعد ذلك أبحث عن سبل تعليمها.

للحكمة فيما أظن روافد عديدة منها، وأولها عندي، الإحساس بالنسب؛ وهو المقدرة على حسابان كل العوامل المهمة في مشكلة ما ووزن كل منها بميزانه، وهي صفة أصبحت أصعب مما كانت نتيجة للتوسع والتعقيد في المعرفة المتخصصة المطلوبة من كل نوع من الصناعات الفنية. خذ لذلك مثلاً أنك تبحث في علم الطب، حيث العمل صعب ويستغرق منك كل طاقتك الفكرية ولا يبقى لديك وقت تدبر فيه أثر اكتشافاتك واختراعاتك خارج نطاق الطب، فتنجح كما نجح الطب الحديث فعلاً في تخفيض نسبة وفيات الأطفال مثلاً إلى حد ضخم لا في أوروبا وأمريكا وحدهما بل وفي آسيا وإفريقيا، فتحدث بذلك نتيجة لم تكن قط في الحسابان هي إنقاص موارد الغذاء وتخفيض مستوى المعيشة في أشد أنحاء العالم ازدحاماً بالسكان. ومثل آخر أشد وضوحاً يشغل الآن بال كل إنسان، وهو أنك تدرس تكوين الذرة لمجرد الرغبة في المعرفة لا لمبتغى وراءها، فتضع بمحض الصدفة في أيدي المجانين ذوي السلطة أداة لتحطيم البشرية. في مثل هذه الحالات ربما يكون البحث

عن المعرفة ضاراً إلا أن تصاحبه الحكمة، والحكمة بمعنى النظرة المستوعبة ليست من الشروط الضرورية التي يجب أن تتوافر في المتخصص الباحث عن المعرفة.

على أن الاستيعاب وحده لا يكفي لتكوين الحكمة، بل يجب أن يضاف إليه شعور معين بمرامي الحياة الإنسانية ويمكن التمثيل له بدراسة التاريخ، فقد تسبب كثير من عظماء المؤرخين في الضرر أكثر مما نفعوا لأنهم نظروا إلى الوقائع من خلال عواطفهم التي تشوهها، فلم تكن فلسفة هيجل في التاريخ بالفلسفة التي ينقصها الاستيعاب وهي التي نظرت إلى التاريخ من بدايته الأولى وضرب في المستقبل اللانهائي، ولكن الدرس الأساسي للتاريخ الذي أراد أن يغرسه في الأذهان كان يقتصر على الفترة من سنة ٤٠٠ م إلى يومه، وفي هذه الفترة كانت ألمانيا أهم أمة في العالم وكانت حاملة لواء التقدم الإنساني. وربما كان ينبغي أن نوسع معنى الاستيعاب الذي يكون الحكمة حتى يشمل الشعور كما يشمل العقل، فليس من الغريب الشاذ أن ترى رجالاً تتسع معارفهم وتضيق مشاعرهم. هؤلاء الرجال لا يتوافر عندهم ما أسميه الحكمة.

وليست الحاجة إلى الحكمة مقصورة على المسائل العامة، بل هي مطلوبة في الحياة الخاصة، مطلوبة في اختيار أهداف الحياة، ومطلوبة في الترفع عن العصبية والتحيز، فإن من الأهداف في الحياة ما قد يكون نبيلاً لو كان يدرك، ولكن من الممكن الجري وراءه بطريقة غير حكيمة إن كان بطبيعته مستحيل التحقق، فكم من رجال في العصور الغابرة قد كرسوا حياتهم للبحث عن حجر الفلسفة وإكسير الحياة. وما من شك لو أنهم وجدوهما، أنهم كانوا يسبغون على البشرية منافع كثيرة، ولكن كل الذي حدث هو أنهم قد أضاعوا حياتهم. فإذا نزلنا إلى مسائل أقل بطولة من هذه، فلنتدبر قضية رجلين مستر أ ومستر ب، يكره أحدهما الآخر ويهدم أحدهما الآخر بسبب هذه الكراهة. افرض أنك ذهبت إلى مستر أ وقلت له: لماذا تكره المستر ب؟

لا شك أنه سيعطيك قائمة مفزعة من ردائل ب بعضها صحيح وبعضها مختلق، ثم افرض أنك ذهبت إلى المستر ب، لا شك أيضًا أنك ستحصل منه على قائمة أخرى مشابهة لتلك تتضمن ردائل أ بصحيحها ومختلقها، فافرض بعد ذلك أنك عدت إلى المستر أ وقلت: «ستدهش لو علمت أن المستر ب يقول عنك بالضبط ما تقوله عنه»، ثم قلت مثل هذا الكلام للمستر ب، فلا ريب أن الأثر الأول لهذا التصرف هو زيادة الكراهة بينهما؛ إذ إن كلاً منهما سيفزع من تخرصات الآخر، ولكنك إذا أوتيت الصبر وحسن التأني، فقد تفلح في إقناع كل منهما أن صاحبه لا يحظى بأكثر من النصيب الطبيعي من شرور البشر وأن عداهما ضار بكليهما، ولو قد أفلحت لغرست شيئاً من الحكمة في نفسيهما.

وإني أعتقد أن جوهر الحكمة هو الترفع بقدر الإمكان عن طغيان «الهنا» و«الآن» فما في طاقنا أن نتخلص من أنانية الحواس؛ لأن البصر والسمع واللمس مرتبطة بأجسادنا ولا سبيل إلى إخراجها عن صبغتها الشخصية، وكذلك تنشأ عواطفنا وانفعالاتنا من لدن أنفسنا، فالطفل يشعر بجوعه وقلة راحته ولا يتأثر إلا بحالاته الجسدية، ثم يأخذ أفقه في الاتساع مع السنين، وكلما تخلصت أفكاره ومشاعره من الصبغة الشخصية، وكلما قل تركيز عنايته على أحواله الجسدية، ازداد نصيبه من الحكمة -وهذه طبعاً مسألة درجة، فما يستطيع أحد أن ينظر إلى العالم نظرة الحياد التام، ولو تأتى هذا لامرئ لأوشك ألا يبقى على قيد الحياة، ولكن من الممكن أن يظل يقترب نحو الحياد بأن يتعرف على أشياء بعيدة في الزمان والمكان من ناحية، وبإعطاء هذه الأشياء وزنها المناسب في شعوره من ناحية أخرى، وهذا الاقتراب نحو الحياد هو الذي يهيئ لنمو الحكمة.

فهل الحكمة بهذا المعنى مما يمكن تعليمه؟ وإن كان تعليمها ممكناً، فهل يصح أن يكون من أهداف التعليم؟ ينبغي عليّ أن أجيب عن كلا السؤالين بالإيجاب، إننا

نلقن في أيام الأحد أنه ينبغي أن نحب جارنا كما نحب أنفسنا وفي بقية الأيام الستة من الأسبوع نحرص على كراهته، وربما طرأ لك أن تقول إن هذا كلام فارغ ما دمتنا لا نحرص على كراهة جارنا بالذات. فعليك إذن أن تتذكر أن المثل الذي ضرب لتوضيح هذه الوصية كان يقول إن جيراننا هم السامريون، والسامريون قوم لم يعد لدينا ما يدعوننا إلى كراهيتهم مما قد يغم علينا حكمة التمثيل، فإن أردت أن تضع يدك على هذه الحكمة فعليك أن تستبدل بالسامريين الشيوعيين أو أعداء الشيوعية حسب مقتضى الحال.

وربما يعترض على هذا بأن كمال الأخلاق أن نكره من يتسبب في الإضرار، ولكنني لا أعتقد هذا لأنك لو كرهتهم فأكبر الظن أنك ستصير ضاراً مثلهم، ومن غير المحتمل بتاتاً أن تحملهم بهذه الكراهية على ترك ما هم فيه، فإن كراهة الشر في ذاتها نوع من الأسر في قيود الشر ولا مخرج منها إلا بالتفاهم لا بالكراهة، ولست بهذا أدعو إلى عدم المقاومة، بل أقول إن المقاومة إن كان لها أن تكون ذات أثر فعال في كبح الشر، فينبغي أن تقترن بأوفى نصيب من التفاهم وأقل نصيب من القوة يصلح بها بقاء الخيرات التي نود بقاءها.

ومن الاعتراضات الشائعة على هذه النظرة أنها لا تتفق مع قوة العزيمة، ولكنني لا أظن أن التاريخ يؤيد هذه النظرة، فقد عاشت الملكة إليزابيث الأولى في إنجلترا والملك هنري الرابع في فرنسا في عالم يعج بالمتعصبين سواء منهم البروتستانت والكاثوليك ولكنهما كليهما ظلّا بعيدين عن أخطاء زمانهما، فكانا كلاهما بهذا البعد نافعين ولم يكونا، بكل تأكيد، قليلي الأثر، وقد قاد إبراهيم لنكولن^(١) حرباً كبيرة من غير أن ينحرف قيد شعرة عما أسميته الحكمة.

(١) إبراهيم لنكولن (١٨٠٩ - ١٨٦٥): الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية.

إن شيئاً من الحكمة يمكن تعليمه، وأظن أن هذا القدر يجب أن يشتمل على نصيب عقلي أوفى مما هو معهود فيما يظن أنه تلقين الأخلاق، وأظن أن الآثار الوخيمة للكرهية وضيق الأفق العقلي يمكن أن تُلقى إلقاء عابراً في أثناء تعليم المعلومات، وأعتقد أنه ينبغي ألا يفصل بين المعرفة والأخلاق. نعم إن نوع المعرفة المتخصصة التي تلزم لأنواع المهارات المختلفة ليس لها شأن كبير بالحكمة، ولكن ينبغي أن يضاف إليها مجال أوسع من التعليم بقصد وضعها في موضعها من النشاط الإنساني العام؛ إذ ينبغي حتى على أحسن الخبراء الفنيين أن يكونوا مواطنين صالحين، وحينما أقول «مواطنين» أقصد مواطنين عالميين لا مواطنين في هذه الأمة أو تلك، ولا في هذه الطائفة أو تلك. فالحاجة إلى الحكمة تزداد مع كل زيادة في المعرفة والمهارة؛ لأن هذه الزيادة تزيد من قدرتنا على تحقيق أغراضنا فتزداد بذلك قدرتنا على الشر إن كانت أغراضنا على غير مقتضى الحكمة. إن العالم يحتاج إلى الحكمة كما لم يحتج إليها من قبل، فإن اضطرد ازدياد المعرفة فسيحتاج العالم للحكمة في المستقبل أكثر حتى من حاجته إليها الآن.



فلسفۃ الزماننا

على الرغم من أن هذا هو موضوعي الآن، فإنني لا أظن أن مهام الفلسفة في زماننا تختلف أي اختلاف عن مهامها في الأزمنة الأخرى، فإنني أرى أن الفلسفة قيمة دائمة لا تتغير إلا في اعتبار واحد يتلخص في أن بعض العصور تنجح عن الحكمة أكثر من غيرها، فتنشأ عندها حاجة إلى الفلسفة وعزوف عنها في الوقت نفسه، أكثر من حاجة غيرها ومن عزوفه عنها. وعصرنا هذا هو أحد العصور ذات الحكمة القليلة بأكثر من اعتبار واحد، فهو يستفيد إذن فائدة كبيرة من تعاليم الفلسفة.

إن قيمة الفلسفة تتعلق في أحد جوانبها بالفكر، وتتعلق بالشعور في جانب آخر وإن كان أثرها في كل من الجانبين مرتبطاً بالآخر أوثق ارتباط، فهي في جانبها النظري تعين على فهم العالم في كليته ما أمكن هذا، وهي في جانبها الوجداني تعين على تقدير الأهداف الإنسانية من الحياة حق قدرها. وسأعرض هنا أولاً لما يمكن للفلسفة أن تقدمه في مجال الفكر، ثم ما تقدمه في مجال الوجدان.

الهنا والآن

أول ما تفعله الفلسفة، أو ما ينبغي أن تفعله، هو توسيع الخيال العقلي، فالحيوانات، بما فيها الإنسان، تتصور العالم من مركز الهنا والآن لأن حواسنا، كالشمعة المضيئة في الليل، يخفت ما تلقيه من ضوء على الأشياء كلما بعدت، إلا أننا لا مناص لنا في حياتنا الحيوانية من أن ننظر إلى كل شيء من زاوية واحدة.

ويحاول العلم أن يتخلص من الأسوار الجغرافية والزمانية لهذا السجن، ففي علم الطبيعة كان أصل الإحداثيات الزمانية والمكانية بدعة مختلفة يهدف من ورائها عالم الطبيعة إلى تقرير أشياء لا علاقة لها بوجهة نظره، ولكنه قد يصح عند من يسكن سيربوس أو أي سديم فيما وراء المجرة.

وإليك مراحل أخرى من الانعتاق، فإن التاريخ والجيولوجيا يتعدان بنا عن الآن، والفلك يتعد بنا عن الهنا، فمن يمتلئ عقله بهذه الدراسات يأخذ شعور أن ذاته شيء عرضي يوشك أن يكون تافهًا لا تشغل إلا جزءًا صغيرًا ومحدودًا من مجرى الزمان والمكان، فيأخذ عقله شيئًا فشيئًا في الترفع عن هذه المطالب المادية ويكتسب تعميمًا وسعة نظرة وقوة لا تتيسر لمن كانت أفكاره محصورة في مطالبه الحيوانية.

وهذا شيء معترف به إلى حد ما في جميع البلاد المتحضرة حيث لا يتوقع من العالم أن يزرع طعامه وحيث يعفى إلى حد كبير من تضيق وقته فيما لا يفيد ومن الاهتمام بمجرد تدبير معيشته. ولا شك أنه لا يمكن بغير هذا التركيب الاجتماعي وحده أن توجد نظرة لا شخصية إلى أي حد من حدودها، فإننا جميعًا نتهالك على مطالبنا إلى الحد الضروري لبقائنا. إلا أنه من المفيد أن يتحرر طائفة من الناس لهم ملكات معينة لابتداع طريقة للتفكير والشعور، لا تنحصر في حاجتهم وحدها، وهو ما يتم إلى حد ما بتحصيل أي فرع من المعرفة، ولكنه تم على أكمل صورة بنوع البحث الشامل الذي تتميز به الفلسفة.



صور الكون المختلفة

إنك إذا اطلعت على مذاهب فلاسفة الماضي الكبار، لوجدت فيها عددًا من الصور المختلفة للكون، حسنت في نظر أناس على نمط معين من الخيال، فقال بعضهم إنه ليس في العالم إلا العقل وإن الماديات في حقيقتها أشباح، وقال آخرون إنه ليس ثمة إلا المادة وأن ما نسميه «بالعقل» ليس إلا طريقة شاذة لتصرفات بعض أنواع المادة، ولا يعنيني الآن أن أرجح صحة إحدى النظرتين إلى العالم أو أرجح حسن قبولها على الأخرى بل الذي يعنيني هو أن أقول إن المران على فهم هذه الصور المختلفة للعالم توسع العقل وتهيئه لقبول فروض جديدة ربما كانت مثمرة.

وهناك فائدة عقلية أخرى للفلسفة كان ينبغي أن تؤديها وإن كانت كثيرًا ما تفشل في أدائها، تلك هي أن تغرس في الأذهان الاقتناع بعدم العصمة البشرية وقلة اليقين في كثير من الأشياء التي تبدو لا شك فيها لغير المتعلمين، فإن الأطفال في أول عمرهم ليرفضون الاقتناع بكروية الأرض ويؤكدون بكل حرارة أنهم يرونها منبسطة، ولكن الأمثلة الأهم من هذا - على قلة اليقين التي تشغل ذهني - هي التي تتعلق بالمذاهب الاجتماعية واللاهوتية، فإننا إن تعودنا التفكير اللا شخصي فسنستطيع أن نتصور المعتقدات الشائعة في أمتنا أو في طبقتنا الدينية بالترفع نفسه الذي نرى به معتقدات الآخرين، وسينكشف لنا أن المعتقدات التي يشتد التمسك بها إصرارًا وحرارة في كثير من الأحيان أقلها سندًا من الأدلة، فحينما يعتقد جمهور كبير من الناس في «أ» ويعتقد جمهور آخر في «ب»، يحدث عند كل منهما ميل إلى كراهة الآخر لاعتناقه رأيًا واضح السخافة كهذا الرأي.

والعلاج الأنجع لمثل هذا الميل هو المران على اتباع الدليل والعزوف عما لم يقيم عليه دليل، وهذا ينطبق لا على العقائد اللاهوتية والسياسية وحدها، بل على العادات الاجتماعية أيضًا. فقد أظهرتنا دراسة علم الإنسان «الأنثروبولوجي» على تشكيلة مذهشة من العادات الاجتماعية وإن المجتمعات يمكنها البقاء بعادات قد يظن بها مناقضة للطبيعة البشرية، وهذا نوع من المعرفة عظيم القيمة لأنه مصل واق ضد القطعية لا سيما في عصرنا الحاضر حيث العقائد القطعية (Dogmatism) المتنافسة هي الخطر الأكبر الذي يتهدد الإنسان.

ويوازي تطور الفكر الخالص من شوائب الصبغة الذاتية، تطور الشعور غير الذاتي، الذي يتساوى على الأقل في الأهمية مع الفكر والذي ينبغي أن ينجم عن نظرة فلسفية أيضًا، فإن رغباتنا كحواسنا مركزة على الذات أساسًا، وهذا التركيز الذاتي لرغباتنا يتدخل في نظمنا الأخلاقية. وفي هذه الحالة، كما في الحالة المشابهة، لا ينبغي أن يكون الهدف أن نبتعد كل البعد عن الحيوانية اللازمة للحياة، بل ينبغي أن نهذف إلى إضافة شيء إليها، أوسع وأعم وأقل انحصارًا في الظروف الشخصية منها، فلا يصح أن نحترم أبا لا يشعر بعطف نحو أبناء الآخرين، بل ينبغي أن نحترم الرجل الذي ينتقل به العطف على أبنائه إلى حب الخير للجميع، كما لا يصح أن نعجب بالرجل الذي لا يكثرث للطعام حتى يصيبه الهزال إن وجد مثل هذا الرجل، ولكن ينبغي أن نعجب بالرجل الذي يقوده علمه بمقدار حاجته إلى الطعام إلى العطف على كل جوعان.

والذي يجب أن تفعله الفلسفة في ميدان المشاعر مماثل كل المماثلة لما ينبغي أن تفعله في ميدان الفكر، فينبغي ألا تحذف من الحياة الشخصية شيئًا بل تزيد عليها، فكما أن نظرة الفيلسوف العقلية أوسع من نظرة غير المثقف، كذلك يتسع نطاق رغباته وهمومه، ويقال إن بوذا كان يؤكد أنه لا يمكن أن يشعر بالسعادة لو أن إنسانًا واحدًا في شقاء، وهو قول متطرف، إذا أخذ على حرفيته يؤدي إلى الجنوح، ولكنه

يصور عالمية الشعور التي أتحدث عنها. فالذي تحصل على طريقة فلسفية للشعور إلى جانب التفكير سيميز الخبيث من الطيب في تجاربه، ثم يبتغي تحقيق الطيب وتفادي الخبيث لنفسه وللآخرين على السواء.

* * *

جذور التقدم الاجتماعي

الأخلاق كالعلم ينبغي أن تكون عامة ومرتفعة جهد طاقة الإنسان عن تسلط الهنا والآن. وهناك قاعدة جديدة تصلح محكاً للمبادئ الأخلاقية هي: «يجب ألا يحتوي أي مبدأ أخلاقي على اسم علم، واسم العلم فيما أعنيه هو كل تحديد لشيء جزئي تحديداً زمانياً مكانياً، فهو يشمل أسماء الأفراد من البشر ويشمل أيضاً أسماء الأقاليم والبلاد وفترات التاريخ. وحينما أقول إن المبادئ الأخلاقية يجب أن تكون على هذه الصفة فإنني أعني شيئاً يزيد على مجرد الموافقة العقلية الباردة؛ لأن المبدأ الأخلاقي إذا لم يزد عليها فلا أثر له على السلوك إلا قليلاً. إنما الذي أعنيه شيء أكثر فاعلية، شيء من طبيعة الرغبة الفعالة أو الحافز الفعال، شيء تضرب جذوره في الخيال الودود، فما كان للمجتمع من تقدم إلا من مثل هذه المشاعر العامة، فلو اقتصرت آمالك ورغباتك على نفسك أو أسرتك أو أمتك أو طبقتك أو أبناء ملتك، فستجد أن كل موداتك ومشاعرك الطيبة تقابلها كراهات ومشاعر عدائية. وهذه هي الثنائية في مشاعر الناس التي تتجسم فيها الشرور الكبرى في حياة البشر، شرور القسوة والظلم والاضطهاد والحرب، فإن كان للعالم أن يسلم من الكوارث التي تهدده فليتعلم الناس عدم الانحصر في عواطفهم.

ولا شك أن هذا كان يصدق شيئاً من الصدق على الأزمان السابقة ولكنه أصدق على عصرنا هذا من كل عصر سبقه، لأن الإنسانية بالعلم وبالفنون العلمية

قد ارتبطت وتوحدت على الشر ولم تتوحد بعد على الخير، وتعلمنا فنون الإفناء على نطاق عالمي ولم نتعلم بعد فنون التعاون على هذا النطاق على أنه المطلوب المرغوب، وسبب الفشل في التعلم يكمن في قصور العواطف وفي قصر المودة على الطائفة التي ينتمي إليها الإنسان، وفي الإيغال في الحقد وفي الخوف من الطوائف الأخرى.

إن التعاون العالمي يمكنه بما عندنا من فنون العصر الحاضر أن يطغى على الفقر والحرب وأن يوفر للناس جميعاً مستوى من السعادة والرخاء لم يسبق له مثيل. ولكن الناس ما زالوا -على ما في هذا الكلام من الوضوح- يفضلون قصر التعاون على طائفتهم ويؤثرون الإيغال في عداء الطوائف الأخرى، ذلك العداء الذي يملأ الحياة اليومية بالرؤى المرعبة عن الكارثة المحيطة.

إن السبب في هذا العجز المضحك المبكي عن العمل لما فيه صالح الجميع، لا يقع لنا من خارجنا، بل يقع في صميم طبائعنا العاطفية، فلو أمكننا أن نشعر في لحظات التجلي شعوراً خالصاً من الذاتية كتفكير العلماء، لأمكننا أن نرى سخافة انقسامنا وعداوتنا ولأدركنا بغاية السرعة أن مصالحنا متفقة مع مصالح غيرنا ولكنها لا تتفق بناتاً مع الرغبة في تحطيم الآخرين. إن القطعية المتعصبة، وهي شر من أكبر شروء عصرنا الحديث، ترجع في أساسها إلى نقيضة عقلية، وقد سبق أن قلت إنها نقيضة تهى لها الفلسفة مصلاً عقلياً وافياً منها. ولكن قدراً كبيراً من القطعية يرجع إلى أصل وجداني هو الخوف، ففي قرارة نفوسهم أن الاتحاد الوثيق بين أفراد الجماعة هو وحده الكفيل بالوقوف في وجه العدوان، وأن أي انحراف عن الخط المرسوم مشبط في الحرب، والجماعة الخائفة جماعة غير متسامحة، ولست أظن هذا حكمة منهم؛ لأن الخوف قلما يوحى بالعمل الحصيف وكثيراً ما يوحى بالعمل الذي يزيد الخطر.

وهذا بالتأكيد هو الحال مع القطعية غير العاقلة التي أخذت تنتشر في أنحاء كثيرة من العالم، فحيث يكون الخطر خطرًا حقيقيًا، فإن أنجع الدواء هو الشعور اللا شخصي الذي ينبغي أن يتولد عن الفلسفة. لقد ظل سبينوزا، وربما كان أحسن مثل على طريقة الشعور التي أبشر بها، هادئًا طول عمره، وظل محتفظًا حتى يوم احتضاره بالاهتمام الودود بشؤون الآخرين كما كان في أيام صحته، فمن امتدت آماله ورغباته إلى مدى أوسع فيما وراء حياته الشخصية، فلن يتعرض لحالة الخوف التي يتعرض لها من كزت نفسه وضائق مراميه، لأنه يستطيع أن يتصور أن ثمة من يواصل عمله بعد موته وأن أعظم الكوارث التي اجتاحت الأزمنة الغابرة قد أمكن التغلب عليها بعد وقت طويل أو قصير، ويستطيع أن يرى الجنس البشري وحدة واحدة والتاريخ البشري خطوات في سبيل التخلص من استرقاق الطبيعة. ويسهل عليه أكثر مما كان يسهل عليه - لو أنه لا يعتقد فلسفة في الحياة - أن يتجنب الرعب الأهوج، وأن ينمي قدرته على التحمل الرواقي للصدمات، ولست أدعي أن مثل هذا الإنسان سيعيش سعيدًا أبدًا، فالعيش في سعادة أبدية أقرب إلى المستحيل في عالم كالعالم الذي وجدنا أنفسنا فيه، ولكنني أعتقد أن الفيلسوف الحق أبعد من غيره عن اليأس المحيق والذعر الأهوج في توقع حدوث الملمات.



دعوة إلى التفكير الواضع

للكلمة وظيفتان: واحدة لتقرير الوقائع والثانية لاستثارة العواطف؛ وهذه الثانية هي أقدم الوظيفتين يقوم بها الحيوان في صورة صيحات سابقة على تكون اللغات، لذا فإن من أهم عناصر النقلة من الهمجية إلى المدنية زيادة استعمال الكلمة في الإشارة على استعمالها في الإثارة، ولكن ما أقل ما تحقق من هذا الغرض في السياسة. إنني إن قلت إن مساحة المجر تبلغ كذا من الكيلو مترات المربعة فما أعدو تقرير قضية إخبارية خالصة، أما إذا قلت إن مساحة الاتحاد السوفيتي تبلغ سدس مساحة اليابسة، فإن قضيتي تكون انفعالية أساسًا.

معنى الديمقراطية

وعلى الرغم من أن جميع الكلمات المحفوظة في ميدان النزاع السياسي لها معان قاموسية محددة، إلا أن معانيها في الاستعمال تختلف باختلاف الميول السياسية لقائلها ولا تتفق إلا في قدرتها على إثارة انفعالات عنيفة وقد كانت «الحرية» أصلًا تعني عدم التسلط الأجنبي، ثم أصبح معناها تقييد السلطة الملكية، فلما حلّ عصر «حقوق الإنسان» صارت تشير إلى اعتبارات مختلفة يكون الفرد فيها حرًا من تدخل الحكومة، وأخيرًا غدت على يد هيجل «الحرية الحقيقية» التي لا ترتفع كثيرًا عن أن تكون خضوعًا لبقًا للبوليس. و«الديموقراطية» في يومنا هذا تمر بمراحل مشابهة

لهذه المراحل من التغير؛ فقد كانت تعني حكم الأغلبية مع نصيب قليل غير محدد المعالم من الحرية الشخصية، ثم أصبحت تعني أهداف الحزب السياسي الذي يمثل مصالح الفقراء على أساس أن الفقراء في كل مكان هم الأغلبية. وفي المرحلة التالية أصبحت تمثل أهداف زعماء هذا الحزب، وها هي الآن في أوروبا الشرقية وجزء كبير من آسيا يصبح معناها الحكم المستبد لمن كانوا يومًا ما نصراء للفقراء والذين أصبحوا يقصرون نصرتهم هذه للفقراء على إيقاع الخراب بالأغنياء، إلا إذا كان هؤلاء الأغنياء من «الديموقراطيين» بالمعنى الجديد. هذا المنهج في التهيج السياسي منهج قوي ناجح، فإن الناس إذا سمعوا كلمة فتشأ منها انفعال معين في نفوسهم، أخذ يحيك بنفوسهم كلما سمعوها حتى لو تغير معناها، وعلى ذلك فلو أريد من البعض أن يتطوعوا بعد سنين للقيام برحلة تجريبية إلى القمر، فسيكون الحصول عليهم أسهل بكثير لو أعيدت تسمية القمر وأصبح يُدعى «وطني، وطني الجميل».

وإذن فينبغي أن يكون من واجبات التربية والتثقيف كما هو من واجبات العلم وفلسفة العلوم، أن يلحق استعمال الكلمات على معان محددة لا على ضباب غامض من الانفعالات، وإني لأعلم بالملاحظة أن دراسة الفلسفة العملية ذات أثر عملي فعال في هذا الصدد. فقد حضرت مؤتمرًا دوليًا للفلسفة العلمية في باريس قبل الحرب الأخيرة بثلاث سنوات، وكان الحاضرون من أمم شتى، وكانت حكوماتهم واقعة في نزاعات حادة لا أمل في حلها إلا باستعمال القوة، وأخذ أعضاء المؤتمر في ساعات العمل الرسمي يناقشون النقط الغامضة في المنطق أو نظرية المعرفة وهي فيما يبدو نقط بعيدة كل البعد عن عالم الأحداث، ولكنهم كانوا في غير ساعات العمل الرسمية يتجادلون في أعضاء مشكلات السياسة الدولية، ولم يحدث قط أن سمعت واحدًا منهم يظهر التعصب الوطني أو تعميمه العاطفة عن وزن الحجج التي

تعارض مع مصالح أمته بوزنها الصحيح، ولو استطاع ذلك المؤتمر أن يستولي على حكومة العالم تحت حماية أهل المربخ من سخط جميع الفئات المتعصبة التي سوف تثور عليهم، لتوصلوا إلى حلول عادلة دون أن يضطروا إلى إغفال احتجاجات الأقليات الغاضبة فيما بينهم، ولو أرادت حكوماتهم لأمكنها تعليم الصغار تعليمًا يبلغ بهم هذا المدى من عدم التحزب، ولكنها لم ترد، لأنها في مدارسها على أتم استعداد لاحتضان جرائم العته وقلة العقل والكراهة والشك والحسد التي تزدهر وتؤدي أكلها بغاية السهولة في عقل الإنسان.

إن العاطفة السياسية أجمع وألصق بطبيعة الإنسان من أن تسمح بالابتداء بتعليم استعمال اللغة الدقيقة المحددة في ميدانها السياسي، فالأسهل إذن أن نبدأ بالكلمات التي لا تثير من العواطف إلا القليل نسبيًا، ومن المحتمل أن يظهر الأثر الأول للتدريب على الحياد العقلي بمظهر يثير السخرية. خذ لذلك مثلاً كلمة «الصدق» وهي كلمة يستعملها الناس بشيء من رهبة القداسة ويستعملها آخرون من أمثال بيلاطس البنطي^(١) بشيء من الزراية والاستهزاء. ربما صدم المتعلم؛ إذ يسمع لأول مرة أن «الصدق صفة من خصائص الجملة» لأنه لم يتعود أن ينظر إلى الجمل بوصفها عظيمة أو مضحكة، أو خذ مثلاً آخر كلمة، «اللا محدود» سيقول لك الناس إن العقل المحدود لا يستطيع فهم «اللا محدود» ولكنك إذا سألتهم: «ماذا تقصدون باللا محدود؟ وبأي معنى يقال عن العقل الإنساني إنه محدود؟» فسيخرجون عن طورهم في الحال. والحقيقة أن كلمة «لا محدود» لها معنى كامل الدقة أسبغها علماء الرياضة، صالح كل الصلاحية للفهم شأن سائر الرياضيات.

إن المران على فن استبعاد العواطف من الكلمات واستبدال دلالة منطقية واضحة

(١) حاكم فلسطين من قبل تيبيريوس الإمبراطور الروماني، تولى ولايته سنة ٢٦م وحوكم المسيح في عهده سنة ٣٢م ومات منتحرًا في فرنسا.

بها لينفع الإنسان أكبر النفع إن هو أراد أن يحتفظ برأسه متزناً في دوامة الدعايات الهائجة. ففي سنة ١٩١٧ أعلن ولسن مبدأه العظيم في تقرير المصير، الذي يكفل لكل أمة حق إدارة شؤونها، ولكن سوء الحظ أنساه أن يلحق بمبدئه تعريفاً محدداً لكلمة «أمة». هل إيرلندا أمة؟ نعم، بالتأكيد. فهل شمال شرقي الستر^(١) أمة؟ يقول البروتستانتون نعم، ويقول الكاثوليك لا، ويخرج القاموس بالصمت عن لا ونعم، وتظل المسألة بغير حل حتى يومنا هذا، ويحتمل أن يؤثر النزاع حولها على سياسة الولايات المتحدة إزاء بريطانيا العظمى. لقد حدث في بتروجراد، كما كانت تُسمى في ذلك الوقت في عهد كيرنسكي، أن أعلن منزل واحد معين أنه أمة تجاهد في سبيل حريتها وناشد الرئيس ولسن أن يمنحه برلماناً مستقلاً، وهي دعوى تشعر بالتطرف ولكن لو كان الرئيس ولسن مدرباً على الدقة المنطقية لألحق بمبدئه حاشية تقرر أن الأمة يجب أن تشمل على ما لا يقل عن عدد معين من الأفراد، وإن كان هذا سيحيل مبدأه إلى مبدأ تعسفي وسيحرمه من قوته الخطابية.

* * *

ترجمة المشكلات إلى صور مجردة

وأحد الفنون النافعة التي تعلمها الفلسفة العلمية هو تحويل كل مشكلة من صورتها المجسمة إلى صورة مجردة. خذ لذلك مثلاً: هل للإيرلنديين الحق في الاعتراض على اندماجهم مع بريطانيا العظمى في حكومة ديموقراطية واحدة؟ إن كل راديكالي أمريكي سيقول نعم. فهل للمسلمين الحق نفسه بإزاء الهندوس؟ سيقول تسعة أعشار الراديكاليين الأمريكيين السابقين كلا. ولست أزعم أن أيّاً من هاتين المشكلتين ستجد حلها في مجرد وضعها في صيغة مجردة، ولكن الذي أزعمه هو

(١) الجزء التابع للمملكة المتحدة من جزيرة إيرلندا.

أننا لو استبدلنا في كل من المشكلتين المجسدين صفة مجردة واحدة تقوم فيها أ، ب مقام أسماء الأمتين أو الطائفتين اللتين نحس نحوهما بشعور عميق، فسيسهل علينا جدًا أن نتبين نوع الاعتبار التي ينبغي النظر إليها للوصول إلى حل غير متحيز.

لن تحل مشكلات السياسة بالتفكير الصحيح وحده ولا بالشعور الصائب وحده. إن التفكير الصحيح قمين بتحقيق الحياد في تقرير الوقائع، ولكن الشعور الصائب مطلوب لإحداث الثورة الدافعة في المعرفة. فلولا أن نجد الرغبة في السعادة العامة فإن أي قدر من المعرفة لن يحفز إلى العمل الذي يؤدي إلى زيادة سعادة البشر، ولكن الكثير من الناس يستطيعون أن يتصرفوا طبقًا لتفكيرهم المختلط وتحت تأثير عواطفهم السيئة دون أن يتبينوا أنهم يفعلون هذا. فإذا فتحت أعينهم على هذا بمجرد الوسائل العقلية المحضة، فكثيرًا ما يميلون إلى التصرف بطريقة أقل جلافة وأقل احتمالًا أن تزيد من قدر الشقاء، وإنني مقتنع كل الاقتناع أن لو كانت المدارس في العالم أجمع تخضع لسلطة دولية واحدة، وأن هذه السلطة قد أخذت على عاتقها توضيح استعمال الكلمات الذي يرقى المشاعر، فإن العداوات القائمة بين الأمم والملل والأحزاب السياسية ستقل سريعًا، وسيسهل أمر المحافظة على السلام في كل أنحاء العالم. وإلى أن يتم هذا ينبغي على القائمين بالدعوة إلى التفكير الجلي وضد العداوات المتبادلة المهلكة أن يعملوا لا ضد العواطف التي يتعرض لها الإنسان بطبعه وحدها، بل ضد القوى الضخمة المنظمة التي تقوم على عدم التسامح وتأكيد الذات المريض. وفي هذا الجهاد يقوم التفكير المنطقي الجلي بدور محدد المعالم، وإن لم يكن العامل الوحيد في الميدان.



التاريخ فنا^{١٣}

إنني مقدم على موضوع هذه المحاضرة وفي نفسي الشيء الكثير من الرهبة،
فإنني أعلم أن من بين مستمعي مؤرخين محترمين أكنّ لهم عظيم الاحترام ولا
ينبغي أن تخامرني الرغبة أبدًا في أن أعلمهم كيف يقومون بعملهم، لذا فسأتكلم
كلام مستهلك لا منتج؛ ففي الدكاكين مبدأ يقول: «إن العميل على صواب» ولكن
الأكاديميين -وأحب أن أحسب نفسي ضمن معشرهم- أشد تعاليًا من التجار. فإذا
لم يرق للمستهلك ما يقدمونه له، فما ذلك إلا لتفاهته وجهله بما فيه صلاحه، وإنني
إلى حد ما متفق معهم على هذا الموقف، فما يصح أبدًا لعالم الرياضة أن يحاول
إدخال السرور على القارئ العادي، وكذلك يجب على العلوم الطبيعية في جوانبها
الجدية أن توجه خطابها أولاً إلى المتخصصين وإن كان بعض العاملين ذوي الروح
المغامرة في هذا الميدان يكتبون بين الفينة والفينة كتبًا تقشعر لها الأبدان، ولكن
زملاءهم العلماء لا ينظرون إلى هذه الكتب نظرة الجد، ولهذا تنتقص هذه الكتب
من أقدارهم ولا تزيد. وأعتقد أن التاريخ يختلف في هذا الصدد عن كل من الرياضة
وعلم الطبيعة، فقد قضت الدنيا، لسوء الطالع، أن يظل العلماء الطبيعيون والعلماء
الرياضيون في الوجود على الأقل إلى أن تهبط أثمان الآلات الحاسبة، فإذا تم هذا
الأمل السعيد، فلن يكون هناك معنى لتعليم الناس الكميات، ويصح عندها أن يوضع

جدول الضرب إلى جانب «الفلقة» وكل أداة عفا عليها الزمن من أدوات التعليم، ولكن التاريخ فيما يبدو لي ينتمي إلى طائفة غير هذه، ذلك أن جدول الضرب، مهما يكن مفيداً، لن يدعي له الجمال، ويندر أن نجد الحكمة الجوهرية بخصوص مصير الإنسان في تذكر أعضل محتوياته، أما التاريخ فهو كما أرى جزء مرغوب فيه من الأثاث العقلي لكل إنسان بالمعنى ذاته الذي يعترف به الجميع للشعر. فإن كان للتاريخ أن يؤدي هذه الوظيفة على وجهها الصحيح فعليه أن يستميل إليه غير المؤرخين المتخصصين. ولقد وجدت في نفسي دائماً شغفاً كبيراً بقراءة التاريخ وما زلت معترفاً بفضل أولئك المؤرخين الذين هياؤالي ما كنت أبحث عنه بوصفي مستهلكاً لا منتجاً، وكلامي الآن سيكون من هذه الزاوية، فإنني أريد أن أبسط ما ينبغي لغير المؤرخين أن يأخذوا من التاريخ وهو موضوع أظنكم تسمعون أن يكون لغير المؤرخين فيه حق التعبير عن الرأي.

كانت، ولا تزال، هناك حاجة كبيرة، يخيّل لي أنها عبث، حول التاريخ، أهو علم أم فن؟ فقد كان ينبغي فيما أعتقد أن يكون واضحاً كل الوضوح أنه كلاهما: فإن «تاريخ إنجلترا الاجتماعي» لتريفيليان يستحق الثناء بلا شك في وجهة النظر الفنية، ولكنني أذكر أنني وجدت فيه قضية مؤداها أن عظمة إنجلترا البحرية ترجع إلى تغير في عادات الرنجة، ولما كنت أجهل كل ما يتعلق بالرنجة فإنني أقبل القضية على علاقتها، ولكن اهتمامي موجه إلى أن القضية علمية وأن صفتها العلمية لا تنتقص شيئاً من قيمة الكتاب الفنية، وعلى كل حال يمكن تقسيم عمل المؤرخ إلى فرعين حسب سيادة الباعث الفني أو العلمي فيه.

وحيثما يتحدث الناس عن التاريخ من حيث هو علم، فعلى أحد معنيين مختلفين كل الاختلاف، أحدهما المعنى السائر حيث يلجأ إلى العلم للتحقق من وقائع التاريخ وهو معنى له أهميته الخاصة في التاريخ القديم حيث الأدلة قليلة وغامضة.

وإن كانت له أهمية أيضًا في الأزمنة القريبة حيث تصطرع الشهادات، وهو أمر ليس بالغريب. فمثلاً ما الذي يصح لنا أن نصدقه من بروكوبيوس Procopius^(١). وهل من شيء له قيمة تاريخية يمكن أن يستفاد من حصيلة سهر نابليون في سانت هيلينا؟ مثل هذه الأسئلة علمية على معنى ما، ما دامت تُعنى بوزن مصادر الأدلة المختلفة، وهي من الأمور التي يصح للمؤرخ أن يتوجه بها إلى غيره من المؤرخين لأن الاعتبار المتعلقة بها تحتمل الغموض والتخصص، ومثل هذا العمل مفروض سلفاً في كل من يتعرض لكتابة التاريخ على نطاق واسع. ومهما يكن من اصطناع الفن في التاريخ، فإنه يجب أن يخضع لضوابط الصدق في الوقائع، لأن الصدق وإن يكن قاعدة من قواعد الفن إلا أنه في ذاته ليس ضميناً للامتياز الفني، لأنه كقواعد القصيدة التي تلتزم بمنتهى الأمانة دون أن يسبغ التزامها على النتيجة أي فضل، ولكن التاريخ لا يمكن أن يستحق الثناء ولا حتى من وجهة نظر فنية محضة إلا أن يبذل المؤرخ كل جهده للمحافظة على ولائه للوقائع، وفي هذا يكون العلم جوهرياً جداً لدراسة التاريخ.

وهناك معنى آخر يكون به التاريخ علماً، وهو معنى يثير مسائل أصعب لأنه يكمن في بحث التاريخ عن القوانين العلية التي تربط الوقائع المختلفة بعضها إلى بعض كما فعلت علوم الطبيعة ونجحت في الكشف عن الروابط المتشابكة بين الوقائع، ومحاولة الكشف عن قوانين عليّة في التاريخ محاولة تستحق الحمد كل الحمد، ولكنني لا أعتقد أنها هي التي تسبغ على الدراسات التاريخية أكبر قيمتها. وقد عرضت لي مناقشة تبعث على الإعجاب في هذا الموضوع في مقال قرأته منذ أربعين سنة ونسيت سائره. ذلك هو مقال جورج تريفيليان «كليو إلهة الفن الجميل» حيث يلاحظ أننا في التاريخ نعنى بالواقعة نفسها إلى جانب عنايتنا بالترابط بين الوقائع،

(١) مؤرخ بيزنطي عاش في القرن السادس الميلادي.

فربما صح ما يدعيه البعض من أن نابليون قد خسر موقعة ليبزيج لأنه أكل ثمرة خوخ بعد موقعة درسدن، وإن صح هذا فعلاً فهو شيء غير عديم الأهمية إلا أن الواقعتين اللتين يربط بينهما أهم منه بكثير. أما في علم الطبيعة فعكس هذا تماماً هو الصحيح، فالكسوف مثلاً ليس كبير الأهمية في ذاته ولا يهمننا إلا حين يحدد لنا نقطاً من التاريخ القديم كالكسوف الذي حدث في آسيا الصغرى والذي يساعد في تحديد زمان طاليس^(١)، وكالكسوف الذي حدث في الصين في سنة ٧٧٦ ق. م (يعتقد بعض فقهاء الفلك أنه حدث سنة ٧٧٥ ق. م وأنا أترك هذه المسألة للمؤرخين والفلكيين) ولكن على الرغم من قلة أهمية حالات الكسوف في ذاتها، إلا أن القوانين التي تحدد حدوثها على أكبر جانب من الأهمية واكتشافها كان أكبر عامل مهم في القضاء على الخرافات. ومثل هذا يقال عن الوقائع التجريبية التي بني عليها علم الطبيعة لأنها في ذاتها لا أهمية لها لولا ما تقرره من قوانين العلية فيما بينها ولا كذلك التاريخ، فإن جل قيمة التاريخ تذهب أدراج الرياح إذا لم تعن بالأحداث من أجل ذواتها فهو في هذا كالشعر حيث يرضى تشوقنا أن نكتشف السبب الذي دفع كولردج لكتابة «قبلاي خان» كما كتبها، ولكن هذا السرور تافه بالقياس إلى السرور التي نستشعره من القصيدة نفسها.

ولست أقصد إنكار جدوى اكتشاف التتابع العلي في التاريخ كلما أمكن ذلك، ولكنني أعتقد أن هذا الإمكان محدود في مجال ضيق نوعاً. فقانون جريشام^(٢) «إن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة» يقوم مثلاً على أحسن هذه الروابط العلية المؤكدة، وعلم الاقتصاد بأكمله، بمقدار ما هو صحيح، يتكون من قوانين سببية قامت على وقائع تاريخية. ولكن كل إنسان يعرف الآن أن قوانين الاقتصاد المزعومة لها صيغة

(١) طاليس هو أول فيلسوف يوناني من أيونية ولذا يُدعى أبا الفلسفة (٦٤٠ - ٥٤٨ ق. م).

(٢) سير توماس جريشام (١٥١٩ - ١٥٧٩): مؤسس السوق الملكية الإنجليزية.

مؤقتة ومحلية إلى درجة أكبر بكثير مما كان معتقداً منذ مائة عام، ومن المصاعب التي تقف في سبيل البحث عن مثل هذه القوانين أن الظواهر فيها لا تتكرر في التاريخ بمثل كثرة تكرارها في الفلك، فربما صح ما يزعمه «مايرز»^(١) Mayers في كتيبه (فجر التاريخ) من أن أربع مرات منفصلة حدث فيها الجفاف في جزيرة العرب فأدى في كل منها إلى موجة من الفتوح السامية، ولكن يصعب جداً أن نفترض الآن أن هذا السبب سيحدث هذه النتيجة في الوقت الحاضر. وحتى إذا تقرر التابع العلي التاريخي فيما يختص بالماضي فلا سند لأن نتوقع أنه سيطرد في المستقبل، لأن الوقائع الداخلة في الاعتبار من التعقيد لدرجة أن أي تغيير غير منظور قد يخطئ توقعاتنا، فما كان في طوق أي مؤرخ في القرن الرابع عشر مهما يبلغ من علمه أن يتنبأ بالتغيرات التي أحدثها كولومبس وفاسكودا جاما، ولهذه الأسباب جميعاً لا أظن أن القوانين العلية في التاريخ من الأهمية وقابلية الاكتشاف بالقدر الذي يظنه البعض أحياناً. ويصدق هذا بنوع خاص على تلك المشروعات الكبرى في التاريخ التي شغفت عظماء الرجال من القديس أوغسطين إلى البروفسور توينبي^(٢). وإن أهم أصحاب النظريات العامة في تطور حياة الإنسان في العصر الحديث هما هيجل وتلميذه ماركس، وكلاهما كان يعتقد أن التاريخ الماضي يجري على سنة منطقية، وإن هذه السنة يسرت أمر التنبؤ بالمستقبل. وكلاهما لم يتنبأ بالقنبلة الأيدروجينية ولم تلتق حتى اليوم أي نظرية في تطور الإنسان تمكننا من التنبؤ بآثار هذا الاختراع الرائع. وإذا كان هذا التحليل مقبضاً فهاكم آخر أبعث على السرور: لست أستطيع أن أقبل نظرة شبنجلر^(٣) التي ترى أن المجتمع لا بد أن يشيخ وينحل شأن الأفراد بل أظن أن هذه النظرة تنجم عن المغالاة في تمثيل المجتمع بالكيان العضوي للفرد،

(١) إدوارد مايرز مؤرخ ألماني ولد في هامبورج سنة ١٨٥٥.

(٢) البروفيسور السير أرنولد توينبي المولود سنة ١٨٨٩ صاحب «دراسة في التاريخ» (١٢ مجلداً).

(٣) أوزوالد شبنجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦): فيلسوف وعالم ومؤرخ ألماني.

والحقيقة أن معظم المجتمعات قد هلكت بالقتل لا بالشيخوخة. وربما تراءى للبعض أن المجتمع الصيني كان متداعياً منذ سقوط ملكية هان، ولكنه ظل قائماً لأن البلاد الواقعة على حدود الصين الغربية كانت نزرة السكان. والذي قضى أخيراً على مدينة الصين التقليدية لم يكن ضعفاً أو انحلالاً طارئاً، بل كان تحسن المواصلات بينها وبين الغرب. وقد اعتقد بعض الرواقيين أن العالم سيتلاشى على دورات بفعل النار ثم يخلق من جديد، وهو رأي يتضح فيه عنصر موافق لتصورات الناس الفطرية، ويعود للظهور في صورة أخف في كل نظرية عامة في التطور الإنساني مما أبدعه المؤرخون وكلها فيما أرى لا تعدو أن تكون أساطير موافقة أو غير موافقة حسب مزاج مبتدعيها.

وفي التاريخ جانب كان دائماً يهمني، ربما إلى مدى أبعد من أهميته الذاتية، ذلك هو جانب المنعرجات في التاريخ: تلك الجماعات التي انعزلت عن تيار بلادها ثم انسربت في مسارب خفية حتى انطوت في تيار نهر آخر. من هذا أنني كنت مفتوناً باليونان الباكترانيين، وكنت أظن أنهم انقرضوا تماماً كنهر ضاع في الصحراء ثم علمت لسروري غير القليل أنهم قد أصبحوا منبع الفن البوذي ومصدر نحت التماثيل في الشرق مدى أجيال. ومثل آخر لهذا النوع نفسه من المنعرجات هو مثل البوجوميليين^(١) في بلغاريا الذين كانوا من تلاميذ مارشيان^(٢) وماني^(٣) غير الظاهرين والذين اعتنق أفكارهم الكاثاريون في شمال إيطاليا والألبون في جنوب فرنسا عن طريق بعض الصليبيين المضللين، وأظهر من هذين مثل يظهر في تاريخ إنجلترا الجديدة، فقد كنت أعلم منذ طفولتي الباكترية بحركة تطهير «برايد» حينما أزعج ذلك الجندي المتعالي البرلمان الطويل باسم الحقيقة

(١) البوجوميليون طائفة دينية نشأت في بلغاريا وظلت قائمة حتى الغزو الإسلامي في القرن التاسع عشر.
(٢) إيلوس مارشيان من رجال القانون الرومان كتب في القرن الثالث الميلادي عن المؤسسات وعن التنظيمات.
(٢١٦ م) فيلسوف فارسي يرجع كفة الشر على الخير.

اللاهوتية والأجور المستحقة للجنود، ولكن لم يطرأ لي أن أبحث عن مصير برايد بعد سنة ١٦٦. وفي سنة ١٨٩٦ أخذت إلى مكان في إنجلترا الجديدة يقال له (تقاطع برايد) وقيل لي إنه سمي بهذا على اسم بطل التطهير التاريخي الشهير؛ وعلمت أنه اضطر إلى ترك موطنه والإقامة على ساحل صخري أبد، شتاؤه طويل وأرضه قاحلة وسكانه هنود خطرون، وربما ظن شارل الثاني ورجال بلاطه، أن برايد قد لقي نهايته. ولكن بعد قرنين ونصف من الزمان ها هم أبناء شارل الثاني يرتجفون إذا قطب أبناء برايد لهم وجوههم.

والآن أدخل إلى موضوعي الرئيس، وهو ماذا يستطيع التاريخ أن يفعله وينبغي أن يفعله للقراء عامة؟ ليس ما أفكر فيه هو ما يفعله التاريخ للمؤرخين بل أفكر في التاريخ من حيث هو جزء جوهري من الأثاث العقلي للمثقفين، فإننا لا نعتقد أن الشعر لا ينبغي أن يقرأه غير الشعراء ولا أن الموسيقى لا ينبغي سماعها لغير الموسيقيين، وكذلك الأمر في التاريخ لا ينبغي أن يقتصر العلم به على المؤرخين، وهكذا يتضح أن نوع التاريخ الذي يضيف شيئاً إلى الحياة العقلية لغير المشتغلين به لا بد أن يتسم بسمات معينة لا تشترط في عمل أكثر احترافاً، وكذلك لا يتطلب أشياء مما يجب أن تتوفر في عمل علمي فريد. وسأحاول أن أذكر، على ما أجد في هذا السبيل من الصعوبة، ما استفدته شخصياً من قراءة التاريخ. وأبدأ بأن أسجل أن أول وأولى شيء هو إحداثه امتداداً جديداً في الحياة الفردية هو الإحساس بأن الفرد قطرة في نهر كبير وليس كمّاً منفصلاً شديد التحديد. إن الذي تنحصر همومه في الفترة القصيرة بين مولده ومماته رجل على بصره غشاوة وفي نظره ضيق قل أن يتسع معه مجال آماله ورغباته. والذي يصدق على الفرد هنا يصدق على الجماعة، فإن الجماعات التي ليس لها تاريخ طويل تنشئ في نفوس الأوروبيين إحساساً غريباً بالعزلة والضحالة، ذلك أنهم لا يشعرون بأنهم ورثة الأجيال ولهذا فما يهدفون إلى

نقله إلى خلفائهم تظهر عليه سمة لتفاهة وضحالة العاطفة عند من كان الماضي عنده حيًّا والمستقبل مضيئًا بمعرفة أمجاد الماضي البطيئة المؤلمة في تحقيقها أن التاريخ يعلم الواحد منا أن لا نهاية لشؤون الإنسان: ليس ثمة كمال ثابت ولا حكمة لا تقدم بعدها. فأيا ما تبلغ الحكمة التي وصلنا إليها فهي قليلة بالقياس إلى ما يمكن الوصول إليه. وأي اعتقاد نعتقده، وإن يكن مما نظنه بالغ الأهمية، ليس بباق مدى الدهر، ولو تخيلنا أنه يحتوي على الحق الأبدي، فإن المستقبل كفيل بأن يضحك منا. إن اليقين المغرور مصدر لكثير من أسوأ سيئات عصرنا، وهو شيء في يد التاريخ أن يشفيانا منه، لا لأن في التاريخ الماضي حكماء وحسب، بل لأن في التاريخ كثيرًا عددناه في أعلى مراتب الحكمة ولم يلبث أن تبين أنه سخف، مما يوحي بأن كثيرًا من حكمتنا المزعومة لن تصادف أحسن من هذا المصير.

ولست أقصد أن نستنيم إلى شكية حاملة، بل ينبغي أن نتمسك بمعتقداتنا وأن نتمسك بها بقوة، فما من عمل عظيم بغير العاطفة ولكن يجب أن يستقر تحت عواطفنا ذلك المدى الواسع اللا شخصي الذي يحد من أفعالنا التي تستوحي الانفعال، فإن كنت تسيء الظن بالشيوعية أو الرأسمالية فهل تقضي على الجنس البشري لكيلا يبقى على ظهر الأرض شيوعي أو رأسمالي حسب الأحوال؟ قل أن تجد من يترك على أن هذا عمل حكيم، ومع هذا فهو المصير الذي يقود الإنسانية إليه فريق من الساسة من غير ذوي العقلية التاريخية، وهو مثل متطرف، ولكن لا يصعب أبدًا أن نجد له أكثر من ضريب.

فلنترك إذن هذه الأفكار العامة غير المطردة نوعًا، ولنسأل كيف يجب أن يكتب التاريخ إن كان له أن ينتج خير نتاجه في نفس القارئ غير التاريخي. هناك أولاً شرط على أكبر جانب من البساطة: ذلك هو أن يثير الشغف، وأعني أن يكون مثيرًا للشغف لا لمن يريدون لسبب خاص بهم أن يلموا ببعض وقائع التاريخ وحسب،

بل لمن يقرأون التاريخ بالروح التي يقرأون بها الشعر أو الرواية الجيدة، وهذا يقتضي أولاً وقبل كل شيء أن يشعر المؤرخ شعوراً معيناً إزاء الحوادث التي يقصها والشخصيات التي يصورها. طبعاً من واجب المؤرخ ألا يشوه الحقائق ولكن ليس من واجبه ألا يتحيز لجانب معين في مصطرح المنازعات التي تملأ صفحاته، فالمؤرخ الذي لا يتحيز بمعنى أنه لا يؤثر جانباً على جانب ولا يسمح لنفسه بأن يكون له أبطال وأشرار من شخصياته مؤرخ بليد، وإذا كان للقارئ أن يستثار شغفه فلا بد أن يسمح له بالتحيز في المسرحية، فإذا أدى هذا بالمؤرخ إلى أن ينحصر في جانب واحد، فعلاجه الوحيد أن نقرأ مؤرخاً آخر يتخذ الجانب الآخر. فمن الممكن مثلاً لتاريخ عصر الإصلاح أن يكون مثيراً إذا كتبه مؤرخ بروتستانتي، ومن الممكن أن يكون مثيراً بالدرجة نفسها إذا كتبه مؤرخ كاثوليكي. وإذا أحببت أن تعرف كيف كانت الحياة في عصر الحروب الدينية فربما أفلحت في غرضك لو أنك قرأت تاريخ البروتستانت والكاثوليك معاً، ولكن لن تنجح إذا اقتصرت على قراءة رجال ينظرون إلى سلسلة الأحداث كلها نظرة التعالي والتباعد. لقد قال كارليل عن كتابه «الثورة الفرنسية» إن كتابه نفسه نوع من الثورة الفرنسية، وهذا حق وهو يعطي الكتاب فضيلة دائمة على الرغم من قلة استيعابه بوصفه سجلاً تاريخياً، فحينما نقرأه نفهم لماذا فعل الناس ما فعلوا، وهذا أمر من أهم ما ينبغي على التاريخ أن يقدمه للقراء. حدث أن قرأت ما كتبه ديودورس سيكولوس^(١) عن أجاثوكليس^(٢) إذ أظهره وغداً لم يهذب، ثم رجعت إلى أجاثوكليس في أحد المراجع الحديثة فوجدته يصوره لطيفاً وعلى سمت رجال الحكم وربما كان بريئاً من كل ما نسب إليه، فليست لدي وسيلة أتأكد بها أي الرأيين الصواب ولكنني أعلم أن التبرئة لم تكن مثيرة على الإطلاق، ولست أحب هذا الميل الذي يميل إليه بعض المحدثين

(١) مؤرخ إغريقي ولد في صقلية وعاش في زمن قيصر وأوغسطس.

(٢) أجاثوكليس (٣٦١ - ٢٨٩ ق. م) دكتاتور سراقوسة.

في تشذيب كل عمل أخذ وتصوير الأبطال أقل بطولة والأشرار أقل شرًا. نعم لا شك أن حب المسرحيات قد يضل المؤرخين ولكن هناك ذخيرة من الأعمال المسرحية الأخاذة تقتضي عدم التزييف، وإن لم يكن في طوق غير المهارة الأدبية أن تنقلها إلى القراء.

إن «المهارة الأدبية» كلمة واسعة وعامة وربما كان مجدياً أن نحدد لها معنى معيناً خاصاً بها. فهناك أولاً الأسلوب بمعناه الضيق وخاصة الكلام والإيقاع، فمن الكلمات ما لا يحمل إلا المعنى القاموسي وخصوصاً تلك التي نحتت للأغراض العلمية، فمثلاً لو صادفت كلمة «تراهيدرن» في صفحة ما فقد تشعر في التو بالانقباض ولكن كلمة (هرم) لطيفة غنية تستدعي صور الفراعنة والأزتك للذاكرة. أما الإيقاع فأمر يتوقف على العاطفة: فما يثير فينا المشاعر القوية يثير على ألسنتنا بطبيعته تعبيراً متنوعاً موقعاً، ولهذا ولغيره من أسباب يحتاج الكاتب إلى قدر معين من تجدد الشعور الذي يتعرض كثيراً للقضاء عليه بالتعب وضرورة الرجوع إلى المراجع. وإني أعتقد، وإن كان هذا طلباً للكمال، إنه ينبغي على المؤرخ قبل كتابة الفصل أن يستوعب مادته في ذهنه استيعاباً لا يحتاج معه القلم للتريث حتى يتحقق مما يكتب. وليس معنى هذا أن التحقيق غير ضروري، فإن الذاكرة تخدع ولكن معناه أن يأتي التحقيق بعد الكتابة لا في أثناءها. إن الأسلوب، إذا كان حسناً، تعبير شخصي للغاية عن طريقة الكاتب في الشعور، ولهذا ولغيره من الأسباب يقتله التقليد حتى وإن كان تقليداً لأجمل الأساليب. قيل في مكان ما من «تاريخ المسيحية» لميلمان^(١)، وكلامي هنا من الذاكرة: «كانت البلاغة لا تزال تدرس دراسة فن جميل وإن كانت تعتبر مجرد فن» وربما شعرت روح جيبون بالألم لهذه الجملة إذا هي أطلت على

(١) ميلمان (١٧٩١ - ١٨٦٨): مؤرخ ورجل دين من أهم تواريخه «تاريخ اليهود» و «تاريخ المسيحية تحت الحكم الإمبراطوري».

ميلمان وهو يسجلها.

فإن كان للنقد العلمي أن يكون مشوقاً فلا بد للكاتب من فترة حضانة تلي التحصيل اللازم للمعلومات يتم فيها إلباس الوقائع المجردة بلباس من الوشائج المناسبة كالمشابهات أو التهكم أو ما إلى ذلك، وتنصب في وحدة نسقية كالمسرحية. ويستبعد أن يحدث هذا إلا إذا كان لدى المؤلف الوقت الكافي ولم يكن متعباً إلى درجة غير معقولة. فإن ذوي الضمائر خليقيون أن يجتهدوا جهداً يتلف نتائج قرائحهم، من ذلك أن بيجهوت^(١) يتحدث في بعض كتاباته عن أناس يعرفهم في دوائر المال والأعمال^(٢) قد أفلسوا لأنهم كانوا يعملون ثماني ساعات في اليوم وكان يمكن أن يثروا إذا هم اقتصروا على أربع ساعات، واعتقادي أن كثيراً من العلماء يمكنهم أن يكسبوا بالاعتاظ بهذا المثل.

وفي نطاق التاريخ بوصفه فناً أنواع متعددة من التاريخ لكل منها ميزته الخاصة، وتتمثل إحدى هذه المزايا بنوع خاص في جيون الذي يعرض أمانا موكباً عظيماً من الشخصيات ماضية عبر الأجيال؛ كلها في ثياب التشريفة ولكنها كلها أيضاً فردية. وقد كنت منذ زمن بعيد أقرأ عن زنوبيا^(٣) في (تاريخ كمبريدج القديم) وبحزني أن أقول إنها لم تشوقني ألبتة، فتذكرت بشيء من الغموض قصتها الحية في جيون وما هو إلا أن رجعت إليها هناك حتى اكتست السيدة الخبيرة بثوب الحياة فقد كان لجيون مشاعره نحوها وتخيل كيف يكون الأمر في بلاطها. فكتب ما كتب بخياله هو لا بمجرد الرغبة الباردة في سرد الأحداث المعروفة. ولعله من الغريب ألا يشعر المرء بمزيد من النفور من أن شخصياته

(١) والتر بيجهوت (١٨٢٦ - ١٨٧٧): صحفي اقتصادي سياسي تولى رئاسة تحرير مجلة الإيكونومست بعد مؤسسها، وأشهر كتبه الدستور الإنجليزي.

(٢) المسماة بالإنجليزية The City أي «المدينة» أخذنا بهذه الترجمة منعاً للبس.

(٣) ملكة تدمر المعروفة في الأدب العربي باسم «الزباء».

كلها قد صبت في قالب القرن الثامن عشر، وأذكر أنه تحدث في معرض الكلام عن الفاندال بعد العصر الجنسري عن «طغاة أفريقيا المهذبين»، ولست أجد في مقدوري أبداً أن أتصور هؤلاء الناس مهذبين وإن كنت لا أجد صعوبة في تصديق طغيانهم. ولكن لأمر ما وعلى الرغم من هذا القصور، كان جيون ينقل شعوراً حياً بشكل غريب عن مسار الحوادث خلال القرون التي يعالجها، وكتابه يبين ما أنا واثق أنه الحق، وهو أن التاريخ العظيم لا بد أن يكون عمل رجل واحد، ولا قبل بإتمام مثله لطائفة يعالج كل عضو منها موضوع اختصاصه. لقد تنوع العلم وتعدد حتى ظن أن من المستحيل لأي عقل واحد أن يحيط بموضوع كبير ولكني متأكد أن هذه غلطة ضخمة وخيمة العاقبة لأنه إن كان للكتاب أن يكون ذا قيمة غير كونه مرجعاً، فينبغي أن يكون من عمل عقل واحد وأن يكون نتيجة الإحاطة بفروع وشعاب ضخمة في وحدة مزاج فرد. وإني لأبادر بالاعتراف بأن هذا يزداد صعوبة يوماً بعد يوم، ولكني أعتقد أن من الممكن ابتداء الوسائل التي تمكن منه، بل إنها يجب أن تبتدع إذا أردنا ألا تكون التواريخ العظيمة من ذكريات الماضي البعيد.

إن المطلوب هو تقسيم العمل، فقد استفاد جيون من تيليمونت^(١) وربما لم يستطع دون ذلك أن يتم عمله في حياته. ومن المحتمل أن لا يجد عالم الحفائر أو الباحث في المخطوطات القديمة الوقت والطاقة التي تهيم له كتابة التاريخ على نطاق كبير، فلا يجب أن نتوقع ممن يكتب التواريخ الكبيرة أن يقوم بنفسه بالبحث في الانقراض، وهذا شيء معترف به في العلوم، فقد بنى كبلر^(٢) قوانينه

(١) لويس سباستيان تيليمونت (١٦٣٧ - ١٦٩٨): مؤرخ فرنسي.

(٢) جوهانس كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠): فلكي ألماني يعد أحد أربعة يرجع إليهم الفضل في تأسيس علم الفلك الحديث.

على ملاحظات تيخو براي^(١)، وبنى كلارك مكسويل^(٢) نظرياته على تجارب فاراداي^(٣) ولم يقد أينشتاين^(٤) بنفسه بالمشاهدات التي أرسى عليها آراءه، فإن جمع الحقائق عمومًا شيء وهضمها واستيعابها شيء آخر. وحيث تعدد الوقائع وتعتقد لا يكاد يتيسر للفرد الواحد أن يقوم بالعملين معًا، فلو فرض مثلاً أنك تود أن تعرف أثر المدنية المينوية على مدينة الإغريق القديمة فلا يجوز لك أن تتوقع الرأي المتوازن المبني على العلم حقًا من رجل قضى حياته باحثًا محققًا للوقائع المينوية على ما في ذلك من المشقة. ويقال مثل هذا أيضًا على المشكلات التي لا تبلغ هذا المبلغ من الغموض كأثر بلوتارك^(٥) مثلاً على الثورة الفرنسية.

واسم بلوتارك يستحضر لنا جانبًا آخر من التاريخ، فليس التاريخ تصوير الحوادث التاريخية الضخمة وكفى، ولا هو رسم الأنواع المختلفة من المجتمعات وحسب، بل إنه يهتم مثل اهتمامه بهذين الأمرين بالأفراد الذين يستحقون الاهتمام لذواتهم. ولقد حفزت «تراجم عظماء اليونان والرومان» التي كتبها بلوتارك كثيرًا من الشباب الطامحين إلى جلائل الأعمال التي لم يكن منظورًا أن يقدموا عليها لولاه. وأعتقد أننا في هذا العصر نميل إلى إغفال الأفراد والاهتمام البالغ بكتل الجماهير، وقد تمكن منا الاعتقاد بأننا نعيش في زمن «الإنسان العادي» حتى أصبح الناس عاديين وإن كان في وسعهم ألا يكونوا كذلك، كما أن هناك حركة، وخصوصًا في تعليم التاريخ للصغار، تجنح نحو تأكيد أنماط الثقافة والحضارات في مقابل خوارق الأبطال، وهي حركة تستحق

(١) تيخو براي أحد الأربعة المذكورين، دانمركي عاش فيما بين (١٥٤٦ - ١٦٠١).

(٢) جيمس كلارك ماكسويل (١٨٣١ - ١٨٧٩): عالم طبيعي اسكتلندي وأحد رواد الكهرباء ومغناطيسية.

(٣) ميكيل فاراداي (١٧٩١ - ١٨٦٧): أحد أقطاب الكهرباء والكيمياء الإنجليز.

(٤) ألبرت أينشتاين (١٨٧٩ - ١٩٥٥): صاحب النظرية النسبية المشهورة.

(٥) بلوتارك أو فلوطرخس (٤٦ - ما بعد ١٢٠ م): صاحب السير المقارنة بين أعيان اليونان والرومان.

الثناء في حدودها، فإننا لا شك نحصل على إحساس أحسن بتطور الأحداث إذا قيل لنا شيء عن كيفية الحياة التي كان يحياها الإنسان الكروماني أو إنسان نياندرتال، ومن الصحيح أن نعرف شيئاً عن محتويات المنازل التي كان يسكنها رومانيون لم يذكرهم بلو تارك، وإن كتاباً ككتاب «عامل القرية» لمؤلفه هاموند^(١) ليعرض لنا حقبة كاملة من وجهة نظر ليس لها ضريع في كتب الأقدمين. كل هذا حق وكل هذا مهم، ولكن غير الحق على أهميته، بل الزيف الوبيل هو ما يتطرق إلى الأذهان حين يدرس التاريخ بهذه الطريقة وحدها فإرضاً أن الأفراد لا حساب لهم وأن من تواضعنا على تسميتهم أبطالاً ليسوا في الحقيقة إلا تجسيد العوامل الاجتماعية، وإن أعمالهم كانت لا بد واقعة بهم أو بغيرهم، وإن الفرد لا يمكنه على العموم أن يحسن إلى نفسه بأحسن من أن يترك نفسه لتيار الزمن يحمله حيث يشاء. وأشنع ما في هذه النظرة أن اعتناقها يؤدي إلى تحقيقها، فإن حياة البطولة إنما تتمخض من طموحات البطولة وإن الشباب الذي يعتقد أنه لا يوجد شيء مهم ذو بال يعمل به، لن يعمل شيئاً ذا بال، ولهذا فإني أعتقد أن نوع التاريخ الذي يمثله بلو تارك في تراجمه ضروري كضرورة النوع المعمم من التواريخ، فما أقل من يصنعون المجتمعات: ليس في عصرنا الحديث من هؤلاء إلا لينيون وستالين ولكن عدداً أكبر جداً من هذا من الناس يستطيعون أن يحققوا حياة فردية ذات بال، ولا ينطبق هذا على من اعتبرهم نماذج تحتذى وحسب، بل ينطبق على كل من يغذي خيال الإنسان بشيء من الغذاء. فلا شك في أن الإمبراطور فردريك الثاني مثلاً لا يستحق أن يقتدي به، ولكنه قطعة فاخرة ولا شك في أن أثاث أذهان الرجال، إذ من ذا الذي لا يؤسفه كما يؤسفني ألا يعلم شيئاً عن «أعجوبة العالم» وهو ينتقل هنا وهناك تتبعه أفقاص حيواناته المتوحشة التي يستكملها آخر الأمر

(١) جون لورنس هاموند (١٨٧٢ - ١٩٤٩): صحفي ومؤرخ من حزب الأحرار.

بوضع رئيس وزارته في قفص منها، ثم وهو يجادل شيوخ المسلمين ويكسب الحروب الصليبية وهو منبوذ من المسيحيين؟! إننا جميعاً نؤمن بجدوى التعرف على أبطال المآسي الكبرى كأجاممنون وأوديب وهاملت ومن شاكلهم، ولكن من الناس من كانت حياتهم على صفة حياة أبطال المآسي العظام ويزيدون عليهم بميزة الحياة الواقعية فإن كل أشكال العظمة، إلهية كانت أو شيطانية، لتتشارك في صفة معينة، وما أرى أن أرى هذه تسحق وتسوي تحت ضغط عبادة الأوساط. فلما زرت أمريكا لأول مرة منذ ستين سنة تقريباً تعرفت بسيدة أنجبت ابناً قبل ذلك بقليل وسمعت من يتمنى لها أن يكون عبقرياً، فأجابته السيدة بذعر قلبي عميق: «أواه. أرجو ألا يكون» وقد استجيت للأسف دعوتها.

ولست أقصد بهذا أن أنحاز إلى عبادة بطولة كارليل، فضلاً عن مبالغة نيتشه فيها، ولست أحب أن يفهم عني لمحة واحدة أنني أعتقد أن الإنسان العادي عديم الأهمية، ولا أن دراسة الكتل البشرية أقل استحقاقاً للعناء من دراسة الأفراد البارزين، ولكنني أحب أن أحفظ التوازن بين الدراستين. فإني أعتقد أن الأفراد البارزين قد صنعوا الكثير في تشكيل التاريخ، وأعتقد أن لو مات أقدر مائة عالم من علماء القرن السابع عشر في طفولتهم لاختلفت حياة الإنسان العادي في كل مجتمع صناعي اختلافاً جوهرياً عما هي عليه الآن. ولا أعتقد أن لو لم يعش شكسبير وملتون^(١) لقام غيرهما بتأليف ما ألفاه، ومع ذلك فإن هذا هو ما يحاول بعض المؤرخين «العلميين» أن يغرسوه في أذهاننا.

وسوف أخطو خطوة أخرى نحو الاتفاق مع من يؤكدون أهمية الفرد، أنني أعتقد أن أقمن شيء في شؤون الإنسان بالمعرفة والإعجاب له شأن بالأفراد أكثر مما له بالجماعات، فلست أظن أن للجماعة الإنسانية قيمة تعلو وتفوق مجموع قيم أفرادها،

(١) جون ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤): من أعظم شعراء الإنسانية وصاحب «الفردوس المفقود».

وأعتقد أن من الخطورة بمكان أن يتغافل التاريخ عن القيمة الفردية تمجيذاً للدولة أو الأمة أو الكنيسة أو أي جماعة من هذا القبيل، ولن أنزلق إلى أكثر من هذا في هذا الموضوع خوفاً من الوقوع في السياسات.

ولقد تضاعف شغف القارئ العادي بالتاريخ فيما أرى خلال القرن الحاضر، وإنه لشيء مؤسف غاية الأسف بالنسبة لي. ولهذا التضاؤل عدة أسباب أولها أن القراءة عموماً قد تضاعلت، فقد أخذ الناس يذهبون للسينما وينصتون للراديو ويشاهدون التلفزيون وينغمسون في رغبات غريبة هدفها أن يغيروا موضعهم من سطح الكرة الأرضية التي يتضافرون بكل جد على جعلها متشابهة في كل مكان. ولكن حتى أولئك الذين ما زالوا على العادة القديمة في القراءة الجادة قد أصبحوا ينفقون وقتاً أقل في قراءة التاريخ مما كان يفعل سابقوهم، فقد كان صديقي هوايته مثلاً يتخذ من كتاب باولو ساربي «تاريخ مجلس ترنت» رفيق الفراش، فهل في الأحياء الآن من يفعل هذا الصنيع؟ لقد فقد التاريخ ما كان له من أهمية، من ناحية لأن الحاضر مليء بالحوادث المهمة مفعم بالتغيرات السريعة إلى درجة لا تتيح للكثير من الناس أن يجدوا الوقت ولا الرغبة الكافية في أن يوجهوا انتباههم للقرون الماضية، فإن ترجمة عن هتلر أو لينين أو ستالين أو تروتسكي^(١) تتساوى في ذاتها في الأهمية مع ترجمة عن نابليون وتزيد عليها بارتباطها بالمشكلات الحاضرة. إلا أننا يجب أن نعترف بأن هناك سبباً آخر لتضاؤل قراءة التاريخ، وهو تضاعف الكتابة التاريخية الفخمة. لست أدري كم كان يتلهف المعاصرون على كتاب هيرودوت^(٢)، وثيوسيديدس^(٣)، وبوليبيوس^(٤)،

(١) ليو تروتسكي (١٨٧٩ - ١٩٤٠) الرجل الثاني بعد لينين في الثورة الروسية.

(٢) هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م) يعد أبا التاريخ والقائل «مصر هبة النيل».

(٣) ثيوسيديدس (٤٦٤ - ٤٠٠ ق.م) مؤرخ أثيني أرخ للحرب البلوونيزية.

(٤) بوليبيوس (٢٠٣ - ١٢٠ ق.م) مؤرخ يوناني قديم.

وبلوتارك، وتاسيتوس^(١)، ولكننا جميعاً نعلم الشغف الذي كان يقابل به المؤرخون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فكان في بريطانيا موكب طويل منذ «تاريخ حركة التمرد»، لكларندون^(٢) إلى ماكولي^(٣)، وكان التاريخ في فرنسا منذ أيام فولتير^(٤) ميداناً للصراع بين الفلسفات المتنافسة، وكان المؤرخون في ألمانيا تحت تأثير هيجل يمزجون الألمعية بالشر بنسب متساوية إذ لا أعتقد أنني أظلم مومسن^(٥) لو قلت عنه إن لتاريخه موضوعين: أحدهما عظمة قيصر لأنه حطم الحرية والآخر أن قرطاجنة تشبه إنجلترا، وروما تشبه ألمانيا وأن الحرب البونية القادمة، التي كان يتشوف إليها، ستمخض عن مثل ما تمخضت عنه شبيبتها القديمة. والاعتراف عام شامل بما كان لتريتشكة^(٦) من أثر على نشر أي أسطورة وبيلة، وإذن فإننا حين نتكلم عن أهمية التاريخ يجب أن نعترف بأهميته في الشر وفي الخير على السواء، وهذا ينطبق بنوع خاص على الخرافات الشائعة التي أصبحت بالتدريج جزءاً من الثقافة الشعبية. فقد ذهبت ذات مرة إلى إيرلندا في صحبة ولدي الصغيرين فتصادقت ابنتي وكان عمرها خمس سنوات مع فلاحه قابلتها بالشيء الكثير من العطف والمودة، فلما أزمعنا الرحيل قالت الفلاحه: «إنها بنت طيبة على الرغم من كرومويل». فما أبلغ الأسف أن تلك المرأة لم تعلم من التاريخ أكثر مما علمت ولا أقل.

إن تهافت كتابة التواريخ العظيمة لا يعدو أن يكون جزءاً من تهافت كتابة

(١) تاسيتوس أو تاكيتوس (٥٥-١١٧) مؤرخ روماني.

(٢) كلارندون (١٦٠٩-١٦٧٤) مؤرخ إنجليزي وأحد أنصار الملك ضد كرومويل.

(٣) ماكولي (١٨٠٠-١٨٥٩) سياسي ومؤرخ إنجليزي من أشهر كتبه «تاريخ إنجلترا».

(٤) فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) الفيلسوف الفرنسي الساخر وأحد مقدمات الثورة الفرنسية.

(٥) تيودور مومسن (١٨١٧-١٩٠٣) مؤرخ ألماني.

(٦) تريتشكة (١٨٣٤-١٨٩٦) المؤرخ والكاتب السياسي الألماني الذي وجهت كتاباته السياسة الداخلية إلى

سياسة الحديد والنار.

الكتب العظيمة، فقد أصبح العلماء في يومنا هذا لا يكتبون كتبًا تناصي «مبادئ نيوتن»^(١) ولا «أصل الأنواع» لدارون، ولم يعد الشعراء يكتبون الملاحم، ففي عالم العلم أصبح كل شيء يجري بسرعة تجعل أي كتاب ضخمة ناضل الأهمية قبل أن ينشر، وأصبحت الإضافات إلى العلوم تظهر في الدوريات لا في الكتب المستقلة، وقل في كل فرع من فروع المعرفة من يشعرون أن لديهم الوقت الكافي لمعالجة موضوع كبير في تودة يتمخض عنها كتاب عظيم. نعم إن لهذه القاعدة شواذ أبرزها الأستاذ توينبي صاحب المؤلفات التي تبلغ في ضخامتها أضخم كتب الماضي، إلا أن هذه الشواذ من القلة بحيث لا تكفي لدحض الفكرة أو تغييرها عن الاتجاه العام، وأعتقد أن هذا الاتجاه سيستمر حتى يستقر العالم على هيئة ما للتقدم تكون أقل لهاثًا من تسابقه الحالي نحو الهاوية.

وأعتقد أن للتاريخ دورًا مهمًا في إعادة عالمنا المخمور إلى صوابه، ولست أعني بهذا أن أداء مهمته يتم بطريق أي نوع مفروض من «دروس التاريخ» بل لا يتم في الحقيقة بأي شيء يمكن وضعه بسهولة في جملة فعلية. إن ما يستطيع التاريخ أن يفعله وما ينبغي أن يفعله لا للمؤرخين وحدهم بل لكل من اتسع نطاق ثقافته وامتدت نظرتة للحياة، هو أن يحدث فيهم نوعًا من المزاج العقلي وطريقة التفكير والشعور إزاء حوادث العصر وعلاقته بالماضي والمستقبل، ولست على يقين أمن الصواب أم من الخطأ أن نصدق ما قاله كورنفورد عن ثيوسيديدس من أنه شكل تاريخه على نمط المأساة الأتيكية، ولكنه إن كان فعل فإن ما سجله من الحوادث مبرر كاف لما فعل، فلو نظر الأثينيون إلى أنفسهم نظرتهم إلى ممثلين في مأساة فلربما تأت لهم الحكمة والحصافة كي يتجنبوا النهاية المحزنة. والرأي القديم يقول إن المأساة تنجم عن التنطع، وقدم الرأي لا يغض من صحته،

(١) إسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) أكبر العلماء أثرًا على العلم الحديث.

فإن التنطع ليتكرر في كل عصر عند من ينسون الكوارث التي نجمت عنه. وقد أسلمت الإنسانية كلها في عصرنا هذا بنفسها إلى قدر من التنطع فاق كل ما حفظ التاريخ لنا في العصور الماضية. كان بروميثيوس في الماضي يعد محرراً، يكبح من عمله الخير طغيان زيوس، أما الآن فقد أصبحنا نتمنى أن يوجد زيوس آخر يكبح جماح أتباع بروميثيوس^(١) المحدثين، فقد كان بروميثيوس يهدف إلى خدمة البشر، وأصبح أتباعه المحدثون يخدمون عواطف البشر ولكنهم لا يخدمونها إلا بمقدار ما هي مخبولة ومخربة، وفي العصر الحديث رجال مهرة في المعامل، ورجال سخفاء في السلطة، والمهرة أرقاء كمردة قماقم ألف ليلة، والإنسانية في مجموعها تنساق وراء قيادة السخفاء وعبقريّة المهرة الأرقاء إلى حتفها بظلفها، ولكم أتمنى أن يكون بيننا ثيوسيديس لكي يعالج هذه الحالة بما تستحق، ولا يخالجنني أدنى شك أن لو كان لأصحاب السلطة فينا أي إحساس بالتاريخ لوجدوا الطريق إلى تجنب الكارثة التي نراها جميعاً تقترب والتي ليس فينا من يرومها الآن، فالتاريخ ليس مجرد سرد قصة هذه الأمة أو تلك، ولا حتى هذه القارة أو تلك، فإن موضوع التاريخ هو «هذا الإنسان» ذلك النتاج الغريب للتطور الذي ارتقى بالمهارة والمقدرة فوق كل أشكال الحياة بل وارتقى، على ما فيه من خطر على كيانه، حتى على قوى الطبيعة الصماء، إلا أنه بالرغم من مهارته لم يتعلم بعد كيف يفكر في الأسرة البشرية على أساس إنها أسرة واحدة. وعلى الرغم من أنه ألغى معيشة الغابة، فإنه لا يزال يسمح لنفسه بالخضوع لقانون الغابة، وقل عنده الإحساس بالعمل الإنساني المشترك، ونجاحه في الماضي وما يتوقع له من نجاح أعظم في المستقبل، فهو لا يرى في أخيه الإنسان مساعداً نحو غرض مشترك ولكن يراه عدواً سيقتل إن لم يقتل، ويعتقد أن طائفته أو حزبه مهما كان،

(١) بروميثيوس هو إله الحكمة والمعرفة عند اليونان، وزيوس هو كبير الآلهة الذي عاقب بروميثيوس لإعطائه الإنسان جذوة من النار الإلهية، ويرمز المؤلف بأولهما للعلماء وبالثاني للسلطة الحكام.

يحتوي على الحكمة الأبدية الخالصة وإن الطائفة الأخرى تحتوي على السخف الأبدي الخالص، وهو رأي مضحك لأي إنسان له أي قدر من الثقافة التاريخية. فليس في ماضي البشرية فئة واحدة كانت من الطيبة بما تظن نفسها عليه، ولا من الشر بما يظنها أعداؤها عليه. إلا أن البشرية في الماضي كانت تستطيع أن تحقق أغراضها المشتركة بالرغم من العناء. وإن كانت في تحقيقها متعثرة ومعرضة لبعض النكسات الموقوتة، ولكن في عصرنا هذا لا تتمشى المهارة الجديدة مع البقاء للبشر إلا أن يصاحبها نوع من الحكمة جديد، وهي حكمة لا تعد جديدة إلا بمعنى واحد: هو أن تجذب إليها كتل الجماهير، وأولى من الجماهير أن تجذب إليها المتسلطين على السلطة الكبيرة. فهي ليست جديدة بمعنى أن لم يدع إليها أحد من قبل، فقد دعا إليها الحكماء في كثير من العصور وإن لم يستمع أحد لنصيحهم، أما الآن فقد انقضى العهد الذي كان يمكن أن ينظر فيه إلى الحكمة على أنها الأحلام التاريخية لأصحاب الرؤى والتنبؤات. ولقد يراودني أحياناً في اللحظات التي يشتد عليّ فيها ضغط الخوف من الكارثة المتوقعة أن العالم يحتاج إلى نبي يجمع في صوته قصف الرعد وسابغ العطف يهيب بالبشرية أن طريقها هذا طريق ضال - طريق يقود إلى هلاك الأطفال وزوال الآمال - وأن ثمة طريقاً آخر يصح للإنسانية أن تسير فيه. وأنه هو الجادة التي تقودهم إلى عالم أحسن من أي عالم كان في الماضي. إلا أن هذه الرؤية عن نبي، وإن كان فيها شيء من العزاء الموقوت لا تكفي حاجة العالم، فحاجاته أصعب وأندر. فلو ظهر نبي في الشرق فسيقضي عليه تَوًّا، ولو ظهر في الغرب، فلن يستمع إليه في الشرق ولن ينجو من الطعن والتجريح في الغرب، ولن ينقذ العالم مجهود فرد واحد مهما عظم ومهما كانت بلاغته، بل ينقذه أن يشعر الحكام وأنصارهم في أقوى بلاد العالم أنهم جادون وراء سراب خلب يجذبهم نحو الهلاك الدنيء في وحل الكراهة الرعناء. لم يعم السخف الجماعي العالم كله بعد، فمن الأمم

من هي بعيدة عنه، ومنها من لم تصب إلا جزئيًا بعدواه، وما زال لنا أن نأمل أن يكون للبشرية مستقبل كما كان لها ماضٍ. وإنني أعتقد أنه لو تأتي يومًا ما للبشر أن يشعروا بهذا الأمل حيًا حياة تبعث القوة الفعالة فيه، فينبغي هناك أن يذكروا التاريخ لأنه عامل من أقوى العوامل التي لها صيحة خير مسموعة مستجابة.



كيف أكتب؟

لا أستطيع أن أدعي أنني أعرف كيف ينبغي أن تكون الكتابة، ولا ما قد ينصحني به ناقد حكيم لتحسين كتابتي، وكل ما أستطيعه هو أن أسرد بعض ملاحظات عن محاولاتي.

كنت أتمنى حتى سن الحادية والعشرين أن أكتب بأسلوب جون ستيوارت مل إلى حد كبير أو صغير، فإني أعجب بتركيب جملة وبطريقته في تفتيح الموضوع، ولكنني على كل حال كنت قد اتخذت لي مثلاً أعلى على خلافه، مستمداً فيما أظن من الرياضيات، فكنت أحب أن أقول كل شيء في أوجز عدد من الكلمات يتم بها الوضوح، وظننت أن ربما كان الأجدى أن أقلد بيدكر^(١) من أن أقلد أي أسلوب أدبي أعلى منه، ولربما قضيت الساعات باحثاً عن أقصر طريق أعبر به عن شيء في غير غموض. فهو الهدف الذي كنت أجدني مستعداً أن أضحي في سبيله بكل امتياز جمالي.

ولكن في الحادية والعشرين وقعت تحت تأثير آخر هو تأثير صهري المستقبل لوجان بيرسول سميث، الذي كان في ذلك الوقت مستغرقاً في الاهتمام بالأسلوب دون المادة، وكانت آلهته حينئذ هم فلوبيير^(٢) وولتر باتر^(٣). وكنت على أتم استعداد

(١) كارل بيدكر (١٨٠١ - ١٨٥٩) صاحب دليل بيدكر السياحي.

(٢) جوستاف فلوبيير (١٨٢١ - ١٨٨٠) قصاص فرنسي شهير.

(٣) وولتر باتر (١٨٣٩ - ١٨٩٤) كاتب وقصاص نادى بمبدأ الفن للفن.

أن أصدق أن طريقة تعلم الكتابة هي السير على نهجهم وقد أعطاني بعض القواعد البسيطة المتفرقة لا أذكر منها سوى اثنتين هما «ضع فصلة بعد كل أربع كلمات» و«لا تستعمل قط واو العطف إلا في بداية الجمل». ولكن أوثق نصائح وأؤكد لها كانت وجوب إعادة الكتابة. وقد حاولت اتباع هذه القواعد بإخلاص ولكنني وجدت أن النص الأول أحسن من الثاني، وهو اكتشاف وفر عليّ مدى ضخماً من الوقت. ولست أطبق هذا طبعاً على أي مضمون بل على الشكل فإني حينما أكتشف خطأ على جانب من الأهمية أعيد كتابة المقال كله، ولكن الذي لا أراه هو إمكان تحسين الجملة التي أرى عن مضمونها.

واكتشفت بالتدريج طرقاً للكتابة بأقل قدر من الربة والاضطراب، فلما كنت صغيراً كان يبدو لي كل جزء من العمل الجاد شيئاً يفوق قدرتي فترة ربما كانت طويلة من الزمان، فكنت أرتعش في حالة من العصبية خوفاً من أن يصدر على شكل غير صحيح، وكنت أقوم بمحاولة تلو محاولة ليس فيها مقنع لمقتنع حتى أعزف آخر الأمر عن الجميع، وأخيراً وجدت أن هذه المحاولات المتعثرة مضیعة للوقت وظهر لي أنني أحتاج بعد التأمل والإمعان في موضوع كتاب ما وبعد الالتفات الأولي والجاد إليه، إلى فترة هضم وامتصاص لا شعوري لا يمكن استحثائها ولا يفيدتها التفكير الواعي إلا تعطيلاً. ويخامرني أحياناً أنني قد ارتكبت خطأ وأنني لا أستطيع كتابة الكتاب الذي يخالجنني ولكني كثيراً ما كنت أحسن حظاً، فبعد وقت من التركيز العميق جداً أكون قد غرست بذرة المشكلة في وعيي الباطن حيث تنمو تحت الأرض ثم يظهر حلها فجأة بوضوح يخطف البصر فلا يبقى إلا تسجيل ما يبدو وكأنه رؤيا التجلي. ولعل أغرب مثل على هذه الطريقة، وهو المثل الذي دعاني لالتزامها بعد ذلك، قد حدث في مطلع سنة ١٩١٤؛ فقد تعهدت بإلقاء محاضرات لويل في بوسطن واخترت موضوعي «معرفتنا بالعالم الخارجي» فقضيت سنة

١٩١٣ كلها أفكر في الموضوع وكنت أركز فكري عليه سواء في وقت الدراسة في جناحي في كمبريدج أو في إجازاتي في خان هادئ على المنحدرات العليا من نهر التيمس، تركيزاً ينسيني أن أنفَس حتى أخرج لاهثاً كخارج من نوبة إغماء، كل هذا في غير جدوى فكل نظرية تعرض لي أجد عليها من الاعتراض ما يدحضها، فيئست آخر الأمر ورحلت إلى روما بمناسبة عيد الميلاد راجياً أن أستعيد في النزهة نشاطي المنهوك. وعدت إلى كمبريدج في آخر يوم من عام سنة ١٩١٣ عازماً على إملاء المحاضرات على كاتبة اختزال على خير ما يمكنني برغم أن مصاعب لم تكن قد زالت على الإطلاق نظراً لأن الوقت قد أوشك على النفاد. فلما جاءت الكاتبة في صباح اليوم التالي تبدي لي حين فجأة بكل دقة ووضوح ما أريد أن أقول وأنشأت أُملي عليها الكتاب بأكمله دون تلثم لحظة واحدة.

ولست أحب أن أنقل إليكم صورة مبالغاً فيها، فقد كان الكتاب ناقصاً جداً، وأعتقد الآن أنه يحتوي على أخطاء خطيرة، إلا أنه أحسن ما كان يمكنني أن أكتبه في ذلك الحين، وأظن أن طريقة أكثر تؤدة من تلك في حدود الزمن المتاح لي، كانت قمينة أن تخرج شيئاً أسوأ. ومهما يكن من أمر ما ينفع غيري فإن هذه الطريقة هي أنفع الطرق لي لأنني وجدت أن فلوبيير وباتر ينبغي أن ينسيا كل النسيان في حدود ما يخصني وحدي أن ما أعتقد الآن في صدد كيفية الكتابة لا يختلف كثيراً عما كنت أعتقد وأنا في الثامنة عشرة. إلا أن تطوري لم يكن بأي معنى من المعاني على خط مستقيم، فقد مر بي زمن في مطلع هذا القرن كنت فيه طموحاً إلى البلاغة الفياضة وهذا هو الوقت الذي كتبت فيه «عبادة الحر» وهو مقال لا أنظر إليه الآن نظرة حسنة، فقد كنت في ذلك الوقت مخدراً بنشر ملتون وكانت عباراته الرنانة تتردد في تجاويف عقلي أصداؤها، ولست أقول أنني لم أعد أعجب به، بل أقول إن تقليدي أسلوبه ينطوي على شيء من عدم الأمانة. والحقيقة أن كل تقليد خطر فلا شيء أحسن في

أسلوبه من كتاب الصلوات ومن النسخة المعتمدة من الإنجيل ولكنهما يعبران عن طريقة للتفكير تختلف عن طرائق زماننا، فما يكون الأسلوب حسنًا إلا أن يكون صورة حميمة تكاد ألا تكون إرادية لشخصية الكاتب، على أن تكون شخصية الكاتب مما يستحق التصوير، ومع هذا وعلى الرغم من أن التقليد المباشر ينبغي أن يذم وينتقص، فإن ألفة الأساليب الحسنة تصقل كثيرًا وتفيد خصوصًا في تكوين حاسة للإيقاع النثري.

وهناك بعض المبادئ البسيطة -ربما لا تكون في مثل بساطة مبادئ صهري لوجان بيرسول سميث- أعتقد أن من الممكن تقديمها لكتاب النثر الشارح أولها:

«لا تستعمل كلمة طويلة إذا صحت كلمة قصيرة».

وثانيها:

«إذا أردت أن تقرر حقيقة مشروطة بكثير من الشروط فضع بعض هذه الشروط في جملة مستقلة».

وثالثها:

«لا تبدأ الجملة بما يشعر القارئ بشيء ينقضه آخرها».

خذ مثلاً هذه الجملة التي يمكن أن ترد في بحث اجتماعي:

«الناس محصنون تحصيناً كاملاً من أنواع السلوك غير المرغوب فيه في حالة واحدة تتوفر فيها بعض الشروط المعينة التي لا تتوفر إلا في قلة قليلة من الحالات الفعلية بسبب تقابل قدرتي محض لظروف مناسبة، بعضها وراثي وبعضها بيئي تصادف أن تضافرت على إنتاج فرد تشذ فيه العوامل وتبعده عن الوضع الطبيعي بشكل مفيد اجتماعياً».

فلننظر الآن هل من الممكن ترجمة هذه الجملة إلى لغة أبسط، وأتقدم أنا بهذه المحاولة:

«كل الناس أوغاد، أو على أي حال معظمهم، ومن لم يكونوا أوغادًا فلا بد أنهم قد صادفهم حظ حسن غير عادي سواء في مولدهم أو في تربيتهم» فإنها أقصر وأسهل فهمًا وتقول المضمون ذاته، ولكن أخشى أن لو استعمل أي أستاذ الأسلوب الثاني بدلًا من الأسلوب الأول لتلقى خطاب فصله.

وهذا ما يدعوني إلى تقديم نصيحة إلى من كان أستاذًا من بين مستمعيّ، تلك هي أنني أملك أن أستعمل الإنجليزية البسيطة لأن كل إنسان يعلم أنني أستطيع أن أستعمل المنطق الرياضي إن أردت.

خذ مثلاً هذه الجملة:

«بعض الناس يتزوجون أخوات زوجاتهم بعد موتهن».

فإنني أستطيع أن أعبر عنها بطريقة تقتضي القارئ سنين من الدراسة حتى يفهمها، وهذا مصدر حرיתי. ولهذا أقترح على الأساتذة الصغار أن يصبوا عملهم الأول في رطانة لا تفهمها إلا العلية القليلة، وبعد أن يطمئنوا على هذا الرصيد، يمكنهم أن يقولوا ما يريدون في لغة «بتفهم للناس»^(١)، ففي هذه الأيام التي تقع حياتنا نفسها تحت رحمة الأساتذة، لا أستطيع أن أحجم عن الاعتقاد أنهم قمينون بشكرنا وعرفاننا إذا هم توخوا نصيحتي.



(١) الترجمة عامية لأن النص الإنجليزي عامي مقصود.

الطريق إلى السعادة

ظلت عادة الأخلاقيين المتزمتمين لأكثر من ألفي سنة أن ينبذوا السعادة على أنها شيء دنيء لا قيمة له. وظل الرواقيون قرنين من الزمان يهاجمون أبيقور الذي ييشر بطلب السعادة، وكانوا يقولون إن فلسفته فلسفة خنازير ويظهرون فضلهم عليه باختراع أسوأ الأكاذيب عنه. وأراد واحد منهم وهو كليانتيس^(١) أن يحاكم أرسطارخوس^(٢) لاعتناقه النظرية الكوبرنيكية في الفلك واضطهد آخر وهو ماركس أوريليوس^(٣) المسيحيين. واطمأن واحد من أشهرهم وهو سنكا^(٤) إلى سخافات نيرون^(٥) وكون ثروة ضخمة وأقرض المال لبواديشيا^(٦) مقابل نسبة من الربا دفعتها إلى الثورة عليه. وفي هذا الكفاية عن الماضي، فإذا تخطينا السنوات الألفين التالية فإننا نأتي إلى الأساتذة الألمان الذين ابتدعوا النظريات التي دفعت ألمانيا إلى السقوط ودفعت بقية العالم إلى حالة الخطر الراهنة. كان هؤلاء العلماء يحتقرون السعادة كما كان يحتقرها البريطاني الذي لف لفهم وهو كارليل الذي لا يسأم أن يقول لنا ويعيد إنه ينبغي أن نضحى بالسعادة في سبيل البركة، وكان يجد البركة في مواطن شاذة نوعاً ما: مذابح كرمويل في إيرلندا مثلاً، ومؤامرات فردريك الأكبر الدموية وضراوة إير

(١) كليانتيس (٣٠٠ - ٢٢٠ ق. م) تلميذ زينو الرواقي وأستاذ كريسيوس، مات جوعاً بامتناع إرادي عن الطعام.

(٢) أرسطارخوس الساموسي (٢٥٠ ق. م) أحد علماء الفلك الإغريق.

(٣) ماركوس أوريليوس أنطونيوس (١٢١ - ١٨٠ م) أحد كبار الرواقيين.

(٤) لوشيسوس أنايوس سنكا (٤ ق م - ٦٥ م) أحد كبار مستشاري نيرون.

(٥) نيرون (٣٧ - ٦٨ م) إمبراطور روما الشاذ الذي قتل أمه وأستاذه سنكا وأحرق روما.

(٦) بواديشيا ملكة بريطانيا التي ثارت في سنة ٦٠ ميلادية على الحكم الروماني.

حاكم جامايكا. والحقيقة أن احتقار السعادة عادة ما يكون احتقارًا لسعادة الآخرين وهو بهذا ثوب أنيق من الرياء تموه به كراهة البشرية، وحتى حينما يضحي شخص ما بسعادته تضحية حقيقية خالصة من أجل غرض يظنه ساميًا فإنه يكون عرضة لأن يحسد أولئك الذين هم على درجة أقل من السمو حسدًا، طالما أدى بمن يظنون في أنفسهم القداسة إلى القسوة والتخريب، وأوضح مثل على هذه الحقيقة في عصرنا هذا هم الشيوعيون.

إن الذين يعتنقون النظريات التي تصور كيف ينبغي أن يعيش المرء، يميلون دائمًا إلى نسيان حدود الطاقة البشرية. فإن كانت طريقتك في الحياة تتطلب الكبح الدائم لرغباتك من أجل الهدف الأسمى الذي وضعته نصب عينيك، فمن المحتمل أن يزداد مقتك لهذا الهدف لما يجره عليك من الضنى. فإن النوازع إذا أقفل دونها سبيلها الطبيعي تنصرف إلى سبل أخرى ربما كانت سبل العناد، واللذة إن سمحت لنفسك بأي نصيب منها ستعزل عن تيار حياتك الأصلي وتصير باكوسية طائشة من النوع الذي لا يجلب السعادة بل يجلب اليأس على درجة أعمق.

ومن الشائع بين الأخلاقيين أنك لا تحصل على السعادة بالجري وراءها، وهذا كلام لا يصح إلا إذا كنت تجري وراءها جريًا لا حكمة فيه، كمقامري مونت كارلو الذين يجرون وراء المال فيفقدونه بدلًا من أن يحصلوا عليه. ولكن هناك طرقًا لكسب المال تنجح غالبًا، وكذلك الأمر في السعادة، إن أنت التمتستها في الخمر فلا شك أنك ناس عواقبه. كان أبيقور يلتمس السعادة في العيش في مجتمع وادع وفي تناول الخبز اليابس يضيف إليه قطعة من الجبن في الأعياد والمناسبات، وكان مسلكه نافعا له، ولكنه كان عليلاً بينما يحتاج معظم الناس لغذاء أقوى. والبحث عن السعادة عند أغلب الناس نظرة مجرد إلى درجة لا يتأتى معها أن يكون قاعدة شخصية للحياة ما لم ترفده روافد عديدة. ولكنني أظن أنه مهما يكن ما تختاره قاعدة لحياتك فلا ينبغي

أن يكون متعارضاً مع السعادة إلا في حالات البطولة النادرة.

والعدد الأكبر من الناس يملكون بين أيديهم الشرائط المادية للسعادة وأعني بها الصحة والدخل الكافي، وهم مع ذلك تعساء إلى درجة كبيرة، وهذا يصدق بنوع خاص في أمريكا. وفي هذه الحالات يبدو أن الخطأ ناجم من نظرية خاطئة في طريقة الحياة لأننا نتصور أننا نختلف عن الحيوانات اختلافاً أكبر من الحقيقة، فالحيوانات تعيش بغريزتها وتسعد ما دامت الظروف الخارجية مناسبة لها. فإن كانت لك قطعة فإنها ستمتع بالحياة ما توفر لها الغذاء والدفع وليلة على أسطح المنازل بين حين وآخر، ومطالبك أعقد من مطالب قطتك وإن كانت مبنية أيضاً على الغرائز، إلا أن المجتمعات المتحضرة، ولا سيما تلك التي تنطق بالإنجليزية، تنسى هذه الحقيقة، فيفترض الناس لأنفسهم غرضاً أعلى ويكبحون كل الدوافع الأخرى التي لا تؤدي إليه، فيشغل رجل الأعمال بجمع الثروة حتى يضحي في سبيلها بالصحة والوشائج الشخصية، فإذا وصل أخيراً إلى الغنى لم تنبثق لديه متعة إلا في أن يطن في آذان الآخرين ليحذوا حذوه النبيل. وما أكثر السيدات اللاتي لم تجد عليهن الطبيعة بأي متعة أدبية أو فنية فطرية، ومع ذلك يصرون على أن يطن بهن الأدب والثقافة فينفقن ساعات من الضيق والملل يتعلمن فيها ما يصح أن يقال عن الكتب ولا يخطر لهن ببال أن الكتب إنما تكتب للإمتاع وليس لتهيئة الفرص للتعلق بأقدام العظماء.

إنك إن نظرت حولك إلى من تستطيع أن تصفهم بالسعادة فسترى أنهم يشتركون في أشياء معينة أهمها النشاط الممتع بذاته والمؤدي فوق هذا إلى إحداث شيء يسرك أن تراه يحدث. فالنساء اللاتي يجدن المتعة الغريزية في أطفالهن - الشيء الذي لا تجده كثير من النساء ولا سيما المثقفات - يمكنهن أن يحصلن على هذه المتعة في تربية أبناء الأسرة؛ وقد يسعد الفنانون والكتاب والعلماء في فنونهم هذه إذا بدت لهم صالحة وجديرة، ولكن هناك صوراً أكثر تواضعاً من هذه الصور لهذا النوع من

اللذة، فكثير ممن ينفقون حياتهم العاملة في دوائر المال والأعمال يخصصون عطلة الأسبوع للقيام بجهد متطوع لا يؤجرون عليه في حداثتهم، فإذا قدم الربيع أسبغ عليهم كل الفرحة لأنهم خلقوا شيئاً جميلاً.

من المستحيل أن تسعد بغير نشاط، ولكن من المستحيل أيضاً أن تسعد إذا فاض بك النشاط أو كان نشاطاً من نوع منفرد، وذلك لأن النشاط لذيق إذا كان موجهاً إلى غاية واضحة جداً ومرغوب فيها ولا تعارض بينها في ذاتها وبين دوافع الحياة، فلكم يسعد الكلب وهو يجري وراء الأرانب حتى يبلغ به الجهد غايته، ولكنك إذا وضعت الكلب على دولاب دوار وأعطيته غذاء طيباً بعد نصف ساعة، فلن يشعر بالسعادة حين يحصل على الغذاء لأنه لم يكن يصب نشاطه في هذه الأثناء على شيء طبيعي. وإن من مصاعب عصرنا الحديث في هذا المجتمع المعقد أن قلت فيه الأشياء الواجب القيام بها والتي لها صبغة الصيد الطبيعية فكان من نتيجة هذا أن على غالبية الناس في المجتمع المتقدم فنياً أن يبحثوا عن السعادة خارج نطاق أعمالهم التي يتكسبون منها، فإذا كانت أعمالهم منهكة فستكون سعادتهم سلبية إذ إن مشاهدة مباراة في كرة القدم أو مشاهدة السينما لا تترك بعد انتهائها إلا أثراً قليلاً ولا ترضي قط دوافع الخلق والإبداع، أما رضا اللاعبين القائمين بالنشاط ذاته فهو رضا من نوع مخالف لهذا كل المخالفة.

والرغبة في اكتساب احترام الجيران والخوف من ازدرائهم يدفعان الرجال والنساء (وخاصة النساء) إلى طرائق من السلوك لا يوحى بها أي دافع حيوي طبيعي. فإن الشخص الذي يحسب نفسه «على صواب دائماً» ممجوج دائماً أو في أغلب الأوقات. وإنه لمما يعصر القلب أن نرى الأمهات يعلمن أبناءهن كيف يشذبون من متعتهم بالحياة ويصيرون كالقطط الأليفة حتى لا يظن بهم أنهم من طبقة اجتماعية دون تلك التي يتمنى آباؤهم أن ينتموا إليها.

والجري وراء النجاح الاجتماعي في صورة الهيبة والنفوذ أو في صورة القوة أو فيهما معاً، عقبة من أهم العقبات الكأداء في سبيل كسب السعادة في مجتمع قائم على التنافس. ولست أنكر أن النجاح عنصر من عناصر السعادة -ومن أهم عناصرها عند البعض، ولكنه في ذاته لا يغني غالبية الناس، فقد تشرى وتكون محل الإعجاب، ولكنك إذا فقدت الأصدقاء ولم يكن لك اهتمام بشيء ولا مسرات تلقائية لا منفعة منها فأنت تعيس، إذ العيش للنجاح الاجتماعي صورة من العيش على نظرية، وكان عيش على نظرية مترب ومجفف للحياة.

فإن كان للإنسان الصحيح الذي يجد كفايته من القوت أن يسعد فهو في حاجة إلى شيئين قد يبدوان لأول وهلة متعارضين: أولهما إطار ثابت حول غرض مركزي، وثانيهما ما يمكن أن يطلق عليه اسم «اللعب» أي ما يفعل لمجرد أنه هزل لا لأنه مؤد إلى غاية جدية. وينبغي أن يكون الإطار الثابت تجسيدا لدوافع الحياة الدائمة كدوافع الأسرة والعمل، فإن أصبحت الأسرة كربة أو ازداد العمل تنغيصاً فما هما بمؤدبين للسعادة، ولكن هذا لا يدحض جدوى احتمال بعض الكراهة وبعض النفور إذا لم يكونا دائمين، وما هما بدائمين إذا انتهزت فرص «اللعب والمراح».

لقد عولج موضوع السعادة كله فيما أظن بطريقة بالغة في الجهامة، فقد يظن أن الإنسان لا يسعد بغير نظرية أو ديانة، وربما صح لمن شقوا وتعسوا باعتناقهم نظرية سيئة أن تشفيهم من شقائهم نظرية أحسن، كما تحتاج لدواء مقو حينما يحيق بك المرض والإعياء، ولكن الإنسان في الأحوال العادية صحيح بغير مقويات وسعيد من دون نظريات. والمهم في الأمر هو تبسيط الأمور، فإن وجد الإنسان متعة في زوجه وأبنائه ولقي النجاح في عمله والمسرة في تعاقب الليل والنهار والربيع والخريف، فسيشعر بالسعادة مهما تكن نظرياته، ولكنه من جهة أخرى إذا أحس إزاء زوجه بالكراهة ورأى في ضجة أبنائه شيئاً لا يحتمل وفي مكتبه كابوساً، وإذا

تلهف على الليل وهو في النهار وتوجع في الليل طلباً لضوء النهار - فحاجته ليست إلى فلسفة جديدة بل إلى نظام (رجيم) جديد - غذاء آخر أو مزيد من الرياضة أو ما أشبه. إن الإنسان حيوان، وسعادته تتوقف على وظائف أعضائه أكثر مما يحب أن يعترف، وهي نتيجة متواضعة ولكني لا أستطيع أن أحجم عن تصديقها. وإني مقتنع أن رجال الأعمال البؤساء يجديهم لكي يزدوا من سعادتهم أن يمشوا ستة أميال كل يوم أكثر مما يجديهم أي تغيير في الفلسفات، وهذا بالصدفة هو رأي جيفرسون^(١) الذي بنى عليه استنكاره لركوب الحصان، وإن اللغة لتعجز أن تنفي له بما يقول لو أن عينيه استطاعتا أن تخترقا حجب المستقبل لتريا السيارة.



(١) توماس جيفرسون (١٧٤٣ - ١٨٢٦) ثالث رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة.

أعراض ١٩٨٤ الأوروية

«١٩٨٤» لمؤلفه جورج أورويل كتاب بشع يجعل قراءه يرتجفون، ولكنه مع ذلك لم يحدث فيهم الأثر الذي كان يقصد إليه مؤلفه ولا شك؛ ذلك لأن الناس نظروا إلى أن أورويل كان مريضاً جداً عند تأليفه، وأنه في الحقيقة قد مات بعد تأليفه بوقت قصير. ولعلهم قد سرت فيهم الرعشة التي تحدثها مفازعه، وقالوا فيما بينهم وبين أنفسهم:

«طبعاً لن يبلغ الأمر إلى هذا الحد من السوء إلا في روسيا، والظاهر أن المؤلف يستريح إلى الكآبة ونحن أيضاً نستريح إلى الكآبة ما دمنا لا نحملها محمل الجد».

فإذا هدأوا من روعهم بمثل هذه الأغاليط المريحة، أخذوا في العمل على تمهيد السبيل لنذر أورويل كي تتحقق، فقد ظن العالم سائراً شيئاً فشيئاً وخطوة خطوة نحو تحقيق كابوس أورويل، ولكن التدرج على هذا الطريق قد جعل الناس لا يتبينون المدى الذي قطعوه في هذا الطريق المحتوم.

لن يقدر ما قد فقدنا فعلاً إلا من يتذكر العالم قبل سنة ١٩١٤، ففي ذلك العهد السعيد كان في وسع الإنسان أن يسافر بغير جواز سفر إلى أي مكان ما عدا روسيا، ولم تكن الرقابة على الصحف معروفة إلا في روسيا، وكان الرجل

الأبيض يستطيع أن يهاجر بمطلق حريته إلى أي مكان في العالم، وكان ينظر إلى قيود الحرية في روسيا القيصرية نظرة الرعب في جميع أنحاء العالم المتحضر، كما كان ينظر إلى طغيان البوليس السري الروسي على أنه لعنة، وما زالت روسيا أسوأ من العالم الغربي، لا لأن الغربي قد حافظ على حرياته، ولكن لأن روسيا قد سبقته في طريق الطغيان وتفوقت في ذلك على ما كان يحلم به أي قيصر روسي.

وقد جرت العادة فترة طويلة بعد الثورة الروسية أن يقال «لا شك أن للعهد الجديد أخطاءه، ولكنه على أي حال أحسن من العهد الذي سبقه». وكان هذا خطأً محضاً؛ فإن المرء حين يعيد قراءة قصص النفي إلى سيبيريا في عصور القيصر يستحيل عليه أن يستعيد الاشمئزاز الذي كان يصاحب قراءتها في حينها منذ بعيد، فقد كان للمنفين درجة لا بأس بها من الحرية العقلية والمادية، ولم يكن حظهم بأي معنى من المعاني ليقارن بحظ أولئك الذين يساقون إلى السخرة تحت الحكم السوفيتي، وكان الروس المثقفون يستطيعون السفر بحرية ويتمتعون بالاتصال بالأوروبيين الغربيين، ذلك الاتصال الذي أصبح اليوم مستحيلاً. وكانت معارضة الحكومة ممكنة وإن كانت تعرض صاحبها للعقاب، وكان العقاب في العادة لا يبلغ من الصرامة ما أصبح يبلغه العقاب بعد ذلك، ولا الطغيان يمتد إلى ما امتد إليه الآن. فقد قرأت مؤخراً «باكورة حياة تروتسكي» كما حكاها ديوتشر وهي تكشف عن درجة من الحرية السياسية والفكرية لا يماثلها شيء في روسيا في الوقت الحاضر، ولا تزال هناك هوة كبيرة بين روسيا والغرب كما كانت في عصر القيصرية، ولكني لا أعتقد أن الهوة الآن أعمق أو أكثر اتساعاً مما كانت عليه من قبل؛ إذ بينما كانت الأحوال في روسيا تزداد سوءاً كان الغرب آخذاً في فقدان الكثير من حريته التي كان يتمتع بها في الماضي.

والمشكلة ليست جديدة إلا من حيث الكم، فمنذ أن قامت المدنية وسلطات

معظم الدول تضطهد خيرة رعاياها، وإننا جميعاً لنصدم بمعاملة سقراط والمسيح ولكن أكثر الناس لا يفقهون أن هذا المصير كان نصيب الجانب الأكبر من الناس الذين نظر إليهم فيما بعد بعين الإعجاب غير المألوف، فقد كانت غالبية الفلاسفة الإغريق الأولين لاجئين. وأرسطوطاليس^(١) لم يحمه من عداة الأثينيين إلا جيوش الإسكندر، حتى إذا مات الإسكندر^(٢) اضطر أرسطوطاليس للفرار. وكان العلماء المجددون في القرن السابع عشر يضطهدون في كل مكان تقريباً ما عدا هولندا، وما كان يتيسر لاسبينوزا أن يقوم بعمله لو لم يكن هولندياً، كما أن ديكارت ولوك قد وجدا من الحكمة أن يهربا إلى هولندا. ولما تولى عرش إنجلترا ملك هولندي بعد سنة ١٦٨٨، انتقل إليها التسامح وأصبحت منذ ذلك الحين أكثر تحراً من معظم الدول إلا في فترة الصراع ضد الثورة الفرنسية و نابليون. ففي أكثر البلاد، وفي أغلب الأحيان، كان أصحاب السلطة ينظرون نظرة الرعب والفرع إلى كل ما أصبح بعد زمانهم مستحسنًا.

والجديد في وقتنا الحاضر هو ازدياد قدرة السلطات على تنفيذ رغباتها. فقد أصبح البوليس في جميع أنحاء العالم أقوى كثيراً جداً مما كان في العصور الماضية، والبوليس الذي يخدم غرضاً نافعاً بالقضاء على الجرائم العادية معرض لأن يكون قوة فعالة في القضاء على المزايا غير المألوفة أيضاً.

وليست المشكلة مقصورة على هذه الدولة أو تلك وإن كان الشر ليس موزعاً توزيعاً متعادلاً بين الدول، ففي بلدي تحدث الأمور بهدوء أكبر وضجة أقل مما تحدث في الولايات المتحدة، ويعلم الجمهور عنها هنا أكثر كثيراً مما يعلم الجمهور هناك. وقد حدثت حركات تطهيرية كبيرة في سلك الخدمة المدنية دون

(١) أرسطوطاليس بن نيقوماخوس (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م).

(٢) الإسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق. م): أكبر قائد عسكري عرفه الزمن القديم.

اللجوء إلى لجان من الكونجرس. ووزارة الداخلية التي تتحكم في أمر الهجرة وزارة غير متحررة إلى حد كبير إلا في الحالات التي يستثار فيها الرأي العام ضدها. وقد حدث أن تقدم أحد أصدقائي البولنديين، وهو كاتب ألمعي جدًا ولم يحدث قط في حياته أن كان شيوعيًا، يطلب الجنسية الإنجليزية بعد أن قضى في البلاد وقتًا طويلاً، ولكن طلبه رُفض أول الأمر على أساس أنه صديق للسفير البولندي، واستجيب لطلبه آخر الأمر تحت ضغط احتجاج كثير من الناس من ذوي السمعة التي لا يرقى إليها الشك، وأصبح حق اللجوء السياسي للاجئين السياسيين، ذلك الحق الذي كان يومًا ما مفخرة إنجلترا، غير معمول به في وزارة الداخلية الآن، وإن كان من الممكن إحيائه نتيجة للهيّاج.

وهناك سبب للتدهور العام في الحرية وهو ازدياد قوة الهيئات والمنظمات وازدياد الضبط والتوجيه على سلوك الناس على يد هذه المنظمة الضخمة أو تلك؛ فإن لكل منظمة غرضين: أحدهما الغرض الظاهر الذي تكونت المنظمة من أجله، والآخر زيادة قوة المشرفين عليها. وهذا الغرض الثاني خليق أن يستميل المشرفين المعنيين أكثر مما يستميلهم الجمهور العام الذي يتوقع أن يخدمه هؤلاء المشرفون، فإذا اصطدمت مع رجال البوليس في محاولة إظهار شيء من الافتئات ارتكبه، فلك أن تتوقع منهم العداوة وأن تتوقع تبعًا لذلك أن تقاسي أشد العنت والعناء.

ولقد وقر في أذهان كثير من المتحررين اعتقاد أن كل شيء حسن ما دامت المحاكم تقضي بالعدل فيما يعرض عليها من القضايا، وهو اعتقاد غير علمي على الإطلاق. افرض مثلاً هذه الحالة التي لا يمكن أن تكون فرضية جدلية بحال من الأحوال وهي أن أستاذًا فصل من عمله بتهمة مزيفة هي تهمة عدم الولاء. ربما استطاع أن يثبت زيف الادعاء في المحكمة إن كان له أصدقاء أغنياء، ولكن هذا قد يقتضيه سنوات يتضور في أثنائها جوعًا أو يقتات على الصدقات وينتهي الأمر به أن

يصير رجلاً موسوماً، وتأتي السلطات الجامعية بعد اكتسابها حكمة التجربة فتقول إنه محاضر سيئ ولا يقوم بأبحاث كافية، فيجد نفسه بعد ذلك مفصولاً مرة أخرى حيث لا ينفعه القضاء شيئاً، وحيث لا أمل له في التوظيف في مكان آخر.

نعم إن في أمريكا مؤسسات تعليمية تبلغ حتى الآن من القوة ما يمكنها من الصمود، ولكن هذا على كل حال لا يتيسر إلا لمؤسسة لها هبة كبيرة ويدير سياستها رجال شجعان. انظر مثلاً إلى ما قاله الشيخ المحترم ماك آرثي^(١) عن جامعة هارفارد حيث قال إنه لم يستطع أن يتصور كيف يرسل أحد أبنائه إلى هارفارد حيث يتعرضون للمذهبة على يد أساتذة شيوعيين. ففي هارفارد كما قال «بركة آسنة يجب أن يعلم عنها الناس كل شيء قبل أن يرسلوا أبنائهم وبناتهم إليها». إن مؤسسة لا تبلغ مبلغ هارفارد من العظمة والاحترام ليصعب عليها أن تواجه مثل هذا الشواظ من السعير.

ولكن قوة البوليس على كل حال أخطر وأعم من الشيخ المحترم ماك آرثي، وقد ازدادت بطبيعة الحال زيادة كثيرة تحت ظروف الخوف الناشئة على كلا جانبي الستار الحديدي. فإن سكنت روسيا، وامتنعت عن التعاطف مع الشيوعية، فستقاسي ما لم تلتزم الصمت حتى مع عائلتك. وإن كنت في أمريكا وكنت في سالف الوقت شيوعياً ثم ارتددت عن الشيوعية فأنت أيضاً معرض للعقاب وإن لم يكن عقاباً قانونياً - إلا أن تقع متلبساً في خديعة أو شهادة زور - ولكنه عقاب اقتصادي واجتماعي. وليس أمامك إلا طريق واحد للهرب من العقاب، وهو أن تبيع نفسك لوزارة العدل لتصبح مخبراً حيث يتوقف نجاحك على القصص الطوال التي عسى أن تقنع بها مكتب المباحث الفيدرالي.

(١) ستانور جوزيف ماك آرثي (١٩٠٩ - ...): عضو مجلس الشيوخ الأمريكي.

إن ازدياد التنظيم في عالمنا الحاضر يتطلب مؤسسات جديدة إذا قدر لنا أن نحفظ شيئاً من الحرية، وإن الموقف الآن شبيه بذلك الموقف الذي نشأ من ازدياد قوة الملوك في القرن السادس عشر، فقد كان طغيانهم المسرف هو السبب في كل الصراع الذي قامت به الحركات التحررية التقليدية وكسبته، ولكن ما إن تضاءلت قوة الملوك حتى نشأت محلها قوة لا تقل عنها خطورة وأخطرها في نظري قوة البوليس، وليس لها فيما أرى إلا علاج واحد هو إنشاء قوة بوليسية ثانية يكون همها إثبات البراءة لا إثبات الإدانة، فكثيراً ما يقول الناس إنه لمن الخير أن يفلت تسعة وتسعون مذنباً من العقاب من أن يعاقب بريء واحد، ولكن هيئتنا قائمة على عكس هذه الفكرة، فإن كان امرؤ متهمًا بالقتل مثلاً فإن جميع أجهزة الدولة، ممثلة في البوليس والبوليس السري، تعباً لإثبات إدانته بينما يترك لمجهوده الفردي وحده أمر إثبات براءته، فإن استخدم بوليساً سرياً فلا بد أنهم بوليس سري خصوصي يدفع لهم أجورهم من جيبه أو من جيوب أصدقائه. ومهما يكن من أمر وظيفته السابقة فلن يتيسر له الوقت أو الفرصة ليستمر في كسب المال بطريقها، هذا وبينما محامو الاتهام يتقاضون أجورهم من الدولة، عليه هو أن يدفع أجور محامي الدفاع من جيبه إلا أن يدعي الفقر فعندها يعين له محامون ربما كانوا أقل كفاية من محامي الاتهام. وكل هذا ظلم، إنه يسوي في الأهمية عند المجتمع بين أن تثبت براءة البريء من التهمة المنسوبة إليه وبين أن تثبت إدانة مرتكبها. وعلى ذلك فلا يصح لقوة البوليس المكلفة بإثبات البراءة أن تثبت الإدانة إلا في حالة واحدة هي حالة الاشتباه في ارتكاب السلطات جريمة ما. وأعتقد أن إيجاد هذه القوة البوليسية الثانية قد يتيح لنا أن نحافظ على شيء ما من حرياتنا التقليدية، ولكني لا أظن أن شيئاً أقل من هذا سيمكننا من هذا الحفاظ. ومن أسوأ النتائج الناجمة عن الزيادة الحديثة في سطوة السلطات قمع الحقيقة ونشر الضلال بطريق الوكالات العاملة؛ فإن الروس بعيدون كل البعد عن معرفة حقيقة

البلاد الغربية لدرجة أنهم يتصورون المترو الروسي هو المترو الوحيد في العالم، وعقلاء الصينيين منذ صارت الصين شيوعية قد أخضعوا لإجراء مربع يقال له «غسيل المخ»، والعلماء منهم، الذين حصلوا على كل معلوماتهم المتعلقة بموضوع تخصصهم من أمريكا أو أوروبا الغربية، قد أجبروا على التخلي عن عملهم والإقرار بأن كل ما يستحق أن يعرف مستمد من المراجع الشيوعية، ويتعرضون لنوع من الضغط النفساني يخرجون منه محطمين لا قدرة لهم إلا على تكرار ببغائي. وهذا الإجراء ينفذ في روسيا والصين عقابًا مباشرًا لا على الأفراد المارقين وحدهم، ولكن على عائلاتهم أيضًا، أما في البلاد الأخرى فلم يبلغ الأمر إلى كل هذا الحد من السوء، فإن من كتبوا بصدق عن شرور حكومة شيانج كاي شيك^(١) في سنواتها الأخيرة لم يقض عليهم، إلا أن كل ما يمكن عمله نحو منع تصديق للناس لتقاريرهم الصادقة قد عمل وأصبحوا متهمين كل بمقدار كفايته، والشخص الذي يكتب بصدق إلى الحكومة عما يجده في بلد أجنبي لا يعرض نفسه لخطر شخصي خطير وحسب، بل يتيقن أن أخباره ستقابل بالإعراض ما لم تكن متفقة مع ميول القائمين بالأمر، ولا جديد في هذا طبعًا إلا في الدرجة، ففي سنة ١٨٩٩ كتب الجنرال بولر^(٢)، قائد القوات البريطانية في جنوب أفريقيا تقريرًا يقول فيه إنه يلزمه للقضاء على البوير جيش مكون من مائتي ألف على أقل تقدير، فعزل لهذا الرأي الممجوج، ولم يعترف له بالفضل حتى حينما تبين أن رأيه صحيح. ولكن على الرغم من أن الداء ليس جديدًا، فهو أوسع مدى إلى حد كبير مما كان معهودًا من قبل. فلم يعد، حتى في أوساط من يظنون أنفسهم متحررين، من يعتقد أن من الخير أن ندرس المسألة من جميع جوانبها، فإن تطهير مكاتب الولايات المتحدة في أوروبا، وتطهير المكاتب المدرسية في أمريكا كان مقصودًا

(١) شيان كاي تشيك (١٨٨٦ - ١٩٧٥) رئيس الصين ثم فورموزا.

(٢) الجنرال سير ردفريز هنري بولر (١٨٧٨ - ١٩٠٨) تولى قيادة المخابرات للحملة على مصر سنة ١٨٨٢.

به منع الناس من معرفة أكثر من جانب واحد من المسألة، وقد أصبح «تطهير المكتبات» Index Expurgatorius جزءاً معترفاً به من سياسة أولئك الذين يدعون أنهم يحاربون من أجل الحرية، ويظهر أن السلطات لم تعد تؤمن بعدالة أهدافها إيماناً يكفي لجعلها تثق بأنها ستخرج من محنة الجدل الحر ظافرة، ولا تتوافر لديها الثقة في الحصول على التأييد، إلا إذا جهل الناس وجه الرأي الآخر ولم يسمعوها به، وهذا يظهر مدى التحلل المحزن في قوة إيماننا بمواضعنا، وقد حرم النازيون في خلال الحرب على الألمان أن يسمعوها الإذاعة البريطانية، ولكن لم يقف أحد في سبيل أي إنجليزي يريد أن يسمع الإذاعة الألمانية؛ لأن إيماننا برسالتنا كان ثابتاً لا يتزعزع. وما دمنا الآن نمنع بلوغ صوت الشيوعية إلى آذاننا فإننا نشعرهم بذلك أن رسالتهم قوية مدعومة، فقد كان الدفاع عن حرية القول قائماً على أساس أن النقاش الحر مؤدّ حتماً إلى انتصار الرأي الحسن، ولكن هذا الاعتقاد أخذ يتبدد تحت تأثير الخوف، والنتيجة أن صارت الحقيقة شيئاً و«الحقيقة الرسمية» شيئاً آخر، وهي الخطوة الأولى في طريق «مواربة الكلام» و«مواربة التفكير» الأوروبية. سوف يقال إن «الوجود القانوني» لحرية القول محفوظ، ولكن وجودها الفعال قاصر قصوراً متلفاً ما دامت وسائل النشر المهمة غير متاحة إلا للآراء المرضية عنها لدى المسؤولين.

وهذا ينطبق بنوع أخص على التعليم، فحتى الآراء المتحررة تحريراً معتدلاً جداً تعرض المعلم في وقتنا الحاضر في بعض البلاد الرئيسة لخطر فقدان وظيفته وعدم إمكانه التحصل على غيرها، فينتج عن هذا أن يشب الأبناء جاهلين بالكثير مما يهمهم علمه أهمية حيوية، وأن يصير للتعصب والضلال قدر خطير من التأييد الشعبي.

والخوف منبع كل هذه الشرور، وهو يوحى، كما يحدث عادة في حالة الذعر، بالأعمال التي تؤدي إلى وقوع المحذور. إن المخاطر حقيقية - وهي في الحقيقة

أعظم مما مر بالإنسانية في أي زمن مضى - ولكن التهافت أمام اللوثات (الهستيريا) يزيدها، وإن واجبنا الواضح في هذا الزمن الصعب ليس مجرد معرفة الأخطار، بل النظر إليها بهدوء وروية على الرغم من ضخامتها، فإن عالم سنة ١٩٨٤ الأوروبي، حتى لو سمحنا له بالوجود، لن يستمر طويلاً؛ لأنه سيكون حينئذ مقدمة الفناء الشامل.



لست شيوعياً

[ظهرت هذه المقالة أصلاً في كتاب
«لماذا أعارض الشيوعية» الذي نشرته
مكتبة فوينكس هاوس ليمتد]

هناك سؤالان واجبان بصدد أي مذهب سياسي:

١- هل معتقداته النظرية صحيحة؟

٢- وهل سياسته العملية خليقة أن تزيد من سعادة البشرية؟

وأنا أعتقد من جانبي أن المعتقدات النظرية للشيوعية خاطئة، وأن مبادئها العملية من نوع قمين بإحداث زيادة ضخمة في تعاسة البشر.

إن المعتقدات النظرية الشيوعية مستمدة في معظمها من ماركس، واعتراضي على ماركس ذو شقين: فمن ناحية هو رجل مضطرب العقل، ومن ناحية أخرى هو رجل يستوحي تفكيره استحياء كلياً تقريباً من الحقد والمقت، فنظرية القيمة الفائضة التي كان يفترض أنها تظهر استغلال الرأسمالية للمتكسبين، قد وصل إليها (أ) بقبوله من غير وعي نظرية مالتس^(١) في السكان، وهي النظرية التي يتبرأ منها ماركس وجميع تلاميذه في العلن، (ب) وبتطبيقه نظرية ريكاردو في القيمة على الأجور مع عدم تطبيقها على أثمان المصنوعات، وهو مقتنع كل الاقتناع بالنتيجة التي وصل إليها لا لأنها تتسق مع الحقائق، ولا لأنها تتسق في ذاتها منطقياً، ولكن لأنها مؤدية حتماً لاستثارة هياج المتكسبين، ونظريته التي ترى أن كل أحداث التاريخ ناجمة عن صراع الطبقات تعميم أهوج خاطئ لبعض ملامح التاريخ الإنجليزي والفرنسي في المائة السنة الأخيرة مدت لكي تشمل تاريخ الإنسانية كله، واعتقاده أن هناك قوة

(١) مالتس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) اقتصادي إنجليزي.

كونية يقال لها «المادية الجدلية» تتحكم في تاريخ البشر بمعزل عن إرادة الإنسان اعتقاد أسطوري محض. وما كانت أخطاؤه النظرية على كل حال تهمنا لولا أن رغبته الأولى أن يرى أعداءه يعاقبون ولا يعنيه بعد ذلك ماذا يصيب أصدقاءه في أثناء ذلك، شأنه في ذلك شأن تروليان^(١) وكارليل.

كانت نظرية ماركس في حد ذاتها سيئة ولكنها ازدادت سوءًا بما أدخله عليها لينين وستالين من التعديلات. فقد كان ماركس يبشر بحدوث فترة انتقال ثورية تعقب انتصار الطبقة العاملة في الحرب الأهلية، وإن الطبقة العاملة لن تسمح في هذه الفترة، تمشيًا مع المعهود في أعقاب كل حرب أهلية، لأعدائها المهزومين بأي قوة سياسية، وتلك هي فترة دكتاتورية العمال، ولا يجب أن ننسى هنا رجم ماركس بالغيب في أمر انتصار العمال أنه لن يحدث إلا بعد أن يكون العمال قد أصبحوا الأغلبية الساحقة في المجتمع، وعلى هذا فليست دكتاتورية العمال كما تصورها ماركس ضد الديموقراطية في جوهرها إلا أن الطبقة العاملة في روسيا في سنة ١٩١٧ كانت أقلية ضئيلة بين السكان، وكانت الأغلبية الساحقة من الفلاحين، فتقرر عندئذ أن يكون الحزب البلشفي هو ذلك الجزء من الطبقة العاملة الذي يتمتع بالوعي الطبقي، وأن لجنة صغيرة من زعمائه هم الذين يعدون الجزء الواعي طبقًا بين الحزب البلشفي، وهكذا صارت دكتاتورية العمال دكتاتورية اللجنة الصغيرة ثم انتهى الأمر بأن أصبحت دكتاتورية رجل واحد هو ستالين، وإذ زعم أنه الوحيد ذو الوعي الطبقي بين طبقة العمال أخذ يحكم بإعدام الملايين من الفلاحين جوعًا ويحكم على ملايين غيرهم بالسخرة في معسكرات الاعتقال، بل إنه قد تمادى حتى أصدر قرارًا بأن قوانين الوراثة الطبيعية يجب أن تصير من الآن فصاعدًا مغايرة لما كانت عليه، وإن على الخلايا ناقلات الوراثة أن تنصاع للقرارات السوفيتية لا لذلك

(١) كوينتوس تروليانوس (١٦٠ - ٢٣٠): أحد رجال اللاهوت المسيحيين الأوائل في روما.

القس الرجعي «مندل»^(١)؛ وإني لفي حيرة مطبقة من أمري كيف تأتّى لأناس أذكاء ذوي مشاعر إنسانية أن يجدوا شيئاً يعجبهم في معسكر الرقيق الضخم الذي أنشأه ستالين.

لقد كنت دائماً على غير وفاق مع ماركس، وقد نشرت أول نقد عدائي لمذهبه في سنة ١٨٩٧، إلا أن اعتراضي على الشيوعية الحديثة أعمق من اعتراضاتي على ماركس، لأن الابتعاد عن الديمقراطية هو ما أراه مصدر الكارثة بنوع خاص، ذلك أن أقلية ترسي قوتها على نشاط البوليس السري تؤكد أن تكون قاسية تعيش في الظلام، وفي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أخذت أخطار القوة غير المقيدة تتبدى للجميع ولكن الذين بهرتهم مظاهر النجاح الخارجية للاتحاد السوفيتي نسوا كل ما تعلمته الإنسانية بألم ومضاضة من أيام الملكيات المطلقة ورجعوا إلى أسوأ ما عهد عن العصور الوسطى تحت تأثير وهم غريب هو أنهم في طليعة التقدم.

وهناك علامات تدل على أن الحكم الروسي سيصير مع الزمن أكثر تحرراً، ولكن هذا، وإن كان ممكناً، بعيد جداً عن اليقين، وفي هذه الأثناء على أولئك الذين لا يقدرّون الفن والعلم وحدهما، بل يعينهم أيضاً وجود الكفاية من القوات اليومية والتحرر من الخوف من أن كلمة طائشة يلفظها أبناؤهم لأساتذتهم قد تلقي بهم في غيابات السخرة في مجاهل سيبيريا، أن يفعلوا ما في طاقتهم للمحافظة على حالة أقل عبودية وأكثر رخاء من هذه الحياة في بلادهم.

وفي الناس من استبدت بهم شرور الشيوعية حتى دفعتهم إلى اعتقاد أن الطريقة الوحيدة الفعالة لمناهضة هذه الشرور هي الحرب العالمية، ولكني أعتقد أن هذا خطأ فقد مضى عهد كانت مثل هذه السياسة ممكنة أما الآن فقد أصبحت الحرب من

(١) جريجور مندل (١٨٢٢ - ١٨٨٤): قس نمسوي، وصاحب قوانين الوراثة في علم الأحياء.

الفضاعة، كما أصبحت الشيوعية من القوة بحيث لا يستطيع أحد أن يتنبأ بالذي سوف يبقى من العالم بعد حرب عالمية. ولكن مهما يكن ما يبقى منه فلن يكون على أرجح الاحتمالات شيئاً أحسن من شيوعية الوقت الحاضر، وهو تنبؤ لا يتوقف على أي المعسكرين سيكون المنتصر، إن صح إن كان أحدهما سينتصر فعلاً، بل يتوقف فقط على الآثار الحتمية للخراب الكلي بالقنابل الأيدروجينية والكوبالتية وربما بنشر الأوبئة بطريقة عبقرية شريرة.

ليست الحرب هي طريقة مناهضة الشيوعية، فإن ما يعوزنا بالإضافة إلى التسليح الذي يردع الشيوعيين عن مهاجمة الغرب هو تقليل أسباب السخط وعدم الرضا في الجهات الفقيرة من العالم غير الشيوعي. ففي معظم بلاد آسيا فقر مدقع يجب على الغرب أن يخفف منه بقدر ما في وسعه أن يفعل ذلك كما أن فيها مرارة قاسية تسببت فيها قرون من السيادة الأوروبية الوحشية على آسيا، ويجب أن تعالج هذه المرارة بمزيج من اللباقة الصبورة والتعهدات القاطعة بالتخلي عن بقايا السيادة البيضاء التي ما زالت قائمة في آسيا. إن الشيوعية عقيدة تتغذى على الفقر والمقت والشقاء، ولا قبل لأحد بإيقافها عند حدها إلا بتضييق نطاق الفقر والمقت والشقاء.



الخطر على الإنسان

لست أتكلم في هذه المناسبة بوصفي بريطانيًا ولا أوروبيًا ولا فردًا من أبناء الديموقراطيات الغربية، ولكني أتكلم بوصفي إنسانًا، بوصفي فردًا من أبناء نوع الإنسان الذي يخيم الشك على احتمال استمراره في الحياة. إن العالم يفيض بالمنازعات: نزاع اليهود مع العرب، ونزاع الهنود مع الباكستانيين، ونزاع البيض مع السود في أفريقيا، ويظل كل هذه النزاعات الصغيرة ذلك الصراع المارد بين الشيوعية وأعداء الشيوعية.

ويكاد كل من له وعي سياسي أن يكون له مشاعر قوية في واحد أو أكثر من هذه الخصومات. ولكني أريدك - إن استطعت - أن تضع مثل هذه المشاعر جانبًا بعض الوقت وأن تعتبر نفسك فردًا من نوع بيولوجي كان له تاريخ مجيد محدود ولا يحب له أي منا أن يتوارى من الوجود. وسأحاول من جانبي ألا أتفوه بكلمة واحدة توافق جانبًا دون أن توافق الجانب الآخر، فكلًا الجانبين في الخطر سواء، وإذا فهم الخطر فهناك الأمل في أنهما سيتعاونان معًا على تفاديه، فإن علينا أن نتعلم التفكير بطريقة جديدة وعلينا أن نتعلم أن نسأل أنفسنا لا عن الخطوات اللازمة لإحراز النصر العسكري للطائفة التي نفضلها أيًا كانت، فما عادت هناك خطوات من هذا القبيل، بل نسأل أنفسنا السؤال التالي: ما الخطوات التي يمكن اتخاذها لمنع الصراع العسكري الذي لن يتمخض إلا عن كارثة لكلا الطائفتين؟

إن الجمهور العام، بل وكثيراً من ذوي المناصب ذات السلطة، لم يتبينوا بعد بوضوح ما الذي ستجره حرب تستعمل فيها القنابل الأيدروجينية. فما زال الجمهور العام يفكر في حدود استئصال المدن، والمفهوم أن القنابل الحديثة أقوى من القنابل القديمة وأنه إن أمكن لقنبلة ذرية واحدة أن تستأصل هيروشيما فإن قنبلة أيدروجينية واحدة كقنبلة باستئصال أكبر المدن كلندن ونيويورك وموسكو ولا شك أن مدناً كبيرة ستستأصل في حرب أيدروجينية. ولكن هذه مصيبة من المصائب الصغيرة التي كتب علينا أن نواجهها إذ لو قُضي على كل إنسان في لندن ونيويورك وموسكو، فإن في طاقة العالم على مدى بضعة قرون أن يسترد عافيته بعد الصدمة. ولكننا نعلم الآن خصوصاً بعد تجربة بيكيني^(١) أن القنابل الأيدروجينية يمكن أن تنشر الخراب بالتدريج في نطاق أوسع مما كان مفروضاً، فمن المقرر بشهادة الثقات أن من الممكن صنع قنبلة قوتها ٢٥٠٠ ضعف القنبلة التي حطمت هيروشيما، مثل هذه القنبلة إذا هي فجرت بالقرب من سطح الأرض أو تحت الماء فإنها ترسل جزيئات مشعة في طبقات الجو العليا. فتنزل هذه بالتدريج على سطح الأرض في هيئة تراب أو مطر مميت. هذا التراب الذي أصاب الصيادين اليابانيين وأصاب صيدهم من السمك وإن كانوا خارج نطاق الخطر الذي اعتقده الخبراء الأمريكيون، ولا يعلم أحد إلى أي مدى تنطلق هذه الجزيئات المشعة القاتلة، ولكن الثقات مجمعون على القول بأن حرباً أيدروجينية خليفة جدّاً أن تضع حدّاً لحياة البشرية، وأصبح يخشى أن لو استعملت قنابل أيدروجينية كثيرة أن يحدث فناء كلي، فناء مفاجئ لقلّة محظوظة، ولكن الأغلبية ستقاسي نقمة المرض والتحلل البطيء.

وسأضرب هنا قليلاً من الأمثلة من كثير، فقد قال السير جون سليسور^(٢)، وهو

(١) جزيرة في المحيط الهادي أجريت عليها تجربة أيدروجينية أزالها من الوجود.

(٢) السير جون سليسور (١٨٩٧ - ...) مارشال الجو البريطاني.

رجل يستطيع أن يتكلم بعلم لا نظير له في الحرب الجوية:

«إن حربًا عالمية في هذه الأيام وفي هذا العصر تعد انتحارًا جماعيًا». ثم استطرد
يقول:

«لم يكن ولن يكون ثمة معنى لمنع أي سلاح للحرب فإن ما يجب علينا أن نمنعه
هو الحرب».

وقد أكد اللورد أدريان، أكبر حجة إنجليزي في علم وظائف الجهاز العصبي هذه
النقطة بعينها منذ وقت قريب في خطابه إلى رئيس الجمعية البريطانية فقال:

«علينا أن نواجه إمكان أن تؤدي التفجيرات الذرية المتكررة إلى إحداث درجة من
الإشعاع الذري الجائع لا يمكن لأحد أن يتحملها ولا أن يهرب منها»، ثم أضاف.

«فما لم نكن على استعداد للتخلي على ولائنا لبعض المواضعات القديمة،
فسنضطر إلى صراع قد يتمخض عن فناء الجنس البشري».

ويقول السير فيليب جوير القائد الأعلى للطيران:

«يبدو أن دخول القنبلة الأيدروجينية في الميدان قد وصل بالجنس البشري إلى
نقطة يتحتم فيها، إما أن يقلع عن اتخاذ الحرب خطوة من خطوات السياسة، أو أن
يتقبل احتمال الدمار الكلي». وباستطاعتي أن أستطرد في هذه المقتبسات إلى غير
نهاية.

كثير جدًا من التحذيرات قد صدر من أفواه عظماء رجال العلم وحجج رجال
القتال، وليس بينهم من يقول إن أسوأ النتائج يقين حتمي ولكن ما يقولونه ويؤكدونه
هو أن هذه النتائج ممكنة ولا سبيل لأحد أن يتأكد أنها لن تتحقق. ولم أستم أن آراء
هؤلاء الخبراء في هذه المسألة تعتمد أي اعتماد على مواقفهم السياسية أو ميولهم

العصبية، بل تتوقف حسب ما كشفت لي أبحاثي، على مقدار اتساع نطاق خبرة الخبير وحدها وقد وجدت أن أعلمهم أشدهم تشاؤماً.

* * *

مشكلة صارخة لا مهرب منها

تلك إذن هي المشكلة التي أعرضها عليكم، صارخة مفزعة لا مهرب منها: أنضع حدًا للجنس البشري؟ أم يتجنب الجنس البشري القتال؟ إن الناس لا يحبون أن يواجهوا هذا الاختيار لأنهم يجدون صعوبة في التخلي عن الحرب، إذ إن التخلي عن الحرب سيضطرهم إلى تحديد سيادتهم تحديدًا غير مقبول، ولكن ربما كان أكبر عائق لهم عن فهم الموقف هو أن كلمة «البشرية» غامضة مجردة ولا يكاد الناس يشعرون في خيالهم أن الخطر خطر على أنفسهم وأبنائهم وأحفادهم وليس على «بشرية» تتراءى في الذهن معتمدة بغير حدود، ولهذا يراودهم الأمل أن ربما استمرت الحرب إذا حرمت الأسلحة الحديثة، وخشيتي أن يكون هذا الأمل خداعًا، فمهما يكن من الاتفاق الذي قد يتوصل إليه في زمن السلم فإنه لن يلتزم به في زمن الحرب، وسيعمل كل من الجانبين على صنع قنابل أيديروجينية لحظة إعلان الحرب، إذ لم صنعها جانب منهما وكف الآخر عنها فلا مناص من انتصار الجانب الذي صنعها.

وهناك عقبات سياسية على جانبي الستار الحديدي تحول دون تأكيد الطبيعة المدمرة لأي حرب مستقبلية، فلو أن أي جانب منهما أعلن أنه لن يلجأ إلى الحرب لأي سبب، فسيكون تحت رحمة الجانب الآخر «دبلوماسيًا» ولهذا فإن كل جانب سيستمر -محافظة منه على ذاته- في القول بأن من الاستنارات ما لا يحتمله، وربما كان من الجانبين متشوقًا إلى تنازل من الجانب الآخر ولكن كلاً منهما لا يجد

الشفاعة الكافية لإعلان هذا التشوق بطريقة مقنعة. فينجم عن هذا موقف مماثل لموقف المتبارزين في العصور السابقة، إذ كان ولا شك كثيرًا ما يحدث أن كلاً من المتبارزين يخاف الموت على نفسه، ويتمنى التوفيق السلمي ولكن كلاً منهما لا يجرؤ على إعلان هذه الرغبة لكيلا يقال إنه جبان خوار، فكان الأمل الوحيد في مثل هذه الحالة هو تدخل أصدقاء الطرفين باقتراح التوفيق الذي يمكن لكل من الطرفين أن يقبله في آن واحد. هذا مثل دقيق للموقف الحاضر بين أنصار كل من الفريقين على جانبي الستار الحديدي، فإذا قدر لاتفاقية تبعد احتمال وقوع الحرب أن يتفق عليها، فيلزم أن يقوم بها الوسطاء من دول الحياد الصديقة الذين يستطيعون أن يتحدثوا عن كوارث الحرب دون أن يتعرضوا للاتهام بأنهم يتبعون سياسة التهدة وللمحايدون كل الحق، حتى ولو قصرُوا نظرَهم على أضيق الاعتبارات، وهو اعتبار المحافظة على الذات، أن يفعلوا كل ما في طاقتهم لمنع نشوب حرب عالمية، لأنه لو نشبت حرب عالمية كهذه فالاحتمال كبير جدًا أن يهلك جميع سكان البلاد المحايدة مع بقية البشر. فلو كنت على مقاليد حكم دولة محايدة، فلا شك إنني كنت أوجب على نفسي واجبًا أول، هو أن أعمل على أن يظل في بلدي مواطنون، والطريقة الوحيدة لجعل هذه الغاية على شيء من الاحتمال هو محاولة إيجاد نوع من الوفاق بين القوتين الواقعتين على جانبي الستار الحديدي.

لست بالطبع محايدًا في مشاعري ولا أحب أن أرى خطر الحرب يتجنب بطريقة الخضوع المذل من جانب الغرب، ولكنني بوصفي إنسانًا يجب أن أتذكر أن المشكلات المعلقة بين الشرق والغرب إن كان لها أن تسوي بطريقة يمكن أن يرضى عنها أي إنسان شيعيًا كان أو غير شيعي، آسيويًا أو أوروبيًا أو أمريكيًا، أبيض أو أسود، فلتسو بغير طريق الحرب. ويهمني أن يفهم هذا على كلا جانبي الستار الحديدي. فما هو بكاف بكل تأكيد وإصرار أن يفهم على أحد الجانبين وحسب،

وأظن أن المحايدين، وقد سلموا من ربقة حيرتنا المؤسسية، يستطيعون إذا شاءوا أن يحققوا هذا الفهم على الجانبين، وكم أود أن أرى واحدة من القوى المحايدة أو أكثر تعين لجنة من الخبراء يكونون جميعاً من المحايدين، تضع تقريراً عن الآثار المدمرة التي تتوقع من فيلم حرب تستعمل فيها القنابل الأيدروجينية، لا في البلاد المتحاربة وحدها بل وفي البلاد المحايدة، وأن يعرض هذا التقرير على حكومات الدول الكبرى جميعاً، وأن يطلب منها الإعراب عن موافقتها أو مخالفتها لمضمونه، عندئذ يكون من الممكن في ظني للدول الكبيرة أن تتفق على أن الحرب العالمية لم تعد مطية صالحة لتحقيق أغراض أي واحدة منها - لأنها خليقة أن تمحو الصديق والعدو والمحايد على السواء.

لقد عاش الإنسان بحساب الأزمنة الجيولوجية فترة قصيرة جداً: مليون سنة على أكثر تقدير. وكان ما حققه، وخصوصاً في الآلاف الستة الأخيرة منها، شيئاً جديداً كل الجدة في تاريخ الكون، على الأقل فيما نعلم، فقد غبرت أجيال لا عداد لها والشمس تشرق وتغرب والقمر يكتمل ويمحق والنجوم تسطع في الظلام، ولكن قدوم الإنسان وحده هو الذي يسر لهذه الأشياء أن تفهم. ففي عالم الفلك الكبير، وفي عالم الذرة الصغير، كشف الإنسان عن أسرار كان المظنون إنها لا قبل باكتشافها، وفي الفن وفي الأدب والعقيدة ارتفع بعض البشر بمشاعرهم ارتفاعاً جليلاً يجعل الجنس البشري خليقاً بالبقاء. أينتهي كل هذا إلى الفرع التافه لأن الذين يستطيعون أن يفكروا في الإنسان بدلاً من التفكير في هذه الجماعة من الناس أو تلك قليلون؟ هل أصبح جنسنا مطموس البصيرة عاجزاً عن الحب الخالص الذي لا تعصب فيه، أعمى عن أبسط مقتضيات المحافظة على الذات لدرجة أن يكون آخر دليل على مهارته السخيفة هو كتم أنفاس كل حياة على كوكبنا؟ نعم «كل حياة» فما الإنسان وحده هو الذي سيهلك، بل سيهلك معه الحيوان الذي لا يهتمه أحد بالشيوعية ولا

بمعادة الشيوعية.

لا أراني أستطيع أن أصدق أن هذه هي النهاية، ولقد يسرني أن ينسى الناس مشاحناتهم لحظة ليتفكروا في أنهم لو سمحوا لأنفسهم بالبقاء، فإن باب الأمل مفتوح على مصراعيه على مستقبل من الانتصارات يفوق كل ما سجله الماضي من الانتصارات إلى مدى لا يقاس. ولو شئنا فالطريق أمامنا ممهد للتقدم المطرد في السعادة والمعرفة والحكمة. أنستبدل بكل هذا الموت والفناء لأننا لا نستطيع أن ننسى مشاحناتنا؟

إني -وأنا إنسان- لأهيب بالناس «أن تذكروا إنسانيتكم وانسوا ما عداها، فإن تأتى لكم ذلك فالطريق أمامكم مفتوح إلى فردوس النعيم، وإذا لم تستطيعوا فلا شيء أمامكم إلا الفناء الشامل المحيق».



خطوات نحو السلام

[خطبة لبرتراند رسل أُلقيت في غيابه
على مؤتمر السلام العالمي بهلسنكي].

أود أن أعرب للمؤتمر عن أسفي أن لم أستطع شهوده، وعن أمني أن يتمخض المؤتمر عن نتائج مثمرة.

يواجه الإنسان في الوقت الحاضر احتمالين لم يواجه مثلهما في تاريخه كله. فإما أن يتخلى عن الحرب وإما أن يتقبل احتمال فناء الجنس البشري، ولقد أطلق له النذر الكثيرة رجال من أفاضل العلماء وخبراء التخطيط العسكري وليس منهم من يقول إن أسوأ النتائج ضربة لازب. ولكن الشيء الذي أرى أنه يمكن أن يحل محل اليقين هو أنه لم يعد هناك احتمال للنصر لأي من الجانبين، بالمعنى المفهوم للنصر حتى الآن، وأنه إن ظل الاستعداد للحرب العلمية مستمرًا بغير حدود، فإن الحرب القادمة خليفة ألا تذر وراءها ديارًا، ولهذا فالإمكان الوحيد الميسور للبشر هو: إما السلم في الوفاق وإما السلم في الفناء.

وسلسلة الخطوات التي أنا مقترحها الآن عليكم تساعد -في اعتقادي- على الوصول إلى الاحتمال الأسعد، ولا شك عندي أن هناك طرقًا أخرى تؤدي إلى ذات الهدف. ولكن المهم، إذا أردنا ألا يشل نشاطنا اليأس المشيخ، أن نستحضر في أذهاننا على الأقل طريقة واحدة محددة المعالم للوصول إلى السلم المأمون.

وقبل أن أمعن في هذه الخطوات أحب أن أعلق على وجهة نظر -خاطئة في نظري- يدعو لها بعض محبي السلام المخلصين حين يقولون إن ما نحتاج إليه هو اتفاقية بين الدول ألا يستعملوا الأسلحة الذرية، فإني أعتقد أن محاولة الوصول إلى مثل هذه الاتفاقية طريق أعمى مضلل لسببين:

أحدهما أن هذا النوع من الأسلحة قد أصبح الآن في الإمكان صنعه بدرجة من التخفي تعضل على التفتيش، الشيء الذي يستتبع، حتى لو أمكن الوصول إلى اتفاقية تحرم مثل هذه الأسلحة، أن يظن كل جانب من الجانبين أن خصمه قائم في السر بصنعها، فيؤدي سوء الظن من الجانبين إلى مزيد من التوتر في العلاقات فوق ما هي متوترة الآن.

والحجة الأخرى هي أنه حتى لو تخلى كل من الجانبين عن صنع هذه الأسلحة ما دام السلم الأسمى قائمًا، فإنهما كليهما لن يتقيدا بالاتفاقية إذا نشبت الحرب فعلاً، وسيصنع كل منهما الكثير من القنابل الأيدروجينية بعد بدء القتال.

ومن الناس كثير يمتنون أنفسهم أن لن تستخدم القنابل الأيدروجينية في الحرب بالفعل، ويشيرون إلى أن الغاز لم يستعمل في الحرب العالمية الثانية. وإنني أخشى أن هذا التمني محض هراء، فإن الغاز لم يُستعمل لأنه وُجد غير حاسم ووجد أن الأفعنة الواقية واقية فعلاً. وعلى العكس منه القنبلة الأيدروجينية؛ إذ هي سلاح حاسم ولم تكتشف بعد وقاية منه، فلو استعمله أحد الجانبين ولم يستعمله الجانب الآخر، فإن الجانب الذي استعمله يستطيع أن يوقع العجز التام بخصمه باستعمال القليل جداً من القنابل التي لن تحدث مع شيء من الحظ تلفاً كبيراً للجانب الذي استعملها، إذ إن الشرور العارمة التي يخشى منها تتوقف في الحقيقة على تفجير عدد كبير من القنابل. ولهذا أظن أن حرباً يستعمل فيها واحد من الجانبين فقط القنابل الأيدروجينية يمكن أن تنجلي عن شيء يستحق أن يُسمّى نصرًا لهذا الجانب. ولكنني لا أظن، وأنا في هذا على اتفاق مع كل حجة في المسائل العسكرية، أن هناك أدنى احتمال ألا تستعمل القنابل الأيدروجينية في حرب عالمية. ومعنى هذا أن علينا أن نمنع الحرب العالمية أو أن نهلك، وإقناع الحكومات خطوة ضرورية في طريق السلام.

والخلاصة أن محق القنبلة الأيدروجينية -ذلك الشيء الذي يجب علينا أن نرغب

جميعاً فيه - إنما يتأتى بما فيه المنفعة بعد أن يجمع الجانبان على محاولة مخلصمة لإنهاء العلاقات العدائية بين الكتلتين، فكيف السبيل إلى هذا؟

قبل أن يفتح الطريق أمام أي تعاقد أو احتياط عالمي يجب التوصل إلى شيئين: أولهما: أن تتبين الدول البالغة القوة أن أهدافها، مهما تكن، لا يمكن أن تتحقق بالحرب.

والثاني: وهو نتيجة لهذا الاقتناع الشامل، أن تزول الريب عند كل من الجانبين أن الجانب الآخر يستعد للحرب.

وإليك بضع مقترحات تدبرونها عن الخطوات التي قد تؤدي إلى هذين الغرضين لو أمكن اتباعها:

أولى الخطوات بيان يعلنه عدد قليل من أعظم رجال العلم عن التأثير المتوقع من حرب ذرية.

هذا البيان يجب ألا يوحى أضعف إحياء بالميل إلى أحد الجانبين، فمن المهم أن يخبرنا الثقات من رجال العلم بلغة بسيطة ما ينبغي أن نتوقعه بطرق شتى، وأن يضعوا بين أيدينا المعلومات المحددة كلما أمكن والفروض الراجعة حيث تتعذر الأدلة القاطعة. إن معظم الحقائق يمكن التحقق منها إلى مدى ما تصل إليه معرفتنا الحاضرة، لمن كان يريد أن يتجشم العناء الكبير في جمع المعلومات، ولكن المطلوب هو أن تكون المعرفة من البساطة بقدر الإمكان، وأن تكون في متناول اليد في يسر، وأن تكون على سعة في الانتشار، وأن يوجد بيان مؤيد يركن إليه من يتولون أمر نشر المعرفة من الفريقين. ولسوف يوضح هذا البيان - بكل تأكيد - أن أي حرب نووية لن تحقق العالم الذي يرغب فيه الشيوعيون، ولا العالم الذي يرغب فيه أعداء الشيوعيين، ولا العالم الذي يرغب فيه المحايدون.

وينبغي أن يُدعى العلماء في كل أنحاء العالم إلى المشاركة في هذا البيان الفني، وأرجو في خطوة تالية أن يصير هذا التقرير أساسًا للتصرف عند واحدة أو أكثر من الحكومات غير المنحازة، فتعرضه هو أو تعرض تقريرًا آخر يضعه خبراءها العلماء إذا شاءت، على الحكومات القوية كلها وتدعوهم إلى إبداء رأيهم فيه، ولهذا ينبغي أن يكون للتقرير رجاحة الحجة العلمية لدرجة لا يمكن معها لأي حكومة أن تجادل في مضمونه. وهكذا تستطيع الحكومات على كلا جانبي الستار الحديدي أن تعترف في وقت واحد، وبغير خجل ولا استحياء، للدول غير المنحازة أن الحرب لم تعد تصلح استمرارًا للسياسة. وفي اعتقادي أن الهند، من بين الحكومات المحايدة، في موقف مناسب بنوع خاص لهذه المهمة، نظرًا لما لها من خبرة في الوساطة الناجحة، استفادتها في كوريا والهند الصينية. ولهذا آمل أن أرى حكومة الهند تعرض التقرير العلمي على كل القوى الكبرى، وتدعوها إلى إبداء رأيها فيه، وأمل أن ينساق الجميع بهذه الطريقة إلى الاعتراف بأن ليس ثمة شيء يكسبونه من الحروب النووية.

وينبغي أن يحدث في هذه الأثناء نوع معين من التكيف في أفكار أولئك الذين لا يزالون يناصرون الشيوعية ومن يعادونها، فإن عليهم أن يتبينوا أن مرارة التشنيع على المعسكر الآخر والإصرار على كشف خطايا الماضي والريبة في الدوافع الحقيقية لا تخدم غرضًا نافعًا، ولا حاجة بهم طبعًا إلى التخلي عن آرائهم في الأنظمة أيها الأحسن إلا بمقدار ما يحتاج الناس إلى التخلي عن انتصارهم للأحزاب السياسية المختلفة في السياسة الداخلية. ولكن الواجب المحتم عليهم جميعًا هو الاعتراف بأن نشر وجهة النظر التي يفضلونها ينبغي أن يتم بالإقناع لا بالقراع.

فلنفرض إذن أن الدول الكبرى استمليت بهذه الطريقة المقترحة إلى الاعتراف أن لا واحدة منها مستطيعه التوصل إلى أهدافها بالحرب، وهي أصعب خطوة في الطريق، ولنتدبر الخطوات التي ينبغي اتخاذها بعد هذه الخطوة الأساسية الأولى:

أولى الخطوات التي يجب اتخاذها في التو هي التوصل إلى إيقاف مؤقت للنزاع، الساخن والبارد على السواء، بينما ترسم الخطوات لإيقاف دائم لها، وحتى يتم هذا، تقوم الهدنة المؤقتة على أساس من الحالة الراهنة، إذ إن أي أساس غيرها سيستلزم مفاوضات صعبة. هذه المفاوضات ينبغي أن تأتي بعد ذلك مع الزمن، وإذا قدر لها أن تكون مثمرة فلا بد ألا تجري في جو العداء والريبة القائمين الآن. وينبغي في هذه الفترة التي تتطامن فيها الأحقاد أن تقل الحملات الصحفية، وأن يسكت حتى النقد العادل لأي من الجانبين في صحافة الجانب الآخر، كما ينبغي أن يشجع التبادل التجاري والتزاور بين ممثلي الفئتين، وخصوصاً التزاور الثقافي والتعليمي. وكل هذا ينبغي أن يهدف إلى إعداد جو صالح لمؤتمر عالمي، ولتمكين مثل هذا المؤتمر من أن يكون أجدى من صراع لا رحمة فيه بين الأقوياء. فإذا توافر الجو الودي المناسب بهذه الطرق، فينبغي أن يعقد المؤتمر العالمي بقصد إيجاد طرق غير الحرب يفصل بها في المنازعات بين الدول، وهو عمل شاق مجهود، لا لاتساعه وتعقده وحسب، ولكن للمنازعات الحقيقية نفسها التي قد تنشأ على المصالح؛ ولا أمل لهذا المؤتمر في النجاح ما لم تنهياً الآراء لإنجاحه، فعلى المندوبين للمؤتمر أن يجتمعوا على اعتقادين راسخين في أذهانهم جميعاً: أولهما الاعتقاد بأن الحرب تعني الكارثة الجائحة، والثاني أن الفصل في نزاع فصلاً ودنياً أجدى وأنفع للمتنازعين كليهما من استمرار النزاع، حتى وإن كان الفصل فيه غير مرض كل الإرضاء لأي من الجانبين. فإن كان المؤتمر مشبعاً بهذه الروح، ففي الإمكان أن يتقدم وهو على أمل النجاح في حل المشكلات الضخمة التي ستواجهه.

وأول المشكلات التي ينبغي حلها هي تخفيض التسليح القومي، إذ إن هذا التسليح ما دام باقياً على مستواه الحالي فسيكون واضحاً أن إعلان التخلي عن الحرب إعلان لا إخلاص فيه. وينبغي أن تعاد الحريات التي كانت قائمة قبل سنة ١٩١٤، لا سيما

حرية الرحيل والسفر، وحرية تداول الكتب والصحف، وإزالة العوائق من طريق تلاقي الأفكار عبر الحدود الوطنية، فإن إعادة هذه الحريات السالفة خطوة ضرورية نحو إقامة تفاهم بين البشر أنهم أبناء أسرة واحدة، وأن التقسيمات الحكومية إذا صارت تقسيمات عنيفة كما هي الحال في الوقت الحاضر، فستكون عائقاً صعباً في طريق السلم.

فإذا تمت هذه الأعمال فعلى المؤتمر أن يعمل على إيجاد سلطة عالمية حاولوا إيجادها مرتين من قبل أولاهما: عصبة الأمم والأخرى هيئة الأمم المتحدة، ولست أزعج الدخول في مناقشة هذه المشكلة هنا، ويحسن أن أقول إنه ما لم تحل هذه المسألة فليس لإجراء غيرها أي قيمة دائمة.

ولقد ظل العالم منذ سنة ١٩١٤ عرضة للرعب المتزايد عمقاً واتساعاً، فلقد هلك أعداد ضخمة من الرجال والنساء والأطفال وعانى جانب كبير جداً ممن لم يهلكوا الخوف من الموت القريب، وأصبح الناس في الغرب كلما فكروا في الروسيين أو الصينيين، كما أصبح الروس والصينيون كلما فكروا في أبناء الغرب، ينظر كل منهما إلى الآخر على زعم أنه مصدر الكوارث والخراب، لا على أنهم بشر عاديون لهم ما للبشر العاديين من القدرة على الحزن والسرور. وهكذا أخذ الظن يتزايد ألا مهرب من اليأس إلا الاستخفاف، وأصبح المهرب الذي يمكن أن يتحقق بالأمل الواعي والسياسة البناءة يبدو مستحيلاً؛ ولكن اليأس المستخف الطائش ليس هو الحالة النفسية المعقولة الوحيدة في هذا العالم الذي وجدنا أنفسنا فيه؛ إذ يكاد كل فرد على حدة في مختلف أنحاء العالم أن يكون أسعد وأفلح مما هو الآن لو تخلى الشرق والغرب عن نزاعهما. لا حاجة إلى أن نطلب من أيهما أن يتنازل عن أي شيء إلا أن يكون ذلك الشيء هو حلم التحكم في العالم الذي أصبح الآن أكثر استحالة من أشد الطرديات إيغالاً في التفاؤل. إن لدينا الآن ما لم يحدث إن كان لدى

أسلافنا من وسائل لتوفير الضرورات والكماليات التي تجعل الحياة لينة ناعمة، فإن روسيا والصين، إذا استقر السلم على ضمان، تستطيعان أن تكرسا لإنتاج البضائع الاستهلاكية كل طاقة تكرسانها في الوقت الحاضر للتسلح. وإن المهارة العلمية الضخمة التي استنفدت في إنتاج الأسلحة النووية كانت كفيلة بتحويل الصحاري إلى جنات مثمرة وبإنزال المطر على الصحراء الكبرى وصحراء جوبي. ومن الطاقات ما سوف ينشأ مع زوال الخوف ويرتفع بالروح الإنساني إلى عنان الجوزاء وما يعود به مرة ثانية إلى نشاطه الخلاق، وسوف تذوب المخاوف المعتمدة القديمة التي ما زالت ماثلة في أعماق قلوب الناس.

لن يكون هناك منتصر في حرب تستعمل فيها القنابل الأيدروجينية. فإما أن نعيش معاً، أو أن نموت معاً. وإني على اعتقاد راسخ أن لو تفرغ من يوقنون بهذا في نشاط كاف لأداء مهمتهم، فإننا قادرون على أن نجعل العالم يحقق هذا، فالشيوعيون وأعداء الشيوعيين - على السواء - يفضلون الحياة على الموت، فإذا عرضت عليهم المسألة واضحة فلا جرم سيختارون الإجراء الذي يحفظ الحياة، وهذا رجاء منهك؛ لأنه يتطلب ممن يرى المسألة من بيننا بكل هوامشها الملتوية بذل مجهود ضخم في الإقناع يكرهم علمهم الصعب بأن الوقت قصير، ويرين على أنفسهم احتمال الهوس الذي ينتج عن تأمل الهاوية الممكنة. ولكن هذا الرجاء، وإن كان مجهداً شاقاً، إلا أنه ينبغي أن يظل نابضاً وينبغي أن نتمسك به مهما تكن المثبطات، فإنه حافز ربما لعدد قليل نسبياً في بادئ الأمر، ولكنه سيتزايد بالتدريج حتى يأتي اليوم الذي يصيح فيه الناس جميعاً صيحة الفرح المدوية محتفلين بإنهاء القتل المنظم وابتداء حقبة أسعد من أي حقبة مرت على الإنسان في تاريخه الطويل.



الفهارس

١- فهرس الأعلام

باتر ٢٧٣، ٢٧٥	أموري ١١٣
باريس ١٤١	أبيقور ٢٨٢، ٢٨١
باركر (جرانفل) ٩٢	أجاثوكليس ٢٥٧
باك ١٦٩، ١٧٥	أجاممنون ٢٦٣
بالفور (سير آرثر) ٥٢، ٥٣، ٩٣، ١٤٢	أديان ٢١٦، ٣٠٩
بانكهريست (سيلفيا) ٥٤	إدوارد السابع ١١٦
بت (وليم) ١٥٥	أرستاخوس ٢٨١
بترونييفك (براتسلاف) ٤٦	أرسطوطاليس ٢٩١
بتلر (صمويل) ١١٠، ١١١	سبينوزا ١٠٢، ٢٣٦، ٢٩١
براسي (لورد) ١٤٤	الإسكندر ٢٩١
برايد ٢٥٤، ٢٥٥	أفروديت ١٤١
برايس (لوسيان) ١٣٥	أفلاطون ٢٩، ٣٨، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٩٨، ١١٧، ١٢٧، ١٧٣، ١٨٤، ١٨٩، ٢٠٥، ٢١٨
برجسون ١٠٩، ١١١، ١٣٤	إليزابيث الأولى (بس الطيبة) ٢٠٢، ٢٢٦
بركلي ٢٠٦	أوبنهايمر ١٧٨
بروكوبيوس ٢٥٠	أوديب ٢٦٣
بروميثيوس ٢٦٧	أوديسيوس ٢٨
بروننج (أوسكار) ٩٠	أورويل ١٧١، ٢٨٩
بسمارك ١٩	أوغسطين ١٣٥، ٢٥٣
بلوتارك ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥	أوين ١١٤، ١٧٠
بليزر ١١٣	أير ٢٨١
بليك (وليم) ١٠٠	أينشتين ٢٦١

تريفيليان (بوب) ۱۰۳	بنتام ۱۴۴، ۱۵۶، ۱۸۵
تريفيليان (تشارلز) ۱۰۳	بوديشيا ۲۸۱
تريفيليان (جورج) ۱۰۳، ۲۵۰، ۲۵۱	بوانكاريه (هنري) ۴۲، ۱۳۷
تسنج ۱۲۲	بوذا ۲۳۴
تشميرلين (جوزيف) ۱۱۴	بوتر ۱۴۰، ۱۴۴
تيسون ۹۰، ۹۶	بوسكوفيك ۴۷
تورجينيف ۱۲۰	بول (روبرت) ۹۵
تولتسوي ۱۱۱، ۱۲۰	بول 164 Boole
توماس الاكويني ۱۲۷	بولر ۲۹۵
تيخوبراي ۲۶۱	بولز (تومي) ۱۱۳
تير بيتز ۱۵۰	بوليبوس ۲۶۵
تيلو (مسز) ۱۶۳، ۱۶۸، ۱۶۹	بوهر (نيلز) ۲۰۱
تيليمونت ۲۶۰	بيانو ۴۳، ۴۷
توينبي ۲۵۳، ۲۶۶	بيجهوت (ولتر) ۲۵۹
ثيوسيد يديس ۲۶۵، ۲۶۷	بيرك ۱۳۴
جارمان ۹۸	بيفر بروك ۱۵۸
جاليليو ۱۳۰	بيرون ۱۵۸
جب (سير رتشارد) ۹۳، ۹۴	بيكون (فرانسس) ۴۲
جراي (سير إدوارد) ۴۸، ۱۱۳	بيكيت (توماس) ۲۰
جريشام ۲۵۲	بيل (جون كينير) ۱۳۴
جلادستون ۱۹، ۹۱	بيلاطس البنطي ۲۴۳
جوان أوف أورليانز (جان دارك) ۱۰۶	بينيرو ۱۰۶
جوبير ۳۰۹	بييدكر ۲۷۳
جوته ۱۹، ۱۲۹	تاسيتوس ۱۵۸، ۲۶۵
جيون ۷۵، ۲۵۸، ۲۵۹، ۲۶۰	ترتوليان ۳۰۲
جيفرسون ۲۸۶	تروتسكي ۲۶۴، ۲۹۰
جيفونز ۱۷۳	ترتيشكه ۲۶۵

جيمس (وليم) ١٢٧	(لادي جون) ١٨
خروتشوف ٧١	روسو ١١٩، ١٢١
دارون (تشارلز) ٩٥، ١١٠، ١١١، ١٦٨، ٢٦٦	رولان (مدام) ١٥٨
دارون (جورج) ٩٥	ريكاردو ١٧٢، ٣٠١
دارون (لادي) ٩٥	زنوبيا (الزباء) ٢٥٩
دالاس (جون فوستر) ٧١	زيوس ٩٦، ٢٦٧
دانتلي ١٢٩	ساربي (باولو) ١٣٤، ٢٦٤
دراپر ٩٧	سانتايانا ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١
دزرائيلي ١٩، ٦٧	سانجر ٩٧، ٩٨
دوستويفسكي ١٢٠	سان سيمون ١٧٠
دوفرين ٢٢	سينسر (هربرت) ١٤٠، ١٦٨
دونس سكوٽس ١٦٤	ستالين (يوسف أوف موسكو) ١٠٦، ١٥٠، ١٧٤، ١٧٨، ١٨٤، ٢٦٢، ٢٦٤، ٣٠٢، ٣٠٣
ديديڪند ٤١، ٤٢	ستراشي (لبتون) ١٠٤
ديفيز (ثيودور) ٩٨، ٩٩	سقراط ١٩١، ٢٩٠
ديفيز (كرومبتون) ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٣٦	سليسمور ٣٠٨
ديڪارت ٣٦، ١٨٤، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٩١	سميث (لوجان بيرسول) ٢٧٣، ٢٧٦
ديڪنسون ١٠١	سينيڪا ٢٨١
ديموقريطيس ١٣١	سنون ٥١، ٥٤
ديموستين ١٥٨	سوينرتون ١١٠
ديوتشر ٢٩٠	سيدجويڪ ٩٣، ٩٤
ديودورس سيڪولوس ٢٥٧	(مسز) ٩٤
رذرفورد ٢٠١	شارل الثاني ٢٥٥
رسل (آل) ١٨	شارل نخبتون ٢١٦
(برتراند) ١٣٠، ٣١٥	شبنجلر ٢٥٣
(جون) ١٥٣	شو (جورج برنارد) ٩٨، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١٤١، ١٤٢
(جون كونراد) ١٢١	

فیروز (۹۲، ۹۴)	شو (المسز) ۱۰۸
فیکتوریا ۱۸، ۶۷، ۶۹، ۷۰، ۱۵۹، ۱۷۳، ۱۷۴	شیان کای تشیک ۲۹۵
قیصر (یولیوس) ۱۴۷	شیکسبیر ۴۲، ۲۶۳
کارتريت ۱۵۸	شیللر ۱۹
کارلیل ۱۶۳، ۱۸۵، ۲۵۷، ۲۶۳، ۲۸۱، ۳۰۲	شیللی ۱۵۵
کارناب ۱۹۱	طاليس ۲۰۲
کاسندرا ۱۶۰	نماریلبدی ۱۵۸
کانط (عمانویل) ۴۰، ۴۱، ۴۲، ۶۱، ۱۰۲، ۱۳۳، ۱۶۷، ۲۰۴	فارادای ۲۶۱
کانتور ۴۱، ۴۲	فاسکودا جاما ۲۵۳
کیلر ۲۶۰	فافیلف ۱۷۸
کرومویل (أوليفر) ۲۰، ۲۶۶، ۲۸۱	فتجنشتین ۴۴، ۴۵
کریس (سیر ستافورد) ۱۴۵	فخته ۱۸۳
کلارندون ۲۶۵	فرای ۱۰۱
کلیانتس ۲۸۱	فردریک (الأکیر) ۲۸۱
کوبدن ۶۸	فردریک (الثاني) ۲۶۲
کوتیرا (لويس) ۳۹، ۴۰	فردریکا (الإمبراطورة) ۹۰
کوردیلیا ۱۰۲	فریجه ۴۲، ۴۳، ۴۴
کورنفورد ۲۶۷	فریزر (جیمس) ۹۴، ۹۵
کولیرج ۱۸۵، ۲۵۲	فلوبیر (جوستاف) ۲۷۳، ۲۷۵
کولمبس ۲۵۳	فورستر ۱۰۴
کونراد (جوزيف) ۱۱۸، ۱۱۹، ۱۲۰، ۱۲۱، ۱۲۳	فورییه ۱۷۰
کیرنسکی ۵۰، ۲۰۳، ۲۴۴	فوستر (آمي) ۱۲۱
کینز ۱۰۴، ۱۴۶، ۱۹۵	فوکس ۱۷، ۱۵۵
لایرتیز ۱۸۹	فولتیر ۲۶۵
لنکولن (إبراهام) ۲۲۶	فیار شتراس ۴۱
لنین ۲۵، ۵۸، ۱۷۴، ۲۶۲، ۲۶۴، ۳۰۲	فیثاغورس ۳۸، ۶۲، ۶۴
	فیرن (جولز) ۱۱۴

١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩،
 ١٨٠، ١٨٢، ١٨٤، ٢٧٣
 مل (جيمس) ١٦٨
 ملتون (انظر ميلتون)
 مندل ٣٠٣
 مور (ج.أ.) ٤٧، ٦١، ١٠٢، ١٢٩
 موراي ٩٢
 مورلي ٢٢
 موريس (ف.د.) ٩٨
 موريل (اللاذي أوتولين) ١١٨، ١٤٦
 موسولينى ١٢٥، ١٤٢
 مومش ٢٦٥
 مونتسكيو ١٨١
 ميكوبر ١٩٧
 ميلتون ٢٦٣، ٢٧٥
 ميلمان ٢٥٨
 مينيل ٥١
 نابليون (الأول - بوناپرت) ١٧، ١٥٥، ١٧٤،
 ٢٥١، ٢٦٤، ٢٩١
 نابليون (الثالث - لويس) ١٧٥
 نيتشه ١٧٠، ٢٦٣
 نيرون ٢٨١
 نيوتن ٢٦٦
 نيومان ١٣٧
 هاردي (ج.ه.) ٣٤
 هاردي (كير) ١٤٤
 هاريسون (مس) ٩٢
 هاملت ١٨٩، ١٩٢، ٢٦٢، ٢٦٣

لوتزوف ١٣٤
 لورانس (د.ه.) ١٤٦، ١٥٠، ١٥١
 لوك (جون) ١٦٥، ٢٩١
 لوكرتيس ١٢٩، ١٣٠، ١٣١
 لينتز ٣٩، ٤٠، ٤١
 لير (الملك) ١٠٢
 ماتسيني ١٥٨
 مارشيان ٢٥٤
 مارس (سير إدوارد) ١٠٣، ١٠٤
 ماركس (كارل) ١٠٧، ١١٧، ١٧٠، ١٧٢،
 ١٧٥، ١٨٥، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣
 ماركس أوريليوس ٢٨١
 مازاريك الأكبر ١١٠
 ماك آرثي ٢٩٣
 ماك تاجارت ٣٧، ١٠١، ١٠٢
 ماكدونالد (رمزي) ١٤٢
 ماكسويل ٢٦١
 ماك كارثي ١٠٤
 ماكولي ٢٦٥
 ماكيزر ١١٣
 مالتس ٣٠١
 ماني ٢٥٤
 ماوتسي تونج ٧١
 مايرز ٢٥٣
 المسيح ٢٩٠
 مفيسفو فليس ٥٥
 مل (جون ستيوارت) ٦٨، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤،
 ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١

هتلر (أدولف) ٢٦٤، ١٧٤، ١٤٢، ١٢٣	والاس (جريهام) ١٤١
هرقليطس ٢٠٥	وب (آل، بياتريس، سدني) ٥٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢
هكسلي ١٨٠	١٧٣، ١٤٥، ١٤٤، ١٤٣
هنري (الرابع) ٢٢٦	وب (بروفسيور) ٩٧
هوايتهيد ٥٦، ٦٢، ٦٥، ٩٧، ٩٨، ١٣٢، ١٣٣	ولسن (رودرو) ٥٣، ٢٤٣، ٢٤٤
١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ٢٦٤	ولنجتون (دون) ١٦٤، ١٦٥
هيجل (فردريك) ٣٧، ٤١، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤	وليم الأوكامي ١٦٤
١٠١، ١٠٢، ٢٢٤، ٢٤١، ٢٥٣، ٢٦٥	وورويك (اللادي) ١١٦
هيروودوت ٢٦٥	ويلز (هـ. ج.) ١٠٨، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١١٥
هيوم (ديفير) ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٦	١١٦، ١١٧، ١٤٢
هيونز ١١٣	يوريبيدس ٩٢
وارد (جميس) ٤٣، ٩٤، ١٣٣	

٢- فهرس المواضيع والبلدان

أركتيكا ١٧٨	أفيلا ١٢٥
آسيا ١٨، ٢٤، ٥٨، ٢٢٣، ٢٤١، ٣٠٤	أكسفورد ٤٤، ٤٦، ١١٣، ١١٥
آسيا الصغرى ٢٥٢	الألب ١٢٥
آشفورد ١١٨	ألبا ١٧، ١٥٥
آشفنز ١٤٩	أنستر (شمال شرق) ٢٤٤
الاتحاد السوفيتي (انظر روسيا)	ألمانيا (بروسيا) ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٤٨، ٤٩، ٦٨، ١١٤، ١١٥، ١٧٥، ٢٢٤، ٢٦٥، ٢٨١
أدلفي تيراس ١٠٨	أمريكا (الولايات المتحدة) ٢٤، ٥٨، ٦٧، ٦٩، ١٢٠، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٠، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٩٥، ٢٢٣، ٢٤٤، ٢٦٣، ٢٨٣، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٦
إسبانيا ١٢٤، ١٥٥	إنجلترا (بريطانيا) ١٨، ١٩، ٢٣، ٢٤، ٤٨، ٤٩، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٩٣، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٦، ١٥٥
أستراليا (اتحاد... الغربية) ١٧٧، ١٠٠	
اسكس ١١٦	
أشبيلية ١٢٦	
أفريقيا ١٨، ٢٤، ٢٢٣، ٢٦٠	

بوهميا ١٣٤	١٥٦، ١٦٠، ١٦٣، ١٧٥، ١٩٨، ٢١٣، ٢٢٦، ٢٤٤، ٢٩٢، ٢٩١، ٢٦٥، ٢٥٠
بيكينى (جزيرة) ٣٠٨	إنجلترا الجديدة ٢٥٥، ٢٥٤، ١٢٩
تاير جارتن ٨٤، ٨٥	أوروبا ١٩، ٢٧، ٤٩، ١٧٨، ٢٢٣، ٢٤١، ٢٩٥
تراتبناخ ٤٥	(الشرقية)
تشيشاير ١٨٩	(الغربية)
تشيكوسلوفاكيا ١١٠	أورشليم ١٣٥
تمبل جاردنز ١٢٤	أورليانز ١٠٦
توتنهام كورت ٥٤	الأولمب ٣٣
التيمس (نهر) ٢٧٤	أيرلندا ٢٤٣، ٢٦٦، ٢٨١
ثانيت (جزيرة) ١٣٥، ١٣٦	إيست ألستر (انظر ألستر)
جامايكا (جزيرة) ٢٨١	إيطاليا ٧٥، ٩٨، ١٥٧، ٢٥٤
جرانشستر ١٣٦	باجلي وود ١١٥
جزيرة العرب ٢٥٣	باريس ٢٢، ٣٩، ٦٢، ١٢٥، ١٤٤، ٢٤٢
جنوب إفريقيا ٢٩٥	بانجكوك ١٢٢
جيرتون (كلية) ٧٥	بتروجراد ٢٥، ٢٤٤
الدردنيل ١٥٩	البحر الأبيض المتوسط ٦٢، ١٢٥
درسدن ٢٥١	براندر برجر تور ٨٥
ديفشير ١٠٣	برايد (تقاطع) ٢٥٥
رتشموند بارك ١٨، ١٥٩	برود ستيرز ١٣٧
روسيا (الاتحاد السوفيتي) ١٨، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٤٨، ٥٧، ٥٨، ٦٧، ٦٨، ١١١، ١١٤، ١١٩، ١٢٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨، ١٨١، ٢٤١، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٢٣	بروسيا (انظر ألمانيا)
روما ٢٦٥، ٢٧٥	بلغاريا ٢٥٤
سانتا هيلينا ٢٥١	بريطانيا (انظر إنجلترا)
سدوم وعمورة ١٨١	بمبوك لودج ١٥٩
سكسونيا ٩٠، ١٥٩	بوسطن ١٢٤، ١٢٩، ٢٧٤
السكندنافية (البلاد) ٢٤	للثورة الفلسطينية والشعب اللبناني
	بولندا ١٢٠

١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٦، ٢٥٩، ٢٧٤،
٢٧٥

كنت ١١٨، ١٢٠، ١٣٥

كنجزلين ١١٣

كورنول ١٢٢

كورية ٣٢٠

كونجز برج ١٦٧

كلير كبي لونسديل ٩٨، ٩٩

لبرادور ١١٧

لندن ٥٠، ٦١، ١٠٧، ١٠٩، ٣٠٨

لييزج ٢٥١

ليبيريا ١٥٩

ليك دستركت ١٠٣

لييج ١١٦

مادنجلي (غابة) ٤٥

المارن ٤٩، ١٠٤، ١٢٥، ١٢٦

مانشستر ٤٤، ١٧٠

مانيللا ١٢٤

المجر ٢٤١

المكسيك الجديدة ١٤٨

المورة (شبه جزيرة) ٢١٦

موسكو ٥٧، ٥٩، ٦٩، ١٠٦، ١١١، ٣٠٨

مونت كارلو ٢٨٢

مونمو تشير ١٠٧

النمسا (الإمبراطورية النمساوية)

نورمانديا ١٤٣

نيوهام ٩٤

سوثجيت ٥٠، ٥٤

سوث داونز ١٠٨

سويسرا ١٧٣

سيام ١٢٢

سيبيريا ٢٩٠، ٣٠٣

سيربوس ٢٣٢

شانتاه بون ١٢٢

شيبى (جزيرة) ١٣٥

صحراء جوبي ٣٢٣

الصحراء الكبرى ٣٢٣

صهيون (جبل) ١٣٥

الصين ٢٧، ٥٨، ٦٩، ١٢١، ١٢٢، ٢٥٢،

٢٥٤، ٢٩٥، ٣٢٣

الطرف الأغمر ٤٠

غالمي ١٥٥

فرساي ٢٥، ١٨١

فرنسا ٢٠، ٢٣، ٦٥، ٦٧، ١١٤، ١٧٥، ٢٢٦،

٢٥٤، ٢٦٥

قبرص ٦٧

قرطاجنة ٢٦٥

القرم ١٤٠، ١٤٤

كالييسو (جزيرة) ٢٨

كاليفورنيا (جامعة) ١٣٠

كان ٣٩

كرانفورد ١٣٦

كليمنجارو ١١٣

كمبريدج (جامعة) ٢١، ٢٢، ٣٥، ٣٦، ٣٧،

٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٨٩، ٩٠، ١٠٧، ١٢٦،

هيوويل ٩٧	نيويورك ١٩٣، ٣٠٨
هيروشيما ٣٠٨	هارفارد (جامعة) ١٢٤، ١٢٨، ٢٩٣
وستمنستر (مقبرة) ٩٩	هارو (كلية) ٩٦
الولايات المتحدة (انظر أمريكا)	هانوفر ٤٠
ونشستر ٢١٧	هايد بارك ١٤٨
ووترلو ١٥٦، ٥٠	هلسنكي ٣١٥
يوغسلافيا ٤٧	الهند ٦٧، ٣٢٠
	الهند الصينية ٣٢٠
	هولندا ١٤٢، ٢٩١

٣- فهرس الكتب والقصائد والأعمال الأدبية

تاريخ حركة التمرد (كلارندون) ٢٦٥	آمال جديدة لعالم متغير (رسل) ٧٣
تاريخ كمبريدج القديم ٢٥٩	آمي فوستر (كونراد) ١٢٠
تاريخ مجلس ترنت (باولو ساربي) ١٣٤	أصل الأنواع (دارون) ١٦٨، ٢٢٦
تاريخ المسيحية (ميلمان) ٢٥٨	ألف ليلة ٢٦٧
تحت عيون الغرب (كونراد) ١٢	(١٩٨٤) (أرويل) ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٧
تحليل العقل (رسل) ٥٣	الإنجيل ٢٧٥
تراجم عظماء اليونان والرومان (بلو تارك) ٢٦١	الأوديسة (هوميروس) ٢٨، ١١٠
ترقيم الأفكار (فريجه) ٤٣	إيرهون (بتلر) ١١٠
التطور الفكري لأوروبا (دراير) ٩٧	باكورة حياة تروتسكي (ديوتشر) ٢٩٠
التقاليد المهدبة في الفلسفة الأمريكية	بلد العميان (ويلز) ١١٧
(خطاب لسانتايانا) ١٣٠	بوهيميا. صورة تخطيطية لتاريخها
التيفون (كونراد) ١٢٠	(لوتزوف) ١٣٥
ثلاثة شعراء فلاسفة (سانتايانا) ١٢٩	البيان الشيوعي ١٧٢
	تاريخ إنجلترا الاجتماعي (تريفليان) ٢٥٠

ثلاث مقالات عن الدين (مل) ١٦٨
الثورة الفرنسية (كارليل) ٢٥٧
جمهورية أفلاطون ٩٨
حرب العالمين (ويلز) ١١٦
حول إخضاع النساء (مل) ١٧٣، ١٧٤
حياة الحجا (سانتايانا) ١٢٧
دون كيشوت (سرفانتز) ١٥٧
الديكا ميرون (بوكاشيو) ١٨٠
روح القس (ويلز) ١١٧
رياح العقائد (سانتايانا) ١٢٩
زبدة الأبسنة (شو) ١٠٧
الصيني الوثني (قصيدة) ١٢٢
طريد الجزر (كونراد) ١٢٠
عامل القرية (هاموند) ٢٦٢
عبادة الحر (رسل) ٥٦، ٢٧٥
العميل السري (كونراد) ١١٩
العودة إلى متوشالغ (شو) ١٠٩، ١١١
الغصن الذهبي (فريزر) ٩٤
فجر التاريخ (مايرز) ٢٥٣
الفردوس (دانتى) ٨٥
في أيام المذنبات (ويلز) ١١٥
في الحرية (مل) ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٦
في الوصايا (جارمان) ٩٨

قانون الإيمان ١٩٠
قبلاي خان (كوليرج) ٢٥٢
قطب الظلمات (كونراد) ١١٩، ١٢٠
قوانين الفكر (بول) ١٦٤
كتاب الصلوات ٢٧٥
كليو. إلهة الفن الجميل (تريفيليان) ٢٥١
لماذا أعارض الشيوعية (رسل) ٢٩٩
المبادئ الرياضية (رسل) ٥٦
مبادئ إعادة بناء المجتمع (رسل) ١٤٧
مبادئ الاقتصاد السياسي (مل) ١٦٩،
١٧٢، ١٧٣
مبادئ نيوتن ٢٦٦
مجالات الوجود (سانتايانا) ١٢٧، ١٢٨
محاورات هوايتهيد (برايس) ١٣٥
معرفتنا بالعالم الخارجي (رسل) ٢٧٤
المعقول في الحرب (شو) ١١١
مقدمة للفلسفة الرياضية (رسل) ٥٢
المنطق (مل) ١٦٤، ١٦٥، ١٦٨، ١٧٣
النجوى في إنجلترا (سانتايانا) ١٢٩
هوامش التاريخ (ويلز) ١١٦

٤- فهرس الموضوعات

١٨٧	العقل والمادة	٥	مقدمة: هذا الكتاب
٢١١	عبادة الاستعمال الشائع	١٥	خلاصة حياتي
٢١٣	١ - عدم الإخلاص:	٣٣	- لماذا تعلق بالفلسفة؟
٢١٤	٢- تبرير الجهل:	٣٩	- بعض صلاتي الفلسفية
٢٢١	المعرفة والحكمة	٤٧	- تجارب مسالم في الحرب العالمية الأولى
٢٢٩	فلسفة لزماننا	٥٤	- من المنطق إلى السياسة
٢٣١	الهنا والآن	٦٠	- عقائد: ملقاة ومستبقة
٢٣٢	صور الكون المختلفة	٦٦	آمال : محققات ومخيبات
٢٣٥	جذور التقدم الاجتماعي	٧٣	كيف تشيخ؟
٢٣٩	دعوة إلى التفكير الواضح	٧٩	نظرات على يوم ميلادي الثمانين
٢٤١	معنى الديموقراطية	٨٧	صور من الذاكرة
٢٤٤	ترجمة المشكلات إلى صور مجردة	٨٩	بعض زملاء كمبريدج في العقد التاسع
٢٤٧	التاريخ فنًا	٩٧	بعض من عاصرتهم في كمبريدج
٢٧١	كيف أكتب؟	١٠٦	جورج برنارد شو
٢٧٩	الطريق إلى السعادة	١١٢	ه.ج. ويلز
٢٨٧	أعراض ١٩٨٤ الأوروبية	١١٨	جوزيف كونراد
٢٩٩	لست شيعيًا	١٢٤	جورج سانتايانا
٣٠٥	الخطر على الإنسان	١٣٢	ألفريد نورث هوايتهد
٣٠٩	مشكلة صارخة لا مهرب منها	١٣٩	سدني ويباتريس وب
٣١٥	خطوات نحو السلام	١٤٦	د. هـ. لورانس
٣٢٥	الفهارس	١٥٣	لورد جون رسل
		١٦١	جون ستيوارت مل

